

تفسير جزء عم

تأليف:

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زبير المحمدي الشافعي
كانت إقامته في الدنيا والآخرة



تفسير جزء عم

الموقع الرسمي:

<http://www.alzoukory.com>

قناة بذل النصائح للاستمرار بالعمل الصالح - تلجرام

- باللغة العربية: http://T.me/A_lzoukory

- باللغة الإنجليزية: http://T.me/A_lzoukoryen

صوتيات الشيخ حفظه الله تعالى - واتس: ٠٠٩٦٧-٧٤-٠٢٧-٨٠٢

رقم الهاتف الخاص بالشيخ حفظه الله تعالى: ٠٠٩٦٧-٧٧٧-١٦٥-٢٦١

تويتر: www.twitter/A_Alzoukory?s=08

فيس بوك:

www.facebook.com/649918028352367

يوتيوب:

[www.youtube.com/channel/UCK2Lx1f](http://www.youtube.com/channel/UCK2Lx1fToSQco2hW3tdgzOg)

[ToSQco2hW3tdgzOg](http://www.youtube.com/channel/UCK2Lx1fToSQco2hW3tdgzOg)





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فإن من أهم المهمات هو فهم كتاب الله العزيز الذي أنزله الله عز وجل على محمد ﷺ، وجعله حجة بينه وبين عباده، فهو الهدى والبيان والفرقان، وهو المحفوظ بحفظ الملك الديان، وقد ذكر الله عز وجل من صفاته ما يدل على ما تقدم قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا لِيُحْيِيَ النَّبَاتِ وَالشَّجَرِ الْمَعْتَدِ ﴿١٠٢﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ [الإسراء: ٩].

ومن باب فهم القرآن درست جزء عم في **روضتان (٤٠: ٤١هـ)** ثم رأيت أن أنشره للناس لعل الله أن ينفع به، والله المستعان، وجزء عم فيه وسط المفصل وقصاره، وقد جاء من حديث جابر رضي الله عنه، أنه قال: صَلَّى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ الْأَنْصَارِيُّ لِأَصْحَابِهِ الْعِشَاءَ، فَطَوَّلَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْصَرَفَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَصَلَّى، فَأَخْبَرَ مُعَاذٌ عَنْهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلُ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ مَا قَالَ مُعَاذٌ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ قَتَانًا يَا مُعَاذُ؟ إِذَا أَمَمْتَ النَّاسَ فَاقْرَأْ بِ ﴿ الشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ [الشمس: ١]، وَ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ [الأعلى: ١]، وَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴿١﴾ [العلق: ١]، وَ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ [الليل: ١]» (١).

وكان تقسيم القرآن إلى أحزاب، ومنه المفصل مشهوراً على عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فذهب جمهور أهل العلم إلى أن المفصل من سورة ق إلى آخر القرآن على القول المشهور، ووسط المفصل من سورة عم إلى سورة الضحى على القول المشهور، وقصار المفصل من سورة الضحى إلى الناس، وهناك أقوال أخرى، لكن هذا أرجحها.

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥)، واللفظ له.

وأغلب سور المفصل كان نزولها في بدء الوحي حيث كان الناس لا يؤمنون بجنّة ولا بنار، ولا يبعث ولا نشور، فقرر الله **عَزَّوَجَلَّ** لهم تلك الحقائق وجلاها وبينها وأوضحها، فثاب الناس من شركهم إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإسلام، ومن المعصية إلى الطاعة، فعند ذلك أنزل الله بعد ذلك: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة، لا تقربوا الزنا، ولا تقتلوا أنفسكم، إلى غير ذلك من الأحكام، ففي البخاري (١) عن عائشة أم المؤمنين **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، أَنَّهُ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ، فَقَالَ: أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ، وَمَا يَضْرُكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَيْنِي مُصْحَفَكَ؟ قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أَوْلَفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضْرُكَ أَيُّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفْصَلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْحَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْحَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّانَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ **ﷺ** وَإِنِّي لَجَارِيَةُ الْعَبْ: ﴿بِالسَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ [٤٦] [القمر: ٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ، قَالَ: فَأَخْرَجْتُ لَهُ الْمُصْحَفَ، فَأَمَلْتُ عَلَيْهِ آيَ السُّورِ.

ولما كان هذا هو الحال وأغلب الناس يقرءون في صلاتهم بقصار المفصل إلا القليل ممن قد حفظ القرآن أو شيئاً منه، بل إن كثيراً من حفاظ القرآن إن كانوا يصلون بالناس فإنهم يتوخون المفصل ووسطه وقصاره؛ رفقاً بالناس، وامتنالاً لسنة رسول الله **ﷺ**، فإن غالب قراءات النبي **ﷺ** في الصلاة كانت من المفصل فعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أَنَّهُ قَالَ: مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ **ﷺ**، أَشْبَهَ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ **ﷺ** مِنْ فُلَانٍ - قَالَ سُلَيْمَانُ - «كَانَ يُطِيلُ الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ، وَيُخَفِّفُ الْأُخْرَيَيْنِ، وَيُخَفِّفُ الْعَصْرَ، وَيَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ الْمُفْصَلِ، وَيَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ بِوَسْطِ الْمُفْصَلِ، وَيَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ بِطَوَالِ الْمُفْصَلِ» (٢)، ولا أعلم ما يثبت عن النبي **ﷺ** في القراءة خارج المفصل إلا ما كان من قراءة سورة الصافات كما قال ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ** يَأْمُرُ بِالْتَّخْفِيفِ، وَيُؤْمِنَا بِالصَّافَاتِ» (٣).

وكذلك قراءة ﴿الْعَمَّ (١) نَزِيلٌ﴾ السجدة في فجر يوم الجمعة، وقراءة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، «فَلَمَّا بَلَغَ ذِكْرَ مُوسَى وَهَارُونَ، أَصَابَتْهُ سَعْلَةٌ، فَرَكَعَ **ﷺ**» (٤).

(١) برقم (٤٩٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٩١).

(٣) أخرجه النسائي (٩٠٢).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٣٩٣)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

وأغلب الناس يقرءون ولا يفهمون ما يقرءون؛ ولهذا تعين على العلماء والمشايخ والدعاة أن يبينوا معاني هذه السور، القصيرة في مبنائها العظيمة في معناها؛ فإن الإنسان إذا قرأ القرآن متدبراً متفهماً جره ذلك إلى الخشوع، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وسبب زيادة الإيمان أنهم علموا معاني ما يُتلى عليهم، والله الهادي إلى سواء السبيل، فأسأل الله عزَّجَلَّ أن يجعل ما يكتب نافعا لعباده مبلغاً إلى مرضاته.

وكتبه:

أبو محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد المحمدي الرضائي
كاتب الرضا في الرضا والآخرة

٦/ من ذي الحجة / ١٤٤٠هـ
مسجد الصحابة بالفضة



مَكِّيَّةٌ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ آيَاتُهَا ٧

الحمد لله، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيَّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَخَلِيلُهُ، ﷺ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذه تعليقة مختصرة على سورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن العظيم، كان أصلها كلمة في مسجد السنة بالقرن والقائم عليه الشيخ جمعان لحمم حفظه الله وجزاه خيراً.

ثم رأيت أن تفرد في هذا المختصر وزدت عليها بعض النقولات تتميمًا للفائدة.

ولي بحمد الله **عَرَّجَلٌ** «فتح الكريم في تفسير السبع المثاني والقرآن العظيم»، وهو كتاب واسعٌ وسفرٌ كبيرٌ ذكرت فيه المهمات تفصيلاً وإجمالاً لكن اكتفيت هنا بالاختصار، وبالله التوفيق وأسأله العون.



من نعم الله عَرَّجَلٌ إنزال القرآن:

فإن من نعم الله **عَرَّجَلٌ** على عباده العظيما وهباته الجليلات لهو إنزال القرآن، هذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، جعله الله تعالى، موعظة وشفاء ورحمة ونورا، وهو الكتاب المين، والكتب الحكيم، وكلام رب العالمين، وهو جبل الله المتين، وصراطه المستقيم، وفصائله مذكورة فيه ومذكورة في كثير من الأحاديث.

وقد نقل السيوطي **رَحْمَةُ اللَّهِ** في «الإتيان» عن بعضهم، أن أسماء القرآن في القرآن تزيد على خمسين، ومعلوم أن كل اسم من أسماء القرآن يتضمن صفة وربما تضمن ودل على أكثر من ذلك.

وقد اشار الشوكاني **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى في «مقدمة تفسيره» أن أبلغ الوصف للقرآن ما وصفه الله **عَرَّجَلٌ** به، ووصفه به رسوله ﷺ، فقال **رَحْمَةُ اللَّهِ**: وهو الكتاب المبارك قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

فهو مبارك في تلاوته، ومبارك في معانيه ومواعظه، ومبارك في تدبره، ومبارك في العمل به،

ومبارك في الاستشفاء به، إلى غير ذلك من البركات العظيمة والهبات الجليلات التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الكتاب، فهو كلامه تعالى وصفته.

ومن عجيب شأنه أن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل كتبًا كثيرة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، فكل رسول له كتاب من الله عَزَّوَجَلَّ يتعبد به ويدعو إليه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وَسِرُّ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالْكَتُبِ وَالشَّرَائِعِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ أَنْتَهَى إِلَى هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارُ الْعُبُودِيَّةِ وَالنُّوحِيدِ، حَتَّى قِيلَ: أَنْزَلَ اللهُ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ مَعَانِيَهَا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ هَذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ فِي الْمُقْصَلِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْمُقْصَلِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَمَعَانِيَ الْفَاتِحَةِ فِي ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] (١). اهـ.

وسورة الفاتحة أعظم سورة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، دلَّ على ذلك حديث أبي سعيد بن المَعْلَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَصَلِّيَ فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَعَانِي، فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّى ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِي؟ أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأَنْفَالُ: ٢٤]» ثُمَّ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أُخْرَجَ»، فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُخْرِجَ فَذَكَرْتُ لَهُ، وَقَالَ: «هِيَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾» [الفاتحة: ٢] السَّبْعُ الْمَثَانِي (٢).

وفي هذا دليل على مسألة مهمة وهي تفاضل القرآن الكريم، وتفاضل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وهذه مسألة مهمة وأدلتها كثيرة وقد أطلت في النقل عن العلماء في التفسير الموسع لهذه السورة.

وهي أعظم سورة في القرآن بنص حديث رسول الله ﷺ، ومما يدل على عظمتها وفضلها أن الله افترض علينا قراءتها في كل ركعة وأنها تغني عن غيرها ولا يغني غيرها عنها في الصلاة.

وهي من فضلها أنها رقية، فعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: نَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَأَتَتْنَا امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمًا، لُدِّعَ، فَهَلْ فِيكُمْ مَنْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مِنَّا، مَا كُنَّا نَظُنُّهُ يُحْسِنُ رُقِيَةً، فَرَفَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَبَرَأَ، فَأَعْطَوْهُ غَنَمًا، وَسَقَوْنَا لَبَنًا، فَقُلْنَا: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقِيَةً؟ فَقَالَ: مَا رَقِيْتُهُ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ. قَالَ: فَقُلْتُ: لَا تُحَرِّكُوهَا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ. فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ،

(١) مدارج السالكين (١/ ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤٧).

فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «مَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟ ااقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ مَعَكُمْ» (١).

﴿ومنها أنها خاصة بالنبي ﷺ وهذه الأمة، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَفِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُحِ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَتْهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ (٢).﴾

﴿ومنها أنها جامعة بين الدعاء والثناء.

ولها أسماء عظيمة:

﴿فهي القرآن العظيم.

﴿وهي السبع المثاني.

﴿وهي الفاتحة.

﴿وهي الصلاة.

﴿وهي الرقية.

﴿وهي أم الكتاب.

﴿وهي أم القرآن.

﴿وهي الحمد.

﴿وزاد بعضهم الكافية.

﴿والشافية.

وذكروا لها غير ذلك وكثرة الاسماء الثبوتية تدل على الكمال، والقرآن العظيم صفة الله تعالى فكل اسم يتضمن صفة.

وهي سبع آيات كما هو نص القرآن قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ

الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ [الحجر: ٨٧] ونص السنة وعليه الإجماع وما ذكر غير ذلك فهو قول شاذ لا يلتفت إليه ولا يعول عليه.



(١) متفق عليه، البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١).

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٦).

هل البسملة آية:

﴿لأن العلماء اختلفوا هل البسملة آية من آياتها أو ليست من آياتها؟﴾

والصحيح الذي عليه المحققون أنها ليست آية من الفاتحة، بل ولا من كل سورة وهي بعض آية من سورة النمل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل: ٣٠]، وأشهر حديث يستدل به على ذلك ما أخرجه الإمام مسلم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة: ٣]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنِي عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤]، قَالَ: مَجِدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوْضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. وفي رواية: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي»^(١).

فلم يذكر فيه البسملة فقسم الله عزَّوجلَّ سورة الفاتحة بينه وبين عبده الثلاث الآيات الأولى، وهي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، فهذه في حق الله عزَّوجلَّ حمداً وثناءً ومجداً على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. والآية الرابعة، وهي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، هي التي بين العبد وبين الله عزَّوجلَّ، ف ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بيان لحق الله عزَّوجلَّ، و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بيان لحال العبد واستعانه بالله عزَّوجلَّ واعتماده عليه.

ثم القسم الآخر وهو الدعاء ثلاثة آيات وهي: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

فصارت سبع آيات بغير البسملة على الصحيح من أقوال العلماء.

ومعلوم أن إثبات البسملة آية من الفاتحة يوجب قراءتها في كل صلاة وعدم الإثبات لا يوجب القراءة وإنما تكون قراءتها من المستحبات.

وهدي النبي ﷺ الإسرار بالبسملة في الصلاة كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» (١).

ولم يثبت عنه ﷺ الجهر مطلقاً كما ذكر ذلك الدارقطني مع أنه رَحِمَهُ اللَّهُ يرجح الجهر وألف رسالة في ذلك، وما جاء من حديث نُعَيْمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُجَمِّرِ، قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثُمَّ قَرَأَ بِأَمِّ الْقُرْآنِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] فَقَالَ: «أَمِينَ». فَقَالَ النَّاسُ: آمِينَ وَيَقُولُ: كُلَّمَا سَجَدَ «اللَّهُ أَكْبَرُ»، وَإِذَا قَامَ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الْإِثْتَيْنِ قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ»، وَإِذَا سَلَّمَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَشْبَهُكُمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» (٢)، فَقَدْ أَعَلَ الْعُلَمَاءُ زِيَادَةَ الْجَهْرِ بِ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وأنه شذ بها نعيم المجرم، وأطال في بيان ذلك الزليعي في «نصب الراجية».

وعند الترمذي، عَنِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْقَلٍ، قَالَ: سَمِعَنِي أَبِي وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ، أَقُولُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فَقَالَ لِي: أَيُّ بَنِي مُحَمَّدٍ إِيَّاكَ وَالْحَدِيثُ، قَالَ: وَلَمْ أَرِ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ الْحَدِيثُ فِي الْإِسْلَامِ، يُعْنِي مِنْهُ، قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ، وَمَعَ عُمَرَ، وَمَعَ عُثْمَانَ، فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقُولُهَا، فَلَا تَقُلْهَا، إِذَا أَنْتَ صَلَّيْتَ فَقُلْ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْقَلٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَغَيْرُهُمْ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ. وَبِهِ يَقُولُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَابْنُ الْمُبَارَكِ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ لَا يَرَوْنَ أَنْ يُجَهَّرَ بِهِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالُوا: وَيَقُولُهَا فِي نَفْسِهِ (٣). اهـ.

وقراءة سور الفاتحة ركن في الصلاة لحديث عبادة بن الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»، وفي رواية «بِأَمِّ الْكِتَابِ» (٤)، وفي بعضها «بِأَمِّ الْقُرْآنِ»، وهذا الحديث متفق عليه (٥).

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣)، ومسلم (٣٩٩)، بألفاظ كثيرة.

(٢) رواه النسائي في «سننه» (٩٠٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٩٩، ٦٨٨)، وغيرهم.

(٣) برقم (٢٤٤).

(٤) أخرجه البخاري في «القراءة خلف الإمام» (٤).

(٥) البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

وقد ألف البخاري رَحْمَةً اللَّهِ تعالى جزء في «القراءة خلف الإمام» وأثبت أن قراءة الفاتحة واجبة على المأموم والإمام والمنفرد، وبوب في «صحيحه» بابٌ وُجُوبِ الْقِرَاءَةِ لِلْإِمَامِ وَالْمَأْمُومِ فِي الصَّلَاةِ كُلِّهَا فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، وَمَا يُجْهَرُ فِيهَا وَمَا يُخَافَتُ. ولا تسقط قرأتها إلا عن العاجز الذي لم يتمكن أو لم يستطع حفظها كرجل أسلم ووجبت عليه الصلاة فإذا علم الفاتحة ربما خرجت عليه الصلاة قبل أن يصلي فله أن يصلي بغير الفاتحة وأن يقول بدلاً عن الفاتحة: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، لما روى، من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخَذَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا فَعَلَّمَنِي مَا يُجْزئُنِي مِنْهُ، قَالَ: «قُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا لِلَّهِ عَزَّجَلَّ فَمَا لِي، قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي» (١).

معاني البسملة:

فأما معاني البسملة فعلى ما يأتي قوله: ﴿بِسْمِ﴾ الباء للاستعانة، وقيل للمصاحبة والأول أظهر وأشهر إذ أن العبد يسمي الله تعالى متبركا بذكره مستعينا به في تيسير أمره وتفريج كربه. والاسم: مشتق من السمو الذي هو العلو وقيل من السمة والأول أظهر لأنه يجمع على أسماء ويصغر على سُمِّي ولو كان مشتقا من السمة لجمع على سمات ويصغر على سُمِيَّة، وهل الخلاف في هذا عقدي؟ فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الخلاف عقدي من حيث أن القول باشتقاقه من السمة قول المبتدعة الذين يزعمون أن الله عَزَّجَلَّ كان ولا صفات له حتى وصفه عباده وسموه وهذا قول المعطلة.

وقوله: ﴿اللَّهُ﴾ اسم الجلالة علم على الذات العلية مختص بالله وعليه جميع مدار الأسماء الحسنى وهو الاسم الأعظم على الصحيح من أقوال العلماء وهو مشتق من الإله. قال رؤبة ابن العجاج:

لِللَّهِ دَرُّ الْغَائِيَّاتِ الْمُدَّهِ * * * سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأْلُهِ

أي: من تعبدي.

قوله: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ من أسماء الله الحسنى، وهو من الأسماء المختصة بالله عَزَّجَلَّ، وهو على

(١) أخرجه أحمد (١٩١١٠)، وأبو داود (٨٣٢)، والنسائي (٩٩٨)، والحديث مخرج في «إرواء الغليل».

وزن فعلان وزيادة المباني دليل على زيادة المعاني، وقد أنكره كفار قريش، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ١٠ ﴾

[الفرقان: ٦٠]، وكأن هذا والله أعلم من باب المكابرة إذ قد وُجد في أشعار العرب قول الشنفرى أو لبعض الجاهلية الجهلاء.

أَلَا ضَرَبْتَ تِلْكَ الْفِتَاءَ هَمِجِنَهَا ❁❁❁ أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا

وهو متضمن لصفة الرحمة المتعلقة بالذات على ما يأتي.

قوله: ﴿الرَّحِيمِ﴾ من أسماء الله الحسنى وليس بمختص فقد سمي الله تعالى نبيه ﷺ رؤفًا رحيمًا، وهو دال على صفة الرحمة المتعدية ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فالحكمة إذا فيما أظن وأرى والله أعلم من افتتاح القرآن بالبسملة:

❖ **أولاً:** للتبرك بذكر الله تعالى.

❖ **ثانيًا:** الاستعانة بالله تعالى.

❖ **ثالثًا:** تقديم اسم الله تعالى على من سواه.

❖ **رابعًا:** التحصن من الشيطان الرجيم وجنده.

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا والله أعلم السر العظيم في كون البسملة تضمنت الأسماء الثلاثة العظيمة حتى يدخل تحتها كل وصف حسن، والتنزه من كل ما يصاد ذلك وبالله التوفيق والله أعلم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ٣﴾ مَلِكٌ
يَوْمَ الدِّينِ ٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧﴾ ﴿

يقول الله عزَّوجلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢﴾: **الْحَمْدُ**: هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله وآلته القلب واللسان، ويكون على الصفات اللازمة كالجمال والكمال، والمتعدية كالإحسان والرحمة والكرم.

والله عزَّوجلَّ قد افتتح خمس سور بالحمد: سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: ٢]، وسورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ٢﴾ [الأنعام: ١]، وسورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ١﴾ [الكهف: ١]، وسورة سبأ، وهي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخْرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ١﴾ [سبأ: ١]، وسورة فاطر، وهي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنٍ وَثُلثَ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١﴾ [فاطر: ١]، وقد حمد الله تعالى نفسه في مواطن كثيرة غيرها، وهكذا نبينا ﷺ أمر بحمد الله عزَّوجلَّ وحث عليه ولازمه.

و(ال) في الحمد للاستغراق، أي: جميع المحامد ثابتة لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**. واثبات المحامد يتضمن إثبات كل كمال لله عزَّوجلَّ، كمال السمع، وكمال البصر، وكمال القدرة، وكمال الإرادة، وكمال الخلق، وكمال الحكمة، وكمال القوة، وكمال المشيئة، وغير ذلك من الصفات. ويستلزم نفي جميع النقائص، فهاتان الكلمتان (سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ) إذا تأملتَها جيدًا وجدتَ فيهما إثبات جميع الكمال، ونفي جميع النقص عن الله عزَّوجلَّ.

كما أن كلمة (سُبْحَانَ اللَّهِ) تتضمن نفي جميع النقائص وتستلزم إثبات جميع الكمال لله عزَّوجلَّ؛ لأن إثبات الكمال يلزم منه نفي النقيصة ونفي النقيصة يلزم منه إثبات الكمال. ولهذا جُمع بينهما في عدة مواطن في الأذكار، كأذكار الصباح والمساء، وفي أذكار الصلاة، وغير ذلك.

قوله: ﴿رَبِّ﴾ من أسماء الله تعالى الحسنى، ويُستعمل بالألف واللام أو مضافاً ولا يستعمل مع غيره إلا مضافاً وغير محلي بالألف واللام.

ومن معانيه السيد والمالك والمربي، قال ابن كثير **رَحِمَهُ اللهُ**: الرَّبُّ هُوَ: الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ، وَعَلَى الْمُتَصَرِّفِ لِلْإِصْلَاحِ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى (١). اهـ.

وقال الإمام ابن القيم **رَحِمَهُ اللهُ** تعالى: رَبُّوبِيَّتُهُ لِلْعَالَمِ تَتَّصِنُ تَصَرُّفُهُ فِيهِ وَتَدْبِيرُهُ لَهُ وَنَفَادَ أَمْرِهِ كُلِّ وَقْتٍ فِيهِ، وَكَوْنُهُ مَعَهُ كُلِّ سَاعَةٍ فِي شَأْنٍ: يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُخَفِّضُ وَيَرْفَعُ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيُعْزِّزُ وَيُذِلُّ، وَيُصَرِّفُ الْأُمُورَ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارُ لِرَبُّوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ (٢). اهـ.

فالرب من أسماء الله الحسنى ولم يُذكر في حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** الذي أخرجه الترمذي (٣)، وفيه ذكر الاسماء الحسنى. ومن الأوجه التي أعلها بها العلماء أن اسم الرب الذي كان يدعوا به جميع الأنبياء ليس مذكوراً فيه، وهو من الاسماء الحسنى بدلالة القرآن والسنة وزيادة ذكر الاسماء الحسنى في الحديث مدرجة عن الوليد بن مسلم، وقيل عن غيره وقد أعلها الحفاظ. وإنما المحفوظ ما رواه الشيخان (٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **ﷺ** قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

والربُّ: هو المربي للعالم الحافظ لهم المعين لهم لاسيما المسلم، فربوبية الله له ربوبية إعانة وحفظ وكلاءه ونصر وتأييد فمن هذه الناحية فيها ترغيب إذ أن الله ربك محيط بك وعالم بحالك ولن يضيعك ولن يتركك هملاً؛ بل أنعم عليك بنعم كثيرة بها تعلم ما يجب عليك ووفقك وهداك وسددك وكم من نعم لله **عَزَّجَلَّ** الرب على عباده وفيها ترغيب من حيث أن الله **عَزَّجَلَّ** هو المتصرف في هذا الكون، وربوبيته على عباده عامة وخاصة، فربوبيته لجميع العباد عامة ربوبية قهر وقدرة ولا يعجزه شيء **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

قوله: ﴿الْعَلَمِيَّتِ﴾: كل ما سوى الله **عَزَّجَلَّ** عالم، سواء في ذلك الجن والأنس والملائكة والأرض وما فيها.

وسموا (عالم) من العلامة، فالعلامة هي الآية التي تبين الشيء وتدل عليه فهذا الكون بها

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٣١/١).

(٢) «الصواعق المرسله» (١٢٢٣/٤).

(٣) برقم (٣٥٠٧).

(٤) البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

فيه علامة على قدرة الله **عَزَّجَلَّ** وعلى أن لهذا الكون خالقًا ورازقًا ومالكًا ومدبرًا.

وهو وفي هذه الآية بيان للنوع الأول من أنواع التوحيد:

❖ **وهو توحيد الربوبية:** وهو إفراد الله **عَزَّجَلَّ** بالخلق والملك والتدبير.

❖ **والنوع الثاني، توحيد الألهية:** هو إفراد الله بالعبادة أو بأفعال المكلفين، فالله **عَزَّجَلَّ** رب جميع العالمين مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، ويلزم من ذلك أنه الإله الحق وما سواه باطل، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].

❖ **والنوع الثالث، توحيد الأسماء والصفات:** وهو إفراد الله **عَزَّجَلَّ** بأسمائه وصفاته. والاهتمام بالتوحيد من المهمات لا سيما مع كثرة المخالفين للكتاب والسنة النبوية الصحيحة وقد تكلمت على هذا الباب بتوسع في كتابي «فتح المجيد ببيان هداية القرآن إلى التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد»، فتجد أن كثيرًا ممن يقول لا إله إلا الله قد علق قلبه بحررز أو قبة أو قبر ونحو ذلك.

وقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

ثنى سبحانه وتعالى بهذين الاسمين العظيمين الجليلين، وهما اسمان عظيمان من اسماء الله الحسنى دالين على إثبات صفة الرحمة لله **عَزَّجَلَّ**؛ إلا أن اسم الرحمن أبلغ من اسم الرحيم، والقاعدة عند اهل اللغة ان زيادة المباني تدل على زيادة المعاني كما تقدم.

فالرحمن على وزن فعلان وهو من الاسماء المختصة بالله **عَزَّجَلَّ**، ولم يُسَمَّ به إلا مسيلمة الكذاب من باب المكابرة، وقد كانت العرب تعرف الرحمن ولكن المكابرة والعناد وفي حديث أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أَنَّ قُرَيْشًا صَاحَبُوا النَّبِيَّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** لِعَلِيِّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «اكْتُبْ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَا بِاسْمِ اللَّهِ، فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ^(١)، وفي القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ [الفرقان: ٦٠] فهو من الاسماء المختصة ولا يجوز ان يسمى غير الله به، كاسم (الله)، والظاهر، والقاهر، والمتكبر، والجبار، والرحمن، وغير ذلك من الاسماء المختصة.

وأما اسم (الرَّحِيمِ) فليس من الاسماء المختصة؛ ولهذا سمي الله **عَزَّجَلَّ** محمداً رحيمًا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ﴿[التوبة: ١٢٨].

و(الرحمن) رحمن الدنيا والآخرة ورحمته للبر والفاجر، و(الرحيم) خاصة بالمؤمن ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ورحمته للكافر بإطعامه واستصحاحه وغير ذلك مما يتعلق به في حياته الدنيا وأما في الآخرة فلا رحمة له.

وقد ذهب العلامة ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ^(١) إلى أن (الرحمن) دال على الصفة القائمة بالذات، و(الرحيم) دال على تعلقها بالمرحوم، ولهذا لم يجمع اسم الرحمن متعددا في القرآن، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ولم يقل: رحمانًا، وهذا أحسن ما قيل في الفرق بينهما.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سباه الله تعالى حمداً كما تقدم في الحديث القدسي. ولما قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ سباه ثناءً.

والفرق بين الحمد والثناء: أن الثناء تكرر الحمد، وإلا فالأصل أن الثناء من الحمد؛ لكن إذا تكرر الحمد مرة أو مرتين أو ثلاث يسمى ثناءً.

قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: ثم قال تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وفي بعض القراءات ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فكلاهما من الأسماء الحسنى وقد ذكر العلماء أوجه للإتيان بهالك وملك، ولخصها ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ تعالى في «تفسيره» للفتاحة وذكرها أيضاً غيره من المتقدمين لاسيما فيما أولف في أوجه القراءات.

فمالك الذي له الملك، أي أنه متصرف فيما يملك، قالوا: وقد يكون مالك لا ملك، وقد يكون ملك لا مالك. ملك كحال الملوك على الأرض، على الدول يكون ملك لكن ليس مالك لكل شيء ولا متصرف لكل شيء؛ بينما جمع في حق الله بأنه ملكٌ ومالكٌ، وهذا يدل على عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وملك الله تعالى دال على عظمته وربوبيته، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقوله: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، اليوم الآخر، سمي يوم الدين لأن الناس يجازون بأعمالهم، فالمؤمن يجازى على إيمانه والكافر يجازى على كفره ولا سواء ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا

طَلَمَ الْيَوْمَ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ [غافر: ١٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وَتَخْصِيصُ الْمَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِأَنَّهُ لَا يَدْعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ (١). اهـ.

وفي الحديث الذي تقدم قوله: «مَجْدَنِي عَبْدِي»، والفرق بين المجد والحمد: أن المجد من أنواع الحمد، إلا أن الحمد أعم والمجد أخص، فإذا قلت: الحمد لله الهادي المحسن المنعم كان هذا حمدًا وليس بمجد؛ لكن إذا قلت: الحمد لله العظيم القاهر القوي الظاهر الجبار كان هذا مجدًا وهو حمد.

فالجد يكون بصفات العظمة والجلال والكبرياء لأن كلمة (م ج د) تدل على السعة قال تعالى: ﴿ذُو

الْعَرْشِ الْمَجِيدِ ﴿١٥﴾ [البروج: ١٥] على قراءة الكسر أي العرش الواسع العظيم، وعلى قراءة

الضم ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ ﴿١٥﴾ [البروج: ١٥] يكون المجيد من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي هذا الباب الفارق بين المدح وبين الحمد، فالمدح لا يشترط فيه المحبة أو التعظيم فقد يمدح الإنسان ما لا يجب بينما الحمد لا يكون إلا مع المحبة والتعظيم.

ومنه الفرق بين الشكر والحمد فإن الشكر يكون بثلاث آلات: وهي اللسان، والقلب، والجوارح. والحمد يكون بالثنتين: وهما القلب واللسان.

والشكر يكون على الصفا المتعدية كالإحسان، والحمد يكون على الصفات اللازمة والمتعدية.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثم يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: العِبَادَةُ فِي

اللُّغَةِ مِنَ الدَّلَّةِ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ، وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ، أَيْ: مُذَلَّلٌ، وَفِي الشَّرْعِ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَا لَ

الْمَحَبَّةَ وَالْحُضُوعَ وَالْحَوْفَ. وَقُدِّمَ الْمَفْعُولُ وَهُوَ ﴿إِيَّاكَ﴾، وَكُرِّرَ لِلإِهْتِمَامِ وَالْحَضَرِ، أَيْ: لَا

نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَهَذَا هُوَ كَمَا لَ الطَّاعَةِ. وَالدِّينُ يَرْجِعُ كُلُّهُ إِلَى هَذَيْنِ

الْمُعْنَيْنِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ [الْفَاتِحَةِ: ٥] فَالْأَوَّلُ تَبَرُّؤٌ مِنَ الشَّرِكِ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤٌ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ،

والتفويض إلى الله عَزَّجَلَّ. وَهَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ

وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ [هُود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ

تَوَكَّلْنَا﴾ [الْمُلْكِ: ٢٩]، ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿١﴾ [الْمُرْمَلِ: ٩] (٢). اهـ.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/١٣٤).

(٢) قاله ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التفسير» (١/١٣٤).

أي نعبد إياك و قدّم المفعول ليدل على اختصاص الله بالعبادة وفي هذا دليل على إفراد الله عَزَّجَلَّ بالعبادة وأنها حقه ولا يجوز أن يُشرك معه غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا؛ ولهذا دعت جميع الرسل إلى هذا الحق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالعبادة حق الله عَزَّجَلَّ، وهي أنواع: قولية، و فعلية، ومالية، واعتقادية، فلا يجوز أن يصرف شيء من أنواع العبادات لغير الله لا القولية، ولا الفعلية، ولا الاعتقادية، ولا المالية، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْمَسَ جِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقبول العبادة أي كانت متوقفة على شرطين وهما:

١- الإخلاص لله بالتوحيد، قال الله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] وقال تعالى ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وفي «الصحاحين» عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِأَمْرِي مَا نَوَيْ» (١)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشْرَكَهُ»، والأحاديث في الباب كثيرة يعسر حصرها، وسنخرج عن الموضوع (٢).

ويدل عليه هنا قوله: ﴿إِنَّا كَتَبْنَا فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ لَكَ تَعْبُدَ﴾ [الفاتحة: ٥] فهي دالة على الإخلاص بأوضح عبارة وأحسن بيان على ما تقدم بيانه.

٢- والشرط الثاني هو: المتابعة لرسول الله ﷺ، إذ يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾

(١) أخرجه البخاري (٦٦٨٩)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

مَمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحَدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

ولما كان الإنسان عاجزًا عن فعل المأمور وترك المحذور إلا بعون الله، قال: ﴿وَبِإِثَابِكَ نَسْتَعِينُ﴾ والاستعانة: طلب العون، والمعنى أننا نستعينك يا الله على عبادتنا لك. وفي هذا كمال التوكل وصدق الاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ، والتوكل واجب وفرض وحتم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وإذا لم يعن الله العبد فلن يستطيع أن يصلي صلاةً، ولا زكاةً، ولا حجًّا، ولا ذكرًا، ولا هدايةً، ولا شيئًا من ذلك، ولهذا قال موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقومه: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وكان من دعائه ﷺ: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ»^(٢)، ومن وصيته ﷺ لمن يجب، فقد قال لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّكَ، أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(٣).

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى * * * فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

فالفضل لله عَزَّوَجَلَّ أن فرض علينا فرائض ثم أعاننا على الإتيان بها، ففي هذه الآية ما يجب على الإنسان من وجوب الخضوع لله عَزَّوَجَلَّ واستشعار العجز والنقص والفقر والحاجة إلى الله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] فما تستطيع أن تفعل شيئًا لا أن تقوم، ولا أن تصلي، ولا أن تذكر الله، فربما يضيق صدرك إلى غير ذلك. ولكن إذا أعان الله سهلت عليك الأمور، وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا، وَأَنْتَ تَجْعَلُ الْحَزْنَ إِذَا شِئْتَ سَهْلًا»^(٤).

فهذه الآية بين الله وبين العبد، أولها إخبار بما يجب على العبد من حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخاتمها أن العبد مستعين وخاضع وفقير وراجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَالْعِبَادَةُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَرِضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَالْأَفْعَالِ، وَالْمُعْتَقَدَاتِ.

(١) متفق عليه، البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
 (٢) أخرجه أحمد (١٩٩٧)، وأبو داود (١٥١٠) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والحديث في «الصحیح المسند» (٦٠٦) لشيخنا مقبل الوداعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
 (٣) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والحديث في «الصحیح المسند» (١١٠٧) لشيخنا مقبل الوداعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
 (٤) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم الليلة» (٣٥١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث في «الصحیح المسند» (٧٣) لشيخنا مقبل الوداعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ**: وَالْعِبَادَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: غَايَةُ الْحُبِّ بِغَايَةِ الدُّلِّ وَالخُضُوعِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ أَيْ مُدَلَّلٌ، وَالتَّعَبُّدُ: التَّدَلُّلُ وَالخُضُوعُ، فَمَنْ أَحَبَّبْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ خَاصِعًا لَهُ، لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ، وَمَنْ خَضَعْتَ لَهُ بِلا مَحَبَّةٍ لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ حَتَّى تَكُونَ مُحِبًّا خَاصِعًا، وَمِنْ هَاهُنَا كَانَ الْمُتَكَبِّرُونَ مُحِبَّةَ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ مُنْكَرِينَ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، وَالْمُنْكَرُونَ لِكُونِهِ مُحِبُّوًّا هُمْ، بَلْ هُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِمْ، وَوَجْهُهُ الْأَعْلَى نِهَايَةُ بُغْيَتِهِمْ مُنْكَرِينَ لِكُونِهِ إِلَهًا، وَإِنْ أَقْرَبُوا بِكُونِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ وَخَالِقًا لَهُمْ، فَهَذَا غَايَةُ تَوْحِيدِهِمْ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الرَّبُّوبِيَّةِ الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، وَلَمْ يَخْرُجُوا بِهِ عَنِ الشِّرْكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [الفن: ٢٥]، ﴿ **قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا** ﴾ [المؤمنون: ٨٤]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْرِكُونَ** ﴾ [٨٩] [المؤمنون: ٨٩]، وَلِهَذَا يُجْتَنَّبُ عَلَيْهِمْ بِهِ عَلَى تَوْحِيدِ إِلَهِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ، كَمَا أَنَّهُ لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَالِاسْتِعَانَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: الثِّقَّةُ بِاللَّهِ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَتَّقُ بِالْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ، وَلَا يَتَّكِمُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ لِاسْتِعْنَائِهِ عَنْهُ، وَقَدْ يَتَّكِمُ عَلَيْهِ مَعَ عَدَمِ ثِقَتِهِ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلِعَدَمِ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، فَيَحْتَاجُ إِلَى اعْتِمَادِهِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ وَاثِقٍ بِهِ.

وَالتَّوَكُّلُ مَعْنَى يَلْتَمِسُ مِنْ أَصْلَيْنِ: مِنَ الثِّقَّةِ، وَالِاعْتِمَادِ، وَهُوَ حَقِيقَةٌ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: ٥]، وَهَذَانِ الْأَصْلَانِ وَهُمَا التَّوَكُّلُ، وَالْعِبَادَةُ قَدْ ذُكِرَا فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، فَرَنَّ بَيْنَهُمَا فِيهَا، هَذَا أَحَدُهَا.

وقال **رَحْمَةُ اللَّهِ**: وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمُعْبُودِ وَالْمُسْتَعَانَ عَلَى الْفِعْلَيْنِ، فَفِيهِ: أَدْبَهُمْ مَعَ اللَّهِ بِتَقْدِيمِ اسْمِهِ عَلَى فِعْلِهِمْ، وَفِيهِ الْإِهْتِمَامُ وَشِدَّةُ الْعِنَايَةِ بِهِ، وَفِيهِ الْإِيذَانُ بِالِاخْتِصَاصِ، الْمُسَمَّى بِالْحَضَرِ، فَهُوَ فِي قُوَّةٍ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِكَ، وَالْحَاكِمُ فِي ذَلِكَ ذَوْقُ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفِقْهُ فِيهَا، وَاسْتِقْرَاءُ مَوَارِدِ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ مُقَدِّمًا، وَسَبِيوِيَّةُ نَصِّ عَلَى الْإِهْتِمَامِ، وَلَمْ يَنْفِ غَيْرَهُ.

وَلِأَنَّهُ يُقْبَحُ مِنَ الْقَائِلِ أَنْ يُعْتَقَ عَشْرَةَ أَعْبُدُ مَثَلًا، ثُمَّ يَقُولُ لِأَحَدِهِمْ: إِيَّاكَ أَعْتَقْتُ، وَمَنْ سَمِعَهُ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَغَيْرُهُ أَيْضًا أَعْتَقْتُ، وَلَوْ لَا فَهَمُّ الْإِخْتِصَاصِ لَمَا قُبِحَ هَذَا الْكَلَامُ، وَلَا حَسَنَ انْكَارُهُ. وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ **وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ** ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿ **وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ٤١]، كَيْفَ تَجِدُهُ فِي قُوَّةٍ: لَا تَرْهَبُوا غَيْرِي، وَلَا تَتَّقُوا سِوَايَ، وَكَذَلِكَ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: ٥] هُوَ فِي قُوَّةٍ: لَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ سِوَاكَ، وَكُلُّ ذِي

ذَوْقٍ سَلِيمٍ يَهْمُهُ هَذَا الْإِخْتِصَاصُ مِنْ عِلَّةِ السِّيَاقِ. وَلَا عِبْرَةَ بِجَدَلٍ مَنْ قَلَّ فَهْمُهُ، وَفُتِحَ عَلَيْهِ بَابُ الشُّكِّ وَالتَّشْكِيكِ (١). اهـ.

وقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

هذا دعاء من العبد لله عزَّ وجلَّ، وفي هذا أدب الدعاء، وهو أن الإنسان إذا أراد أن يدعو الله عزَّ وجلَّ يقدم الحمد لله والشثناء والمجد ويتوسل لله عزَّ وجلَّ بأسمائه وصفاته فإن ذلك أحرى أن يستجاب له ثم بعد ذلك يأتي بالدعاء.

وفي حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه، يقول: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللَّهَ تَعَالَى، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَلْ هَذَا»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ - أَوْ لغيره -: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَالتَّسْبِيحِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ» (٢).

والهداية المراد بها هنا هداية التوفيق ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: وفقنا إلى الصراط المستقيم والصراط هو الطريق.

والهداية أقسام ذكرها غير واحد من أهل العلم كالراغب في «المفردات» وابن القيم في كثير من كتبه.

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رحمته الله: الْهَدَايَةُ أَرْبَعَةٌ أَنْوَاعٌ: أَحَدُهَا: الْهَدَايَةُ الْعَامَّةُ الْمُشْتَرَكَةُ بَيْنَ الْخَلْقِ الْمَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ (٥٠) ﴿طه: ٥٠﴾ أَي: أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ الَّتِي لَا يَسْتَبِيحُ فِيهَا بغيره، وَأَعْطَى كُلَّ عَضْوٍ شَكْلَهُ وَهَيْئَتَهُ، وَأَعْطَى كُلَّ مَوْجُودٍ خَلْقَهُ الْمُخْتَصَّ بِهِ ثُمَّ هَدَاهُ لِمَا خَلَقَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ.

قَالَ وَهَذِهِ الْهَدَايَةُ تَعْمُ الْحَيَوَانَ الْمُتَحَرِّكَ بِإِرَادَتِهِ إِلَى جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ. قَالَ وَلِلْجَمَادِ أَيْضًا هَدَايَةٌ تَلِيقٌ بِهِ، كَمَا أَنَّ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْحَيَوَانَ هَدَايَةً تَلِيقٌ بِهِ وَإِنْ ائْتَلَفَتْ أَنْوَاعُهَا وَصُورُهَا، وَكَذَلِكَ لِكُلِّ عَضْوٍ هَدَايَةٌ تَلِيقٌ بِهِ، فَهَدَى الرَّجُلَيْنِ لِلْمَشْيِ، وَاللِّسَانَ لِلْكَلامِ، وَالْعَيْنَ لِكَشْفِ الْمُرْتَبَاتِ، وَهَلَّمَ جَرًّا.

وَكَذَلِكَ هَدَى الرُّوحَيْنِ مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ إِلَى الْإِزْدِوَاجِ وَالتَّنَاسُلِ وَتَرْبِيَةِ الْوَالِدِ، وَالْوَالِدَ إِلَى التِّقَامِ الثَّنَوِيِّ عِنْدَ وَضْعِهِ، وَمَرَاتِبُ هِدَايَتِهِ سُبْحَانَهُ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا هُوَ.

الثَّانِي: هَدَايَةُ النَّبِيَانِ وَالدَّلَالَةِ وَالتَّعْرِيفِ لِنَجْدِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَطَرِيقِي النِّجَاةِ وَالْهَلَاكِ.

(١) مدارج السالكين (١/٩٥، ٩٨).

(٢) أخرجه ابو داود (١٤٨١)، والحديث في «الصحيح المسند» (١٠٦٤) لشيخنا مقبل الوادعي رحمته الله.

وَهَذِهِ الْهُدَايَةُ لَا تَسْتَلْزِمُ الْهُدَى التَّامَّ فَإِنَّهَا سَبَبٌ وَشَرْطٌ لَا مُوجِبٌ، وَهَذَا يَنْتَفِي بِالْهُدَى مَعَهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] أَيْ: بَيْنَا هُمْ وَأَرْشَدْنَا هُمْ وَدَلَّلْنَا هُمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا. وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) [الشورى: ٥٢].

الثَّالِثُ: هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالْإِلْهَامِ، وَهِيَ الْهُدَايَةُ الْمُسْتَلْزِمَةُ لِلْإِهْتِدَاءِ فَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣]، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدُنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وَفِي قَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ»، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) [القصص: ٢٧]، فَتَفَى عَنْهُ هَذِهِ الْهُدَايَةُ وَأَثْبَتَ لَهُ هِدَايَةَ الدَّعْوَةِ وَالْيَقِينِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) [الشورى: ٥٢].

الرَّابِعُ: غَايَةُ هَذِهِ الْهُدَايَةُ وَهِيَ الْهُدَايَةُ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ إِذَا سَبَقَ أَهْلُهُمَا إِلَيْهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (١) [يونس: ٩]، وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وَقَالَ فِي حَقِّ أَهْلِ النَّارِ: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٣) [الصافات: ٢٣] (١). اهـ.

فالإنسان يسأل الله الهداية وما يدل على أهمية سؤالها أن الله عز وجل افترض علينا سؤاله إياها في كل ركعة. ووصى النبي ﷺ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ الْهُدَايَةَ وَالسَّدَادَ، فَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُلِ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَادْكُرْ، بِالْهُدَى هِدَايَتِكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادَ، سَدَادَ السَّهْمِ» (٢).

وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقْوَمُنَّ فِي قُنُوتِ الْوُتْرِ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيْمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيْمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيْمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيْمَا أَعْطَيْتَ، وَفِي شَرِّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَدُلُّ مَنْ وَالَيْتَ تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ» (٣).

(١) «بدائع الفوائد» (٣٥/٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٧١٨).

وكان من دعائه ﷺ سؤال الهدى والتقى كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى» (١).

وكم دعا لأناس بها كأم أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: كُنْتُ أَدْعُو أُمَّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَاسْمَعْتَنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَاتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمَّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْتِي عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَاسْمَعْتَنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ» فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصَرْتُ إِلَى الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعْتُ أُمَّي خَشَفَ قَدَمِي، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خُضْخُضَةَ الْمَاءِ، قَالَ: فَاعْتَسَلْتُ وَلَيْسَتْ دِرْعَهَا وَعَجَلْتُ عَنْ خِمَارِهَا، فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ فَارْجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبَشِرْ قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحِبِّبَنِي أَنَا وَأُمَّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُحِبِّبَهُمَ إِلَيْنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عَبْدَكَ هَذَا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ» فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي (٢).

ودعا لدوس ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ دَوْسًا قَدْ هَلَكَتْ عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأَتِ بِهِمْ» (٣).
فالهداية يحتاجها الإنسان في جميع لحظاته وسكناته وإذا خذل الإنسان منها خذل، نسأل الله السلامة.

وقوله تعالى: ﴿أَصْرَاطٌ الْمُسْتَقِيمِ﴾، ويقرأ بالزاي والسين، والصراط قال في بيانه ابن القيم رحمه الله: وَلَا تَكُونُ الطَّرِيقُ صِرَاطًا حَتَّى تَتَّصِمْنَ حَمْسَةَ أُمُورٍ: الْإِسْتِقَامَةَ، وَالْإِيصَالَ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَالْقُرْبَ، وَسَعَتَهُ لِلْمَازِينَ عَلَيْهِ، وَتَعْيْنَهُ طَرِيقًا لِلْمَقْصُودِ، وَلَا يَخْفَى تَتَّصِمْنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الْحَمْسَةِ. فَوْضُهُ بِالْإِسْتِقَامَةِ يَتَّصِمْنَ قُرْبَهُ، لِأَنَّ الْحُطَّ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ أَقْرَبُ حُطًّا فَاصِلٍ بَيْنَ نُقْطَتَيْنِ، وَكَلِمًا تَعَوَّجَ طَالَ وَبَعُدَ، وَاسْتِقَامَتُهُ تَتَّصِمْنَ إِيصَالَهُ إِلَى الْمَقْصُودِ،

(١) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٩٢)، ومسلم (٢٥٢٤).

وَنَصْبُهُ لَجَمِيعٍ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ يَسْتَلْزِمُ سَعَتَهُ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَوَصْفُهُ بِمُخَالَفَةِ صِرَاطِ أَهْلِ الْعُصْبِ وَالصَّلَالِ يَسْتَلْزِمُ تَعْيِنَهُ طَرِيقًا^(١). اهـ.

والصراط المستقيم هو الإسلام كما فسره النبي ﷺ، فعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ - يَا عَبْدَ اللَّهِ - فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجُهُ - ثُمَّ بَيَّنَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ هَذَا الْمَثَلِ الْعَظِيمِ، قَالَ: - وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»^(٢).

وهذا الصراط المعنوي الذي من استقام عليه، سلّم على الصراط الحسي؛ لأن هناك صراط يوم القيامة وهو الجسر الممدود على متن جهنم نعوذ بالله من شرّها فمن سار على هذا الصراط وسلك السبيل الذي افترضه الله عزّ وجلّ على عباده سهّل عليه المرور على ذلك الصراط، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ. وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «دَحْضُ مَزَلَّةٍ. فِيهِ خَطَاطِيفٌ، وَكَلَاكِبٌ وَحَسَكٌ. تَكُونُ يَنْجِدُ فِيهَا شُوبِكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ. فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرَفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْحَيْلِ، وَالرُّكَّابِ، فَتَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَتُخَدُّوسٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(٣).

فعلى قدر الاستقامة على الصراط في الدنيا تكون الاستقامة على الصراط الحسي في الآخرة، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا، وَخَطَّ خَطَيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّ خَطَيْنِ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]^(٤).

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣).

(٢) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٦٣٤)، والترمذي في «جامعه» (٢٨٥٩)، وغيرهما.

(٣) متفق عليه، البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١١).

وفي قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَلَا تَقْرُبُوا أَلْفَاوِحَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَفَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْفُلْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ [الأعام] فكل ما تضمنته هذه الآيات من صراط الله تعالى.

وفيها دليل على وجوب التمسك بسنة رسول الله ﷺ فهي دين الله عَزَّجَلَّ الحق، ولا سبيل للعبادة كما يجب إلا بسلوكها فأوجب الله طاعة رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]، ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿١٣٢﴾ [آل عمران]، وحذَّر من مخالفته وسلب الإيذان ممن لم يرض بحكمه فقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ﴿١٥٠﴾ [النساء: ٦٥]، وجعل التأيي به علامة إرادته: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ﴿١١﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقطع الخيرة مع خيرته فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وقرن طاعته ﷺ بطاعته فقال تعالى: ﴿ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ ﴿٨٠﴾ [النساء: ٨٠]، ومن خالف رسول الله ﷺ مع ادعائه لمحبة الله كان كاذبًا في دعواه قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿٣١﴾ [آل عمران: ٣١]، وجعل رحمته الواسعة لمتبع ملته فقال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّيَّ

رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وأخبر أن الجنة لأهل طاعته والنار لأهل معصيته، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤]، وكفى الله عَزَّجَلَّ رسوله ومن اتَّبعه، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤]، وأوجب الإيثار برسول الله ﷺ وقرنه بالإيمان بنفسه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، وابتلى الله عَزَّجَلَّ المؤمنين بطاعته وفرَّق بها بين أهل ولايته وأهل معصيته قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: أن هذا الصراط الذي يسأل الهداية عليه وإليه هو صراط المنعم عليهم، والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٩]، فأنت حين تقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، تقول: اللهم اجعلني على طريق من أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

أنعم الله عَزَّجَلَّ عليهم بالهداية، هداية التوفيق والتسديد، وأنعم الله عَزَّجَلَّ عليهم بالاستقامة على دينه وعلى شرعه، ومعنى ذلك أن المنعم عليهم هم صفوة البشرية وأعلامهم منزلة الأنبياء والمرسلين، حيث اصطفاهم الله بالوحي المبين وجعلهم هداة إلى طريقه القويم وإلى جنات النعيم.

ويليهم في الرتبة الصديقون وسموا بذلك لصدقهم وتصديقهم ظاهراً وباطناً وأعلامهم أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويليهم الشهداء وهم أصناف وأعلام منزلة من قتل لإعلاء كلمة الله تعالى، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمُطْعُونُ، وَالْمُبْطُونُ، وَالْغَرِقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

ثم يليهم الصالحون بأصنافهم.

وفي الآية أنه يجب على العبد أن يكون أكثرًا لسواد أهل الحق مبتعدًا عن أهل الباطل.

ثم قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، أي: لا تجعلني مع هؤلاء وفي هذا تمييز لطريق أهل الحق والاستقامة، وطريق أهل الضلال والخيانة. والمغضوب عليهم: هم اليهود، والضالون: هم النصارى، وقد جاء مفسرًا في بعض الأحاديث فعن عدي بن حاتم الطائي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالَّةٌ»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد دل كتاب الله على معنى هذا الحديث، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْمُنَازِرِ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، والضمير عائد إلى اليهود، والخطاب معهم كما دل عليه سياق الكلام.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة: ١٤]، وهم المنافقون الذين تولوا اليهود باتفاق أهل التفسير، وسياق الآية يدل عليه، وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٢] وذكر في آل عمران، قوله تعالى: ﴿وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم.

وقال في النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] إلى قوله: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. وهذا خطاب للنصارى كما دل عليه السياق، ولهذا نهاهم عن الغلو، وهو مجاوزة الحد، كما نهاهم عنه في قوله: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى

(١) متفق عليه، البخاري (٢٨٢٩)، ومسلم (١٩١٤).

(٢) رواه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٥٣)، وابن جرير (١٨٦/١، ١٩٤)، وابن أبي حاتم (٣١/١)، وله شواهد.

أَبْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ﴿ [النساء: ١٧١] الآية. واليهود مقصرون عن الحق، والنصارى غالون فيه (١). اهـ.

وعند التحقيق كلهم ضالّ، وكلهم مغضوبٌ عليه، لكن الغضب في حق اليهود أظهر لأنهم علموا ولم يعملوا، والضلال في حق النصارى أظهر لأنهم جهلوا وعملوا، ولهذا قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عِبَادِنَا فَبِهِ شَبَهُ مِنَ النَّصَارَى، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عِبَادِنَا فَبِهِ شَبَهُ مِنَ الْيَهُودِ، لِأَنَّ النَّصَارَى عَدُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَالْيَهُودَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ (٢). اهـ.

ففي السورة ردٌّ على أصحاب وحدة الأديان الذين يزعمون أن هذه الأديان سساوية وأن هذه الأديان متفقة وأن هذه الأديان كذا وكذا.

فالله عَزَّجَلَّ قد ذمَّ اليهود وذمَّ النصارى وأخبر أن طريقتهم غير مرضي وغير سوي. فمن هنا تعرف أن الله تعالى قسم الناس في هذه السورة إلى ثلاثة أقسام:

﴿ الأول: المنعم عليهم.

﴿ الثاني: المغضوب عليهم.

﴿ الثالث: الضالون.

ومن فائدة معرفة هذا التقسيم ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن المعاني التي تضمنتها هذه السورة، قال: فَضَّلَ فِي بَيَانِ تَضَمُّنِهَا لِلرَّدِّ عَلَى الرَّافِضَةِ، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] إِلَى آخِرِهَا.

وَوَجْهَ تَضَمُّنِهِ إِبْطَالَ قَوْلِهِمْ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَسَمَ النَّاسَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: مُنْعَمٌ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوهُ، وَمَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ: وَهُمْ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَرَفَضُوهُ، وَضَالُّونَ: وَهُمْ الَّذِينَ جَهِلُوا فَأَخْطَئُوهُ.

فَكُلٌّ مَنْ كَانَ أَعْرَفَ لِلْحَقِّ، وَأَتْبَعَ لَهُ كَانَ أَوْلَىٰ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الرَّوَافِضِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جَهِلُوا الْحَقَّ وَعَرَفَهُ الرَّوَافِضُ، أَوْ رَفَضُوهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ الرَّوَافِضُ.

ثُمَّ إِنَّا رَأَيْنَا أَثَارَ الْفَرِيقَيْنِ تَدُلُّ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ مِنْهُمَا، فَرَأَيْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَحَوُّوا

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٧٧/١).

(٢) قاله ابن القيم في «إغاثة اللفهان» (٢٤/١).

بِلَادِ الْكُفْرِ، وَقَلَبُوهَا بِلَادَ إِسْلَامٍ، وَفَتَحُوا الْقُلُوبَ بِالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ وَاهْدَى، فَاتَّارَهُمْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَرَأَيْنَا الرَّافِضَةَ بِالْعَكْسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَإِنَّهُ قَطُّ مَا قَامَ لِلْمُسْلِمِينَ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَّا كَانُوا أَعْوَانَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَكَمْ جَرُّوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنْ بَلِيَّةٍ؟ وَهَلْ عَائَتْ سُيُوفُ الْمُشْرِكِينَ عِبَادِ الْأَصْنَامِ مِنْ عَسْكَرٍ هَوْلَاكُو وَدَوِيهِ مِنَ التَّتَارِ إِلَّا مِنْ تَحْتِ رُءُوسِهِمْ؟ وَهَلْ عَطَلَتْ الْمَسَاجِدُ، وَحَرَّقَتِ الْمُصَاحِفُ، وَقَتَلَتِ سَرَوَاتُ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَاؤُهُمْ وَعِبَادُهُمْ وَخَلِيفَتُهُمْ، إِلَّا بِسَبَبِهِمْ وَمِنْ جَرَائِهِمْ؟ وَمُظَاهَرَتِهِمْ لِلْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَأَثَارُهُمْ فِي الدِّينِ مَعْلُومَةٌ.

فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؟ وَأَيُّهُمْ أَحَقُّ بِالْغَضَبِ وَالضَّلَالِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟ وَهَذَا فَسَّرَ السَّلَفُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَأَهْلَهُ: بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهُوَ كَمَا فَسَّرُوهُ، فَإِنَّهُ صِرَاطُهُمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ عَيْنُ صِرَاطِ نَبِيِّهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَغَضِبَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَحَكَمَ لِأَعْدَائِهِمْ بِالضَّلَالِ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ زَفِيحُ الرِّيَاحِيِّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَهُمَا مِنْ أَجْلِ التَّابِعِينَ: «الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَاهُ»، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾﴾ [الفاحة: ٦]: «هُمُ أَلَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»، وَهَذَا حَقٌّ، فَإِنَّ آلَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ، وَمَوْلَاهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَتَنَاوُؤُهُمْ عَلَيْهِمَا، وَمُحَارَبَتُهُ مِنْ حَارِبًا، وَمُسَالَمَتُهُ مَنْ سَالَمَا مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْأُمَّةِ خَاصًّا وَعَامًّا، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُتَعَمِّعَ عَلَيْهِمْ هُمْ أَتْبَاعُهُ، وَالْمُغْضُوبَ عَلَيْهِمْ هُمْ الْخَارِجُونَ عَنْ أَتْبَاعِهِ، وَأَتْبَعُ الْأُمَّةِ لَهُ وَأَطْوَعَهُمْ أَصْحَابُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ، وَأَتْبَعُ الصَّحَابَةَ لَهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَشَدُّ الْأُمَّةِ مُخَالَفَةً لَهُ هُمُ الرَّافِضَةُ، فَخِلَافُهُمْ لَهُ مَعْلُومٌ عِنْدَ جَمِيعِ فِرْقِ الْأُمَّةِ، وَهَذَا يُبْغِضُونَ السُّنَّةَ وَأَهْلَهَا، وَيَعَادُونَهَا وَيَعَادُونَ أَهْلَهَا، فَهُمْ أَعْدَاءُ سُنَّتِهِ ﷺ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَأَتْبَاعُهُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَكْمَلُ مِيرَاثًا؟ بَلْ هُمْ وَرَثَتُهُ حَقًّا.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ طَرِيقُ أَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَطَرِيقُ أَهْلِ الْعُصْبِ وَالضَّلَالِ طَرِيقُ الرَّافِضَةِ.

وَهَذِهِ الطَّرِيقُ بَعِينُهَا يُرَدُّ عَلَى الْخَوَارِجِ، فَإِنَّ مُعَادَاتِهِمُ الصَّحَابَةَ مَعْرُوفَةٌ (١). اهـ.

وتضمنت هذه السورة كما تقدم الكلام على التوحيد، والإشارة إلى اليوم الآخر، والإشارة

إلى القدر، بقوله: ﴿وَبِإِنَّكَ نَسْتَعِثُ﴾، وفيها ترغيبٌ، لقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وهكذا لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وفيها ترهيبٌ، في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وأيضًا مما يدل عليه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فإذ لم يهتد الإنسان فهذا ترهيب له وأنه لا خير فيه.

وفيها أحكام أخر ذكرها أهل العلم بتوسع لاسيما ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» وقد ذكرنا في كتابنا «فتح الكريم في تفسير السبع المثاني والقرآن العظيم» شيئاً كثيراً بحمد الله من ذلك.

وأختم بما قاله ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تعالى في «تفسيره»، حيث قال:

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ، عَلَى حَمْدِ اللَّهِ وَتَمَجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُسْتَلْزِمَةِ لِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا، وَعَلَى ذِكْرِ الْمُعَادِ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، وَعَلَى إِرْشَادِهِ عبيده إِلَى سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقَوْتِهِمْ، وَإِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَتَوْحِيدِهِ بِالْأَلُوْهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مُمَاطِلٌ، وَإِلَى سُؤَالِهِمْ إِيَّاهُ الْهُدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ، وَتَثْبِيْتَهُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُفْضِيَ بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى جَوَازِ الصِّرَاطِ الْحُسْنِيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ فِي جَوَارِ النَّبِيِّينَ، وَالصَّادِقِينَ، وَالشَّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ.

وَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ الْبَاطِلِ؛ لِئَلَّا يُخْشَرُوا مَعَ سَالِكِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ الْمُعْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالصَّالُونَ. وَمَا أَحْسَنَ مَا جَاءَ إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وَحَدَفُ الْفَاعِلِ فِي الْعُضْبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وَإِنْ كَانَ هُوَ الْفَاعِلَ لِذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ تَلَوْنَا قَوْلًا غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [المجادلة: ١٤]، وَكَذَلِكَ إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَصَلَّهُمْ بِقَدْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧) [الكهف: ١٧]. وَقَالَ: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَنْدَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦) [الأعراف: ١٨٦]. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْهُدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، لَا كَمَا تَقُولُهُ الْفِرْقَةُ الْقَدْرِيَّةُ وَمَنْ حَدَا حَدْوَهُمْ، مِنْ أَنَّ الْعِبَادَ هُمْ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ وَيَفْعَلُونَهُ، وَيَخْتَجُّونَ عَلَى بَدْعَتِهِمْ بِمُتَشَابِهِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَتْرُكُونَ مَا يَكُونُ فِيهِ صَرِيحًا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الضَّلَالِ

وَالْغَيِّ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ». يَعْنِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٧]، فَلَيْسَ - بِحَمْدِ اللَّهِ - لِمُتَّبِعِ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ لِيَفْصَلَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ مُفَرِّقًا بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَلَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ^(١).

والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم



(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/١٤٣).

مكية

سُورَةُ الْبَلَاغِ سُورَةُ الْبَلَاغِ

آياتها ٤٠

سُورَةُ الْبَلَاغِ، **سُورَةُ مَكِّيَّةٌ**، والغالب على السور المكية أنها تقرر المبدأ والمعاد، لما تقدم من كفر الناس بذلك، ومن كفر بالمعاد لم ينفع معه وعظ ولا إرشاد، وفيها من آيات الله الظاهرة ومن حججه القاهرة ما تبين هذا الأمر، وتجليها وتقوم بها الحججة الرسالية على الناس، وفي هذه السور بيان قدرة الله **عَزَّجَلَّ** على ذلك وسهولة الأمر بالنسبة إليه، وما فيها من تقرير الناس بما ينظرونه من الآيات الكونية على صدق الآيات الشرعية، وقد تضمنت هذه السورة ستة محاور:

١- الأول: سؤال الكفار وتشككهم في يوم القيامة

٢- الثاني: ذكر آيات الله الدالة على قدرته وقوته، وغير ذلك من خصائص ربوبيته.

٣- الثالث: إثبات يوم الفصل، وهو يوم القيامة ويوم المعاد

٤- الرابع: بيان حال المشركين والكافرين في ذلك اليوم.

٥- الخامس: بيان حال المؤمنين وسعة فضل الله عليهم في ذلك اليوم.

٦- السادس: بيان شدة ذلك اليوم وما يقع فيه، من مجيء الملائكة، وما يلحق الناس على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تُوَكَّلَا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

يقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون: ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾، أي: أن تساءلهم عن النبا العظيم، قيل القرآن، وقيل: يوم القيامة وهو الصواب، فإنهم يتساءلون عن الساعة؛ لأنهم كانوا يكذبون بها، وقد وردت عدة أسئلة في ذلك، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿٤٢﴾ [النازعات: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فهو من أعظم الأنباء التي تحصل على الناس إذ تتغير بها الأحوال، فتزول الحياة الدنيا ويشعر الناس في الحياة الآخرة، نعيم أو عذاب أبدي.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ بسبب شكهم وتكذيبهم للقرآن والسنة، ولو آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ونبيّاً، وآمنوا بكل ما أخبر الله عزّ وجلّ به لزال عنهم هذا الاختلاف؛ إذ أن منشأ الاختلاف هو ترك الدليل كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾، أي: حقاً سيعلمون هذا اليوم وما فيه ﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾ تأكيداً لمعرفة ذلك اليوم، ولكن متى؟ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وكما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا هَذَا هُوَ الَّذِي كُنَّا نَقُولُ قَدْ جَاءَنَا رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ (٦) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٧) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٨) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ (٩) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (١٠) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (١١) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (١٢) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ (١٣) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَّاجًا﴾ (١٤) ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ (١٥) ﴿وَجَعَلْنَا الْفَأَقَاةَ﴾ (١٦)

ثم قال الله عزّ وجلّ مبيّناً قدرته العظيمة وأنه القوي الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا يُغلب: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ألم نجعل لكم يا معاشر الكفار الأرض مبسوطة ممهدة، تنون فيها مساكنكم وتسلكونها لقضاء حوائجكم. وهذه نعمة عظيمة، فكم من جبال شاهقة لا يستطيع الإنسان أن يطمأ عليها أو يتسلقها، ولو كان هذا هو الحال لشق على الناس، ولكن جعل الله الأرض ممهدة تارة أودية، وتارة وهاد، وتارة تلال، وغير ذلك، ممهدة للمشبي، والزراعة، والسكنى.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ جعل فيها جبلاً راسيات تثبتها؛ حتى لا تميد بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ وَانْحَرْنَا وَسِبْلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥) [النحل: ١٥].

ونصب الجبال من آيات الله عزّ وجلّ الباهرات، ودلائله العظيمة منها بيض وغرابيب سود، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (٢٧) [فاطر: ٢٧]، فتنوعت حجارتها وألوانها.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (٧) [الواقعة: ٧] جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ذكراً وأنثى، جعل بينهم مودة ورحمة وجعل بينهم التناكح والتناسل؛ لقضاء الشهوة وحصول الإربة.

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أي: راحة وسكون، وهذا من دلائل قدرة الله، فإن الإنسان إذا كان في حركة دائمة دائبة لحقه الفتور، وربما ضعفت قواه، وهزل جسمه، ولكن جعل الله له النوم؛ للدعة والراحة والسكون: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِنَّهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ لَبِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٢) ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٣) [القصص: ٧٢-٧٣].

وإذا عُدم النوم من الإنسان دل ذلك على مرض، وعلة حاصلة به، ويذكرون أن النوم الطبيعي ست ساعات، وللطفل أغلب اليوم، وكلما تقادم في العمر يقل نومه، وللنوم فوائد منها:

١- ذهاب الهم والحزن، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ التُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١]، فكم من إنسان إذا حصلت به مصيبة وحصل على شيء من النوم يقوم وقد انكسرت مصيبته وهدأ قلبه.

٢- راحة البدن، إلى غير ذلك من المصالح، حتى أن الله جعله من الآيات الباهرات، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴾ (٢٣) [الروم: ٢٣].

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ يغطي البسيطة، ويلبس الناس فيتغطون به عن ضوء النهار، ويتغطون به في كثير من حوائجهم، فيمشي فيه المتخفي ويرتاح فيه المتعب.

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ سبب لتحصيل الرزق، ويخرج الناس من بيوتهم لطلب أرزاقهم وقضاء حوائجهم، والليل والنهار آيتان عظيمتان يدلان على قدرة الملك القهار سبحانه وتعالى. وقد جعل الله عزَّجَلَّ لكل من الليل والنهار سلطاناً، فالشمس سلطان النهار الظاهر، والقمر سلطان الليل الباهر.

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ أي: رفع الله عزَّجَلَّ فوق الأرض سبع سماوات شديدة البناء بغير عمد، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ (٢٧) ﴿ رَفَعَ سَعَتَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨].

وقد جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعَرْشِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ (١).

(١) أخرجه ابن بطه في «الإبانة» (١٢٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥٢).

ومع ذلك تكون هذه السماوات العظييات في قبضة الله يوم القيامة، قال تعالى:

﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ويلحقها التشقق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١)

[الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (٢٥) ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٦].

وزين سبحانه هذه السماوات بمصاييح، وجعلها علامات يُهتدى بها، ورجومًا للشياطين، وفي هذا رد على أصحاب الهيئة الجديدة الذي يقولون بتوسع العالم، وهو ما يسمى نظرية الانفجار العظيم، ويستدلون بقول الله عزَّجَل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) [الذاريات: ٤٧]، وهذا استدلال فاسد، فإن تفسير السلف يقضي على أن الله عزَّجَل خلق السماوات والأرض واسعة، فإن أصحاب الهيئة لا يؤمنون بسماوات طباقًا، ولا بعرشٍ ولا كرسي.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ أي: خلق الشمس، ﴿سِرَاجًا﴾ أي: ذات نور، ﴿وَهَاجًا﴾ أي: ذات حرارة، فلو كانت ذات نور بغير حرارة لربما لحق الناس الفساد في معاشهم وغير ذلك، ولو كانت ذات وهاج ولم تكن ذات نور للحق الناس كثير من البلاء، ولكن من حكمة الله جعلها سراجًا وهاجًا، فيستفيدون من نورها ويستفيدون من حرارتها، تنضج به الفواكه، وتشف به المبللات، ويحصل به خير عظيم.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجَّاجًا﴾ أنزل الله من المعصرات، قيل: السماوات، وقيل: الرياح، وقيل: السحاب وهو الصحيح، وسميت معصرات؛ لأنها تعصر بإذن الله عزَّجَل فينزل منها المطر، ﴿نَّجَّاجًا﴾ أي: أنه ينزل متدافعًا قويًا، ومنه حديث النبي ﷺ: أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْعَجُّ، وَالشَّجُّ» (١). العَجُّ: هو رفع الصوت بالتلبية والتكبير، وَالشَّجُّ: هو إنهار الدم.

ومنه ذلك الحديث: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي امْرَأَةٌ أُسْتَحَاضُ حَيْضَةً كَثِيرَةً شَدِيدَةً، فَمَا تَرَى فِيهَا قَدْ مَنَعَنِي الصَّلَاةَ وَالصَّوْمَ؟ فَقَالَ: «أَنْعَتْ لِكَ الْكُرْسُفِ؛ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ الدَّمَ». قَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَاتَّخِذِي ثَوْبًا»، فَقَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّمَا أُتِجُّ نَجًّا» (٢).

فيقول الله عزَّجَل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً﴾ عظيمًا نافعًا: ﴿نَّجَّاجًا﴾ كثيرًا، ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ السبب في إنزال هذا الماء ﴿حَبًّا﴾ من الذرة والشعير والقمح والرز وغير ذلك، ﴿وَنَبَاتًا﴾ من الفواكه والأعلاف، ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ جمع جنة، وهو ما يجن أي: يغطي بشجره، ﴿أَلْفَافًا﴾

(١) أخرجه الترمذي (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٩٢٤)، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٧)، عَنْ حَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يلتف بعضها على بعض لكثرة أشجارها، فهي حدائق غلبًا يغطي بعضها بعضًا؛ لكثرة أشجارها وطولها وعظيم خلقتها.

وهذه آيات باهرات تدل على عظمة الخالق **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فإنه ينزل المطر على الأرض القاحلة فإذا تنبت النبات وتظهر الزهور وتنمو الأشجار بعد أن كانت ميتًا، وكل هذا يدل به الله **عَزَّوَجَلَّ** على قدرته في إحياء الناس بعد إماتتهم.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الْأُصُورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاعِنِينَ مَثَابًا ﴿٢٢﴾ لِلَّذِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقِفًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَأَقَا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

ثم قال الله **عَزَّوَجَلَّ** خبرًا عن يوم القيامة: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ أي: يوم القيامة الذي يفصل الله **عَزَّوَجَلَّ** فيه بين العباد ﴿كَانَ مِيقَتًا﴾ له وقت معلوم لا يتأخر عنه ولا يتقدم، كما قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَنَّى أَمُرُّ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

ثم بين عظم هذا اليوم بقوله: ﴿يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الْأُصُورِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الْأُصُورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

٥٥ والصور: قرن عظيم ينفخ فيه إسرافيل نفختين:

الأولى: لقبض أرواح المخلوقات، **والثانية:** لإحيائها، كما قال: ﴿وَنُفِخَ فِي الْأُصُورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، يصعقون كصعقة نفس واحدة، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾.

وفي حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، عَنِ النَّبِيِّ **ﷺ** قَالَ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: آيَةٌ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: آيَةٌ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: «آيَةٌ وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا عَجَبَ ذَنْبِهِ، فِيهِ يُرْكَبُ الْخَلْقُ» (١)، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ**: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدِ التَّقَمَ الْقُرْنُ، وَاسْتَمَعَ الْأُذُنُ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ» (٢)، وفي حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في «الصحيحين» قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ

(١) متفق عليه، البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٣١).

رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمَرَ الْمُسْلِمَ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَصْعَقُوا مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أُدْرِي أَكَانَ فِيْمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَسْنَى اللَّهَ» (١).

﴿فَنَاتُونَ أَوْجَابًا﴾ أي: جماعات، تتدافع الرجال والنساء. حفاة عراة غرلاً بهماً، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا». قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُمِئَّهُمْ ذَلِكَ» (٢)، وَيُكْرَمُ الْمُؤْمِنُ وَيُسَاقُ الْكَافِرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا﴾ (٨٥) ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ (٨٦) [مريم: ٨٥-٨٦].

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ وفي قراءة ﴿وَفُتِحَتْ﴾، هذه السماء التي تُشَاهَدُ الْآنَ مَغْلَقَةٌ مُحْكَمَةٌ تَتَفْتَحُ وَتُصِيرُ أَبْوَابًا وَطَرَفًا، تَنْزِلُ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ حِينَ يُحْشَرُ النَّاسُ إِلَى الْمَحْشَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِيمِ وَزُلِ الْمَلَكُوتُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وَمَبْدَأُ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ فهذه الجبال المرتفعة تسير يوم القيامة وتذهب حتى لا يبقى لها أثر، فيوم القيامة يجعلها الله كالعهن المنفوش كما قال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (٥) [القارعة: ٥]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (١٠٥) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (١٠٦) ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (١٠٧) [طه: ١٠٥-١٠٧]، ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُغَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فجعل الله عَزَّجَلَّ للجبال حالات:

﴿الاولى﴾: أنها مثبتة للأرض.

﴿الثانية﴾: أنها تتحرك وتمر كمر السحاب.

﴿الثالثة﴾: أنها تتطاير وتكون كالعهن المنفوش.

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

الرابعة: أنهم يرونها كالسراب، كما في هذه الآية: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ يرون جبلاً وليست بجبال وإنما أثرها، ثم: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]، وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ»^(١).

ثم قال عز وجل مخبراً عن النار وما فيها من أهوال أعادنا الله عز وجل منها: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار، ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي: مرصدة للكافرين لا سبيل إلى الخلاص منها، وقيل مرصدة في طريق جميع الناس، لا يصل المؤمنون إلى الجنة إلا بالمرور عليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ مَنكُم مَّنْ لَا أُورِدُهُهَا كَأَن كَانَ عَلَيَّ رِيكًا حَمِيمًا مَّقْضِيًّا﴾ [٧١] ثم تَجِبِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُوا الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [٧٢] [مريم: ٧١-٧٢].

وهذا وعيد عظيم يهدد الله به المشركين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ يا معاشر المشركين ﴿كَانَتْ﴾ أي: ما زالت ﴿مِرْصَادًا﴾ مرصدة لكم تترصدكم ولا سبيل إلى الخلاص منها ﴿إِذَا الْقُوفِيهَا سَمِعُواهَا شَهيقاً وهي تَفُورُ﴾ [الملك: ٧].

﴿لِلظَّالِمِينَ مَبَابًا﴾ للمجاوزين لأمر الله، طغوا وتجاوزوا الأمر فلم يفعلوه، والنهي فارتكبه، وأعظم ما وقعوا فيه الشرك بالله عز وجل ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ يلبثون فيها مدداً طويلة قيل بأن الحقب ثمانون سنة والسنة اثني عشر شهراً والشهر ثلاثون يوماً، وكل يوم بألف سنة مما تعدون والله أعلم.

واستدل بهذه الآية بعضهم على فناء النار، حيث زعم أنهم يلبثون أحقاباً ثم يخرجون منها، وهذا غير صحيح؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

ويقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وإنما المعنى هنا أنهم يمكثون مكثاً طويلاً ممتداً، والعرب قد تأتي بالكلمة التي ظاهرها الانقطاع وتريد بها الاستمرار.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا يطعمون أو يجدون في هذه النار برداً، برودة ماء وجسم ولا برودة جو، وقيل: البرد هنا النوم على تفسير لبعض أهل العلم لا يذوقون فيها نوماً، ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا يجدون ماء سائغاً يذهب عطشهم، أو عصيراً نافعاً يروي ضمئهم ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ وهو الذي انتهى حره، كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَن يَسْتَعِينُوا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

يَسْتَوِي أَلْوَجُوهٌ يَنْسُكُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿ [الكهف: ٢٩].

وقوله: ﴿وَعَسَافًا﴾ أي: الذي قد انتهى برده، وهو الزمهرير، وكأنه من المقابلة، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ حارًا، ﴿وَعَسَافًا﴾ باردًا، وقيل: العساق هو ما يسيل من جلود أهل النار، فيشربونه عذابًا أليمًا، والله المستعان.

﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ سبب الذي هم فيه أن الله يجازيهم بأعمالهم الفاسدة كما تدين تدان:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ﴿٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَلَا يَظَلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: السبب الذي أوردتهم إلى هذا العذاب وجزوا به ﴿كَانُوا لَا يَزُجُّونَ حِسَابًا﴾

كانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور، ولا يؤمنون بأن الله يبعث العباد ويجازيهم على أعمالهم، مع أن الله عَزَّجَلَّ قد بين ذلك على ألسنة رسله وفي محكم كتبه التي أنزلها.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الشرعية التي أوحاها إلى أنبيائهم ورسلمهم، وربما الكونية حيث زعموا أن معه

معينًا أو ظهيرًا أو نصيرًا، ﴿كَذَابًا﴾ أي: تكذيبًا، يعني أنهم تداوا في التكذيب والمغالطة والإيهام.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ وهذا عام في كل عمل دق أم جل، صغر أم كبير، قولي أم فعلي، ﴿أَخْصَيْنَتْهُ

كِتَابًا﴾ حفظناه مكتوبًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ

وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠]، فالله عَزَّجَلَّ يعلم ما هم عليه، زد على ذلك أن الملائكة

تكتب أعمال العباد، وليس هذا فحسب، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [النور: ٢٤].

﴿فيحفظ عمل الإنسان بأمر﴾

الأول: أن الله عَزَّجَلَّ مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية.

الثاني: الملائكة الذين سطروا تلك الأعمال والأقوال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ

﴿١٨﴾ [ق: ١٨].

الثالث: شهادة الجوارح عليهم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى

رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظُّهَيْرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا:

«لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي

نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَبَلَقَى الْعَبْدُ،

فَيَقُولُ: أَيُّ قُلِّ أَلَمَ أُكْرِمَكَ، وَأَسْوَدَكَ، وَأَزْوَجَكَ، وَأَسْحَرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ

وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَطَنَّتْ أَنْتَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍ أَلَمَ أُكْرِمَكَ، وَأَسْوَدَكَ، وَأَزَوَّجَكَ، وَأَسَحَّرَ لَكَ الْحَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيُّ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَطَنَّتْ أَنْتَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُنْبِي بِخَيْرِ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذَا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبَعْتُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعَذِّرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ» (١).

الرابع: إخبار الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (٤) ﴿يَا نَبَأَ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ (٥) [الزلزلة: ٤-٥].

﴿فَذُوقُوا﴾ هذا العذاب الشديد، ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ لا رحمة لهم، مع أن الله هو الرحمن الرحيم، لكن قد قال عن نفسه: ﴿وَأَكْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا نَايِكُ قَالَ عِدَايَ أَصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) [الأعراف: ١٥٦]، بل يكتبهم بقوله: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ (١٠٨) [المؤمنون: ١٠٨]، فعوذ بالله من حال أهل النار.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ (٣١) ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ (٣٢) ﴿وَكَوَاعِبَ أَرْبَابًا﴾ (٣٣) ﴿وَكَاسِدًا هَاقًا﴾ (٣٤) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ (٣٥) ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ (٣٦) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٣٧) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨) ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾ (٣٩) ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ (٤٠) ﴿

ولما ذكر الله عَزَّجَلَّ حال الكافرين في الآخرة ثنًا بحال المؤمنين جمعًا بين النذارة والبشارة، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، والقرآن مليء من هذا ترغيب، وترهيب، فتارة يذكر الله أحوال الكافرين ثم يثنيها بحال المؤمنين، وتارة يذكر الله حال المؤمنين ثم يثنيها بحال الكافرين، وبضدها تبيين الأشياء.

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، والمتقون: هم الذين جعلوا بينهم وبين عقاب الله عَزَّجَلَّ وقاية بفعل المأمور وترك المحذور، وهم المذكورون في أول سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٢-٥]، والمذكورون في سورة آل عمران: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١١٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبْتَظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجِيئَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ مِن رَّبِّهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٥].

﴿مَفَازًا﴾ لهم فوزًا، وقيل: متنزهاً، ولا يمنع أن لهم فوزًا عند الله ولهم متنزه، يكونون فيه تذهب فيه أحزانهم، وتهدأ فيه أرواحهم، وتسكن فيه أجسامهم، زد على ذلك أن الله ينعمهم بأنواع النعيم المقيم الذي لا ينقطع كما قال تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٣].

﴿حَدَائِقَ﴾ هذا المتنزه الذي لا ينقطع كما قال تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٣]. فيه أنواع الأشجار، والشمار، والزهور، والروائح الطيبة، وغير ذلك، ﴿وَأَعْنَابًا﴾ وإن كانت الأعناب من ضمن الحدائق إلا أن الله ذكرها؛ لعظيم جمالها وطعمها ورغبة الناس فيها.

﴿وَكُوَاعِبَ أَرْبَابًا﴾ وفي هذه الحدائق، والمتنزهات التي أعدها الله للمؤمنين في جنات النعيم ﴿كُوَاعِبَ﴾ نساءً نواهد لم تتكسر أئدائهن؛ لطول السنين أو لكثرة الأولاد. ﴿أَرْبَابًا﴾ متقاربات في السن، قيل ثلاث وثلاثين سنة، وهذا من أجل ما يتبع به الرجل فليست بالصغيرة التي لا تشتهي، ولا بالكبيرة التي قد زهدت في ذلك، وقد قال الله عَزَّجَلَّ في وصف هذه الكواعب ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَمَلْنَهُنَّ أَجْحَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَرْبَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]، فهن أبكاراً على أي حال يأتيها زوجها، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قيل: يا رسول الله، أنفصي إلى نساتنا في الجنة، قال: ﴿إي والذي نفسي بيده، إن الرجل ليفضي في اليوم الواحد إلى مائة عذراء﴾^(١).

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ يشربون فيها خمراً لا لغو فيه ولا تأثيم، ويشربون من نعيمها وعيونها وأنهارها في أكواس تتدفق مليئة، لا يعترها نقص ولا تغير حال، وإنما أحسن الملابس

(١) أخرجه البزار (١٠٠٧٢)، والحديث في «الصحیح المسند» (١٣٨٤) لشيوخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

والمطعم والمشرب، وحال الجنة كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَغَيَّرْ طَعْمَهُ، وَأَنهَرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقد وصف الله عَزَّجَلَّ هذا الشراب في سورة الدهر في عدة مواطن: قال تعالى: ﴿عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨]، أي: أنهم يشربون شرابًا مريئًا لا ينعصون به، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، وقوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧]، إلى غير ذلك.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة، ﴿لَعَوًا﴾ كلامًا سيئًا ولا أذى، ﴿وَلَا كَذِبًا﴾ أي: لا يكذب بعضهم بعضًا، وهذا كقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعَوًا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ [الغاشية: ١١].

﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: أن هذا النعيم جزاءٌ للأعمال الصالحة التي بادر بها المؤمنون في الدنيا من ربك الحافظ لك ﴿عَطَاءً﴾ يعطيك، ﴿حِسَابًا﴾ واسعًا لا نقص فيه، ولا قلة، ولا خشية انقطاع. ثم بين الله عَزَّجَلَّ كمال عظيمته فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ أي: أن هذا الرب الذي أعطاك هذا العطاء الواسع العظيم الدال على كرمه هو رب السموات والأرض وما بينهما، وهو الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد جاءت قراءة: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾^(١) فجعلت الجملة مستأنفة، وكلا المعنيين صواب، فالجنة جزاء من رب السموات والأرض الرحمن، وكذلك رب السموات والأرض وما بينهما هو الرحمن.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يستطيع أحدٌ مخاطبته إلا بإذنه. ﴿يَوْمَ﴾ أي: هذا في يوم القيامة، ﴿يَقُومُ الرُّوحُ﴾ وهو جبريل، وقيل: أرواح بني آدم، وقيل: غير ذلك، والقول بأنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أصح، ﴿وَالْمَلَكَةُ﴾ تكون ﴿صَفًّا﴾ محيطًا بالناس، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: لا يتكلم الناس، ﴿إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ من أذن له أن يتكلم،

فَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيِّكَلُمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجَمَانٌ»^(١).

﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ حقًا؛ لأن: ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ ﴾ الذي سيكون ولا محالة، وفي قول النبي ﷺ: «وَالسَّاعَةُ حَقٌّ»^(٢)، فلا يجوز أن يتكلم فيه بالباطل، إنما يتكلم بالباطل في هذه الدنيا التي جمعت حقًا وباطلاً، وضلالاً وهدى، وإيماناً وكفرًا، أما ذلك اليوم فيوم حقٍ وصدقٍ، فلا يستطيع أن يتكلم أحد إلا بالحق، وإن تكلم بغير ذلك فضح على رؤوس الأشهاد.

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴾ أي: في الدنيا ففي يوم القيامة لا يستطيع أحد أن يقدم أو يؤخر، ﴿ فَمَنْ شَاءَ ﴾ يا معاشر المكلفين من الجن والإنس ﴿ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴾ سبيلًا وأوبًا ورجوعًا، كما قال: ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٣) [النور: ٣١].

ثم قال عَزَّجَلَّ: ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ ﴾: خوفناكم بهذه الآيات البينات والدلائل الواضحات التي أنزلها على رسوله ﷺ، ﴿ عَذَابًا ﴾: موجعًا، ﴿ قَرِيبًا ﴾: لا يتأخر ولا يتخلف، وما بين العبد وبينه إلا أن يموت، فقد كَانَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرِ يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ»^(٤).

ويكون هذا العذاب القريب: ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ﴾ الرجل والمرأة، والجني والإنسي، ينظر ما قدمت يدها ما قدم من الأعمال، وذكر اليدين؛ لأن كثيرًا من الأعمال يتعاطاها باليدين، والواقع أنه يجد كل الأعمال ما قدم فرجه ويدها، ورجلاه، ولسانه، وسمعه، وبصره، نسأل الله السلامة.

﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ﴾ كل إنسان ينظر أعماله كما في الحديث: «فَيَنْظُرُ أَيَّمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ»^(٤).

وكما قال تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾^(٤٩) [الكهف: ٤٩].

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦)، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٧٦).

(٤) متفق عليه، البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ ﴾ بلسان الحال أو المقال، وقيل: الكافر إبليس فيكون من العام الذي أريد به الخصوص وذلك أنه سخر من أصل خلقة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أي: أنه كان ترابًا ولم يخلق أصلًا، وقيل: المعنى لما يرى من أن الله عَزَّجَلَّ أحال الحيوانات إلى تراب بعد القضاء بينهم، يقول: يا ليتني كنت مثل هذه الحيوانات أصير ترابًا وأسلم من العذاب الأليم، والخزي العظيم، نسأل الله السلامة.

والمحمد لله رب العالمين.



سُورَةُ النَّازِعَاتِ ، **سُورَةُ مَكِّيَّةٌ** ، وهي مقررة لما يذكر في السور المكية من البعث والمعاد، ونحو ذلك من القصص الذي قصه الله على محمد ﷺ؛ تثنيتاً لأمره وتنويها لفضله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا ۝١ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالْمَدِينَتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمَدِيرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتَّبِعُنَّ الرَّادِفَةَ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَيُّنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَيْ ذَا كُنَّا عِظْمًا تَخْرَجُ ۝١١ فَالْوَالِئِكَ إِذَا كَرِهَتْ حَاسِرَةٌ ۝١٢ فَيَمَّا هِيَ زَجْرًا وَاحِدَةً ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤ ﴾

يقول الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا** ﴾ هم الملائكة ينزعون أرواح الكفار، فيأخذونها من تحت كل شعرة وعصبة، فإذا ما قاربت من الخروج ردوها إلى مكانها، ثم ينزعونها بشدة وهكذا؛ لزيادة عذابه، **فَعَنِ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ**: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى جِنَارَةٍ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْقَبْرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، **فَقَالَ**: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقَطَعَ مِنَ الدُّنْيَا، تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسُ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصْرِ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ، صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفَتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدِكَ فُلَانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَاهَدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى» قَالَ: «فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفَقَ نَعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيِّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَسْتَهْرَهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيِّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿ **يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** ﴾

[إبراهيم: ٢٧]، **فَيَقُولُ**: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ ﷺ، **فَيَقُولُ لَهُ**: صَدَقْتَ، ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، **فَيَقُولُ**: أَبَشْرُ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللَّهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، **فَيَقُولُ**: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ **فَيَقُولُ** أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتُ وَاللَّهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، بَطِيئًا عَنْ

مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَأْتِي مِنَ النَّارِ، فَيَقَالُ: هَذَا كَانَ مِنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللَّهَ، أْبَدَلَكَ اللَّهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجَلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، فَيَقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالِ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غَلَاظٌ شِدَادٌ، فَانْتَزَعُوا رُوحَهُ، كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ الْكَثِيرُ الشَّعْبِ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِ، وَتُنزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُعْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ، إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ لَا تَعْرِجَ رُوحَهُ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ، قَالُوا: رَبِّ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ عَبْدُكَ، قَالَ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهَدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَإِنَّهُ لَيْسَ مَسْمُوعٌ خَفَقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ آتٌ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيِّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتِ، وَيَأْتِيهِ آتٌ فَيَسِجُّ الْوَجْهَ، فَيَسِجُّ الشَّيْبُ، مُتَسِنُّ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبَشِرْ يَهَوَانَ مِنَ اللَّهِ، وَعَذَابٌ مُقِيمٌ، فَيَقُولُ: وَأَنْتِ، فَبَشِّرْكَ اللَّهُ بِالشَّرِّ مَنْ أَنْتِ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْحَيِيثُ، كُنْتُ بَطِيلًا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا، ثُمَّ يَقْبِضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكُمْ فِي يَدِهِ مَرْزَبَةٌ، لَوْ ضَرَبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تَرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَبْصِرَ تَرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ (١).

وقيل: بأنه نزع القوس، وقيل: النجوم، وقيل غير ذلك، والمعنى الأول عليه الجماهير.

﴿وَالنَّشِطَاتِ نَشْطًا﴾ قيل: الملائكة تنشط الأرواح، وقيل: المراد بها أرواح المؤمنين، فإنها

تنشطها كما يفك وينشط العقال، وقد تقدم في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيان ذلك.

﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا﴾ الملائكة، يسبحون في الآفاق بتصرف الأمور التي أوكلمها الله عَزَّ وَجَلَّ إليهم.

﴿فَالسَّيِّدَاتِ سَبْقًا﴾ أي: الملائكة يسابقون بنزول الوحي، وقيل: سابقوا إلى الطاعات، ﴿لَا

يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ [التحریم: ٦]، وفي كل ما تقدم خلاف، ولكن الصحيح ما سبق.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ هم الملائكة إجمالاً، جعل الله إليهم تدبير شؤون العالم العلوي والسفلي،

ولا يخرج عن تدبيرهم الذي أوكلمه الله إليهم شيء؛ وقد سخر الله لهم من القوى ما يقومون

بها أوكل إليهم، وهذا القسم متعلق بالإخبار بيوم القيامة، وقيل: هو إخبار عن الملائكة الذين

أوجب الله علينا الإيمان بهم، فالإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، قال تعالى: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ

بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ، وَكُتِبَ لَهُمْ وَرُسُلِهِ، لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» ﴿البقرة: ٢٨٥﴾، في آيات كثيرات.

وهم خلق عظيم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنْ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»^(١)، وعن أبي هريرة، رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكَ رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ وَعِظْمُهُ مُشْبِهَةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ رَبَّنَا» قال: «فِيرُدُّ عَلَيْهِ مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِكَادِبًا»^(٢)، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل، له ستائة جناح، قد سد بعظم خلقه ما بين السماء والأرض^(٣).

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ أي: النفخة الأولى حيث ترجف الأرض فيموت من فيها، ويهلك من عليها ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ النفخة الثانية في الصور التي يقع بها البعث والنشور ﴿وَيُفْحَخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾^(٥١) [يس: ٥١]، يخرجون مسرعين إلى عرصات القيامة. وقد جاء حديث من طريق عبد الله بن محمد بن عجيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا ذَهَبَ ثَلَاثًا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ»^(٤)، وابن عجيل ضعيف.

ثم قال الله عز وجل: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: قلوب الكفار يوم القيامة حين يخرجون من الأجداث سراعا، قلوبهم واجفة، ذابلة، خائفة؛ بسبب ما عاقرته من المعاصي في الدنيا والله المستعان. ﴿أَبْصَرُهَا خَشَعَةٌ﴾ مرفوعة إلى السماء، وأفئدتها هواء؛ لشدة الخوف والحال، كما قال الله عز وجل: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكِيرٍ﴾^(٦) خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ [القمر: ٦-٨]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

﴿يَقُولُونَ أَيْنَا لِمَ دُرِدُونُ فِي الْخَافِرَةِ﴾ بعد أن أخبر الله عز وجل بما سيقع يوم القيامة يقول: هؤلاء

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، والحديث في «الصحیح المسند» (٢٤٨) لشيخنا مقل الوادعي رحمه الله.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٧٨١٣) واللفظ له، والطبراني في «الأوسط» (٧٣٢٤).

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٢٣٢، ٣٢٣٤، ٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٤، ١٧٧).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٢٤١)، والترمذي (٢٤٥٧).

الذين تدعوهم يا محمد إلى الإسلام والإيمان بالبعث والنشور وينكرون البعث ويقولون متعجبين ومستكرين لذلك: ﴿أَنَا لَمَرْدُودُونَ﴾ أي: سنخرج من قبورنا؟! فالحافرة القبر.

وقد أخبر الله عزَّجَلَّ مرارًا أن الإعادة ليست بأصعب من البداية: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثْكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا تَخْرَةً﴾ وقرئ: «ناخرة»، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومجاهد، وقتادة: أي بالية. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهو العظم إذا تلي ودخلت الريح فيه (١). اهـ.

فيقولون أبعث بعد أن نكون عظامًا جوفاء تسفها الريح، ليس فيها مخ، ولا رطوبة، ويسهل كسرها، كما جاء عن خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جِئْتُ الْعَاصِمَ بْنَ وَائِلِ السَّهْمِيِّ أَتَقَاضَاهُ حَقًّا لِي عِنْدَهُ، فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَخْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَقُلْتُ: «لَا حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ»، قَالَ: وَإِنِّي لَمِيتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَه، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَتَ مَا لَمْ يُولَدْ﴾ [مريم: ٧٧].

وجاء عن المقدام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَخَذَ أُمِّيَّةُ بْنُ خَلْفٍ عِظْمًا فَفَتَّهُ، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبٍ لَهُ: أُنْزِيَ اللَّهُ نُجُحِي هَذِهِ وَهِيَ رَمِيمٌ. وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فَلَزِمَ الْحَقُّ بِمَنْكِبِهِ» (٣).

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: إذا كان هذا الأمر سيقع فرجعنا إليه سيكون حال الخسارة. وفعلاً أنهم سيرجعون وأنهم خاسرون ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الزمر: ١٣] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤-١٠٣]، خسارة ولا أكبر منها، خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

ثم قال الله عزَّجَلَّ مبيِّنًا سهولة ما تعاطموه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: فإنما هو أمر من الله لا يُثْنَى تأكيداً لسهولته، فينفخ في الصور نفخة واحدة وإذا جميع المخلوقات قد قامت من موتها، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥).

(٣) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٣/٣٨٠).

فَيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ [الزمر: ٦٨] من القبور.

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي: ظاهر الأرض، أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعْنَى وَجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ [إبراهيم: ٤٨-٥٠]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ ﴿١٧﴾ [طه: ١٧]، فإنها هي نفخة واحدة فإذا بالناس قد برزوا على ظاهر الأرض، وقيل: الساهرة جبل، وقيل: بيت المقدس، وقيل: الشام، لكن المعنى الأول الذي عليه جماهير العلماء.

﴿هَلْ أُنثِقَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ قُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزُكَّ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكَبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾

ثم قال الله عَزَّجَلَّ لمحمد ﷺ واعدًا له بالنصر والتمكين بما يقصه من قصص من سبقه من الأنبياء والمرسلين حيثمكنوا بعد ضعف: ﴿هَلْ أُنثِقَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أي: قد أتاك حديث موسى في سور كثيرات وآيات بينات أخبر الله عَزَّجَلَّ عن هذا النبي الكريم أنه أرسله إلى فرعون ذلك المجرم الأثيم، حفظ الله موسى ونصره، وهذا دليل على حفظ الله وكلاءته لأنبيائه ورسله.

قال الله عَزَّجَلَّ مخبرًا عن إرساله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى فرعون: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٤٣﴾ فَقَوْلًا لَهُ، قَوْلًا لِّنَا لَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ [طه: ٤٣-٤٦]، فحفظه الله من فرعون، في صغره وكبره، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَكَلِّبِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكِ لَا نَقْتُلُوهَ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ [القصص: ٧-٩].

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: بصوت عالي مسموع، قال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾

﴿٥٢﴾ [مريم: ٥٢]، وهذه الآية وغيرها اثبت الله عَزَّجَلَّ صفة الكلام، وأنه يتكلم متى شاء، وكيف

شاء بما شاء بحرف وصوت، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) [الشورى: ١١] وقد أخبر الله في آيات كثيرات عن هذا النداء وما قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) [طه: ١٤].

﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ بالواد المعظم، واسمه طوى، ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ بالرسالة ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ أي: تجبراً، وتمرداً، وعناداً تهادى في كبره وطغيانه، وظلمه، وجبروته سواء، في باب الألوهية حيث ادعى أنه الرب الإله، وفي باب الظلم حيث ذبح بني إسرائيل واستعبدهم وقهرهم. وقد أخبر الله عَزَّجَلَّ في سورة طه: أنه لما قال له: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ قال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (٢٦) ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٢٧) ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ (٢٨) ﴿وَجْعَلْ لِي زَورًا مِنْ أَهْلِ هَرُونَ أَخِي﴾ (٣٠) ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ (٣١) ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ (٣٢) ﴿كَيْ نَسْجَحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٣) ﴿وَنَذُوكَ كَثِيرًا﴾ (٣٤) ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (٣٥) [طه: ٢٥-٣٥]، فسأل الله عَزَّجَلَّ أسباب النصر والعزة، ومن أعظمها شرح الصدر؛ لأن الصدر إذا ضاق لم يبين بما فيه، وعجز الإنسان عن تحمل المشاق، ولم يكن من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا امتثال أمر الله ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ ذهب، إلا أنه طلب أن يكون له وزير: أخ يسانده، ويعينه، ويستأنس به، فالإنسان وحده ليس بشيء.

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً * * * وإذا افترقن تكسرت أحاداً

والنبوة والرسالة شأنها عظيم، حيث يبعثهم الله إلى أقوام يخالفون في جميع الدين، فيسفّهون أحلامهم وأهتهم، ويدعونهم إلى إفراد الله بالعبادة، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتْنِي رَسُولًا مِنْ رَبِّي فَضِقتُ بِهَا دَرْعًا وَرَوَيْتُ أَنَّ النَّاسَ سَيَكْذِبُونَنِي، فَقِيلَ لِي: لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيَفْعَلَنَّ بِكَ» (١).

﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَنَ﴾ اذهب الى فرعون فقل له: يا فرعون! هل لك في طريق الزكاة، تزكي نفسك بطاعة الله عَزَّجَلَّ، وتوحيده، فتزكوا في الدنيا والآخرة فإن النفس إذا لم تزك بالتوحيد والطاعة ليست بشيء، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا﴾ (٩) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ (١٠) [الشمس: ٩-١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) [الأعلى: ١٤].

وبعث الله الرسل لهذا المقصد، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

والزكاة هي فضل من الله على عباده، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

﴿وَأَهْدِيكَ﴾ أي: أدلك وأرشدك، كما قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَأِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿إِلَى رَيْكِ فَخَشَى﴾ إلى الطريق الموصل إلى الله عزَّجَلَّ، فيقع منك الخشية والخوف من الله عزَّجَلَّ، فتبادر بالأعمال الصالحات والخشية تقع بالعلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، إذ أن الخشية خوف يشوبه تعظيم.

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ أي: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أرى فرعون آية تدل على صدقه، وقد دعاه بالمقال: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُ﴾ [١٨] ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَيْكِ فَخَشَى﴾ [١٩] ثم دعاه بالفعال: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [٢٠] وهي الحية المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [٣٢] وَرَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢-٣٣].

والسبب في أن الله عزَّجَلَّ جعل هذه الآيات لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أن قوم فرعون كانوا يتعاطون السحر، فجاءتهم آية من جنس فعلهم، إلا أنها آية حقيقية وليست بتخيل ولا تمويه، وعند ذلك استكبر فرعون ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ رد هذه الآية، وعصى ربه، وتمرد على شرعه ﴿ثُمَّ أَذْرَبَسَعَى﴾ كبراً وعناداً، حيث أرسل في المدائن حاشرين طالباً أن يأتوه بكل سحار عليم، ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [١١٣] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِمِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ [١١٤] [الأعراف: ١١٣-١١٤]، ووعدهم أن يرفع شأنهم رشوة لهم من أجل أن يقفوا أمام الحق وأهله، فأبى الله عزَّجَلَّ، وانظروا إلى هذا الوصف الدقيق ﴿ثُمَّ أَذْرَبَسَعَى﴾ لما أعرض عن آيات الله عزَّجَلَّ الشرعية وصفه الله كالمدير الذي يجري، وهذا يحصل من كثير من الناس اللثام، إذا وقع عليه شيء وإذا به يولي ظهره ذلة وحقارة.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ أي: جمع قومه، ونادى السحرة، كما قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [٥٦] قَالَ أَجْتِنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ يَمْوَسَى﴾ [٥٧] فَلَنَّا تِنَّاكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا﴾ [٥٨] قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [٥٩] فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ، ثُمَّ أَتَى﴾ [٦٠] [طه: ٥٦-٦٠].

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ وفي الآية الأخرى ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ

مَصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا بُصِرُونَ ﴿٥١﴾ [الزخرف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَآءُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨]، وهذا القول منه كذب وزور؛ فإنه يعلم أنه مخلوق ضعيف يحتاج إلى الأكل والشرب والزوجة والحمام، ثم يزعم أنه الرب الأعلى الذي على عرشه استوى! تعالى الله عن هذا القول القبيح، فإن الرب الأعلى هو الله ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ [الأعلى: ١]، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ [الليل: ٢٠]، وقد ذكر العلماء: أن فرعون إنما قال هذه المقولة من باب المكابرة، كما قال الله عزَّجَلَّ: ﴿ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأُسَيِّفَنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]، وهو يقول: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨]، وهو يعلم كذب نفسه، كما قال الله عزَّجَلَّ مخبرًا عن موسى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَذِهِآءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مُشَبَّرًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

فعند أن تكبر وعتى وتجر وأبى الانقياد لشرع الله عزَّجَلَّ آتاه الله من حيث لم يحتسب ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أخذه الله نكالاً في الدنيا حيث أغرقه باليم والبحر وهو ينادي: ﴿ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [٩٠] ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فآلِئِمْ نُنَجِّيكَ بِيدِنَا لِيَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

وأخذه الله في الآخرة بالعذاب والنكال، قال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، فنكل به، ومزقه كل ممزق، وأزال مملكته، وأذهب دولته، وجعله عبرة للمعتبرين في الدنيا والآخرة، ولا يُذكر إلا بالذم، ﴿ إِنِّي فِي ذَلِكَ ﴾ إن في قصة موسى مع فرعون ﴿ لَعِبْرَةٌ لِمَن يَخْشَى ﴾ لعبرة لمن يخشى ربه، فينظر إلى تمكين الله للمؤمنين ومكر الله بالكافرين، وأن الله عزَّجَلَّ لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرضين، وأنه يميل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]، فأصبح ملك فرعون يباباً بعد تكبره وتجره، ومكن لموسى بعد ضعفه ومسكته ﴿ إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُكُمُ فَمنَ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمُ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءِ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ
بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

وبعد أن ذكر الله عزَّجَلَّ قصة موسى وما فيها من العبر والتطمين لمحمد ﷺ، وما فيها من تهديد الكافرين الذين يتمرّدون على شرع الله قال عزَّجَلَّ: ﴿أَنْتُمْ﴾ يا معاشر من تكذبون بالبعث والنشور ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءِ﴾، وهذا مثل قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]، وقد قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

المراد بقوله: ﴿أَمَ السَّمَاءِ﴾ بل السماء، العالية، المبنية بغير عمل، المزينة في هيئتها وشكلها أشد منكم خلقًا ومع ذلك ﴿بَنَاهَا﴾ أي: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾ أعلاها ورفعها وجملها وحصَّنها، كما قال الله عزَّجَلَّ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٢-٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١١﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الحجر: ١٦-١٧]، فهي مبنية على أتم وأكمل الهيئات، وسُمكها عظيم، فسُمك كل سماء خمسمائة عام كما جاء في الآثار.

﴿وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعل لييلها أسود مظلمًا حالكا، فإذا أظلم ليل السماء غطى الليل الأرض ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ جلاه وكان نيرًا واضحًا، فهذا أعظم من خلقكم يا معاشر الكفار الذين تكذبون بالبعث والنشور.

قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يقول: والأرض التي أنتم عليها خلقها الله قبل السماوات، كما قال الله عزَّجَلَّ: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِلسَّالِبِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا نِطَابِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ٩-١١]، وتسخيرها للمعاش كان بعد ذلك، فهو يقول: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد رفع السماء ﴿دَحَاهَا﴾، وهو قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَهَا﴾ إذ أنها قبل ذلك كانت عبارة عن

حجارة صماء وأتربة لا شيء فيها، فأخرج الله منها الماء العذب وسخر ما سخر، حتى أنبتت العشب وخرج منها الزرع، وما يدر به الضرع، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَدَخِيهَا أَنْ أُخْرِجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمُرْعَى، وَشَقَّقَ فِيهَا الْأَمْهَارَ، وَجَعَلَ فِيهَا الْجِبَالَ وَالرَّمَالَ وَالسُّبُلَ وَالْأَكَامَ (١).

﴿ وَمَرَعْنَهَا ﴾ ما ترعى فيه الغنم: البقر والدواب، وهو شامل لكل أنواع الثمار والحبوب.

ومن دحوها أنه ثبتها بالجبال فقال: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴾ وضعها عليها؛ حتى لا تتحرك أو تميد، حيث ثبتها بالجبال الرواسي العظيمة، وكل هذا التسخير ودحو الأرض: ﴿ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ ﴾، ودوابكم من الخيل، والبغال، والإبل، والغنم، وهذا دليل على أن الأصل فيما سخره الله عز وجل للإنسان الإباحة، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَاءَ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجن: ١٣]، ألا يرشدكم هذا إلى وجوب طاعة الله عز وجل، والاستسلام والانقياد له!؟

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْهَنَهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَحْشَسُهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ بُرُونِهَا لِرَبِّغَتُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴿

وبعد أن قرر الله جل جلاله، عظيم قدرته يقرر المعاد، فيقول: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ أي: إذا وقعت القيامة التي تطم الناس طمًا، وتغطيهم، ولا أحد يخرج منها، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَطْمُ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ هَائِلٍ مُفْطِعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ ﴾ [القمر: ٤٦]، وهي من أسماء القيامة، الواقعة، والحاقة، والساعة، والقارعة.

فإذا جاءت الطامة وما فيها: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ أي: حِينَتِيذ يَتَذَكَّرُ ابْنُ آدَمَ جَمِيعَ عَمَلِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، كَمَا قَالَ: ﴿ يَوْمَ يَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى ﴾ [الفجر: ٢٣] (٣).

﴿ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴾ أي: قُرْبَتْ وَأَظْهَرَتْ وَجُلِّيتْ، يراها الناس يحطم بعضها بعضًا، وسميت بالجحيم؛ لأنه شدة تأجج النار.

(١) تفسير ابن كثير (٣١٦/٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣١٧/٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٣١٧/٨).

وفي الموقف عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ - يوم القيامة - لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُومَهَا»^(١)، وهذا كقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَزَلِفَتْ أَلْفَتَهُ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١٠) وَرَبَّرَتِ الْجَحِيمِ لِلْعَاوِينَ^(١١) ﴿الشعراء: ٩٠-٩١﴾، وحين يقول اليهود والنصارى: «عَطَشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيَسَارُ أَلَا تَرُدُّونَ فَيَحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّمَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَسَاقُطُونَ فِي النَّارِ»^(٢).

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ فأما من كان في هذه الدنيا طاغياً مبارزاً لله بالمعصية، وأعظمها الشرك ﴿وَأَثَرَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ قدم الدنيا على الآخرة، وتقديم الدنيا على الآخرة سبب للحرمان من أجر الآخرة كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾^(٣٠) ﴿الشورى: ٢٠﴾، فعن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ قَفْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كَتَبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»^(٣).

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ وهذا هو الكافر، ﴿وَأَثَرَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ قربها وعظمها وأحبها على الآخرة ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ هي المستقر، وبئس القرار، فلا يستطيع أن يجاوزها إلى غيرها. يأكل من ضريعها، ويشرب من زقومها، وثيابه من نار كما أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾^(١١) يُصْهَرُ بِهِءَ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حديدٍ﴾^(١٢) ﴿الحج: ١٩-٢١﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾^(١٧) ﴿البقرة: ١٦٧﴾.

ولما ذكر حال الكافرين بين حال المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ من المؤمنين الموحدين الطائعين لرب العالمين حيث خاف الله وراقبه، وعمل بمقتضى ذلك، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^(٤٦) ﴿الرحمن: ٤٦﴾، فالله عَزَّ وَجَلَّ يُعْبَدُ بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْمَحَبَّةِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَعِبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾^(٤٠) ﴿الأنبياء: ٩٠﴾. وعند الموت ينبغي للمسلم أن يقدم الرجاء، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ:

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣)، عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والحديث في «الصحیح المسند» (١٧٤/١) لشيخنا مقل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ» (١)، وَعَنْهُ رَوَّاهُ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «يُيَعَّثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ» (٢)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَوَّاهُ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي» (٣)، وَأَمَا فِي الدُّنْيَا فَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَنْبَغِي أَنْ يَقْدِمَ الخَوْفُ؛ حَتَّى يَكُونَ زَاجِرًا لَهُ عَنِ المَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢٨) ﴿فَاطِرٌ: ٢٨﴾، وَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾ جَاهِدِ النَّفْسَ وَزَجِرْهَا وَمَنْعِهَا ﴿عَنِ الْهَوَى﴾ الْمَخَالَفِ لِلْحَقِّ؛ لِأَنَّ الْهَوَى فِي الغَالِبِ يَأْتِي عَلَى خِلَافِ الْحَقِّ ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٤٣) [الفرقان: ٤٣]، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وَسُمِّيَ هَوَى؛ لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ فِي النَّارِ.

فَيَقُولُ مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، وَيَادِرُ بِالطَّاعَةِ وَالإِنَابَةِ، وَجَاهِدَ نَفْسَهُ وَزَجِرْهَا عَنِ اتِّبَاعِ هَوَاهُ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ الْجَنَّةُ هِيَ دَارُهُ، وَقَرَّارُهُ وَفِيهَا «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» (٤)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَوَّاهُ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبَلُّ ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» (٥)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَوَّاهُ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعْمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» (٦).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْتَلُونَكَ﴾ أَيُّ: الكُفَّارِ، ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ الْقِيَامَةِ، ﴿أَيَّانَ مَرَسْنَهَا﴾ مَتَى هِيَ؟، لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَأَلَهُ جَبْرِيلُ: «مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمُسْتَوْثَى عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» (٧)، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آئِنَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ (١٥) [طه: ١٥]، وَقَالَ: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرَسْنَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٨).

(٣) متفق عليه، البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥).

(٤) متفق عليه، البخاري (٣٢٤٤)، مسلم (٢٨٢٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَوَّاهُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٣٦).

(٦) أخرجه مسلم (٢٨٣٧).

(٧) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَوَّاهُ اللَّهُ عَنْهُ.

لَوْفِيهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

ولو كان للناس مصلحة شرعية أو دنيوية في الإخبار بالساعة لربما أخبرهم الله بها، لكن لا مصلحة لهم بالإخبار عنها، وإنما دلهم الله على ما فيه لهم من المصالح، وأما وقت الساعة فيغيبه حتى عن أنبيائه ورسله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ أي: لست في شيء من علمها وقد أخرج ابن جرير في «تفسيره» (١)، وخرجه شيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ في أسباب النزول: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يَسْأَلُ عَنِ السَّاعَةِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مِنْهُمَا﴾ [النازعات: ٤٤]. وله شاهد عند ابن جرير أيضًا، من طريق طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَزَالُ يَذْكُرُ شَأْنَ السَّاعَةِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا﴾ ﴿٤٢﴾ [النازعات: ٤٢] إِلَى: ﴿مَنْ يَحْشَسَهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

والمعنى العام ما الذي ينفَعُك إن أخبرناك بموعدها؟ لا تتفَع بشيء، ولا عليك من ذكرها، وإنما خَوْفُهُمْ بخروجها، ويجب عليهم الإيمان بوقوعها.

﴿إِلَى رَبِّكَ مِنْهُمَا﴾ أي: منتهى علمها إلى الله، فهو الذي يعلم متى تكون، ولا يعجزه شيء ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَحْشَسَهَا﴾ أي: إنما عليك يا محمد، أن تنذر وتحوف من يخشى قيامها فيستجيب.

والساعة يومها شديد، كما قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَزَنَّهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج: ٤-١٠]، ويغضب الله في ذلك اليوم غضبًا، لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله.

﴿كَانَتْهُمْ﴾ أي: الكفار المكذبين بها: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي: الساعة، ويعاينون وقوعها ﴿لَوْ يَلْبِثُوا﴾ لم يَمكثوا في هذه الحياة الدنيا وفي تلك القبور الخوالي وما فيها من الوحشة ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ من الظهر إلى المغرب ﴿أَوْ صُحْحًا﴾ من الصباح إلى الظهر.

وهذا هو الواقع فعند قرب الموت يشعر الإنسان بأن السنين الكثيرة التي مكثها في الأرض زالت في لحظة عين، وعند البعث: ﴿ قَلَّ كَمَ لَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ (١١٣) قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَأَلِ الْعَادِينَ ﴿ ١١٣ ﴾ قَلَّ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ ١١٤ ﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿ ١١٥ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَيْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٥٦) [الروم: ٥٦].

والحمد لله رب العالمين.



مكية

الجزء الثامن عشر

آياتها ٤٢

سُورَةُ عَبَسَ، سُورَةُ مَكِّيَّةٌ، وكان سبب نزول أوائلها: أَنَّ ابْنَ أُمَّ مَكْتُومٍ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَنَاجِي عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبِيًّا وَأُمِّيَّةَ ابْنَيْ خَلْفِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَرْجُو إِسْلَامَهُمْ، فَقَامَ ابْنُ أُمَّ مَكْتُومٍ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي، بِمَا عَلَّمَكَ اللَّهُ، وَجَعَلَ يُنَادِيهِ وَيَكْرُرُ النَّدَاءَ وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ مُشْتَغَلٌ مُقْبِلٌ عَلَى غَيْرِهِ، حَتَّى ظَهَرَتِ الْكَرَاهِيَّةُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَطْعِهِ كَلَامَهُ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «يَقُولُ هُوَ لَأَيُّ الصَّنَائِدِ إِنَّمَا أَتْبَاعُهُ الْعُمَيَّانُ، وَالسَّفَلَةُ، وَالْعَبِيدُ»، فَعَبَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ يَكْلُمُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَاتِ (١).

وكان سبب إعراض النبي ﷺ وإقباله على أشرف قريش؛ طمعاً في إيمانهم وإسلامهم، وحرصاً على دعوتهم، فعاتبه الله عَزَّوَجَلَّ بهذا العتاب اللطيف، الدال على علو منزلته وعظيم فضله، حتى أنه جعل الخطاب للغائب، فلم يقل: «عبست وتوليت».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنُّ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَا مِنْ أَسْتَعْنَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُنَ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّمَا تَدْكُرُ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي ضَحُفٍ مَكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ عَبَسَ ﴾ أي: بوجهه، والعبوس: قطوب الوجه وتغيره، ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أي: ببدنه فحول عنه وجهه والتفت إلى من يرجوا إسلامهم.

﴿ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ أي: حين جاءه ابن أم مكتوم، وهو عمرو وقيل عبد الله بن أم مكتوم. وفيه أن الكرامة عند الله بالإيمان، وليست بالمال ولا بالحسب والنسب، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (٢).

(١) «أسباب النزول» للنيسابوري (٤٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

وقد قال الله عزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [١٣] ﴿ [الحجرات: ١٣]، فانظر إلى هذه المكرمة العظيمة لهذا الأعمى المحترق عند قريش ذكر الله شأنه في القرآن، معاتباً في شأنه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مع أن النبي ﷺ إنما همم الدعوة إلى الله، وكان يجالس الضعفاء وغيرهم، ولكنه طمع في إسلام كفار قريش بإعراضه عنه.

﴿ وفيه جواز ذكر الشخص بوصفه الذي هو عليه كالأعمى والأعرج للتعريف. والعمى ينقسم إلى قسمين: عمى بصر، وعمى بصيرة، وأهونها: عمى البصر، فإن الله عزَّجَلَّ وصف الكفار بأنهم ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمَى ﴾ [البقرة: ١٨] مع أنهم يبصرون بأعينهم.

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنُّ ﴾ أي: أن هذا الأعمى قد تقع منه الزكاة، فيطهر نفسه من الذنوب والمعاصي، ويطهرها بطاعة الله عزَّجَلَّ، بخلاف من أقبلت عليه، ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أو أن هذا الأعمى قد يتذكر ويستفيد من المواعظ التي يسمعها منك بخلاف ذلك الكافر المعرض.

﴿ أَمَا مِنِّي أَسْتَعْفَى ﴾ أي: الكافر الذي ليس له رغبة في الإسلام. ﴿ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ فأنت تتعرض له وتجلس معه ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزِنَّ ﴾ كما قال الله جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فهو أعلم بالمهتدين، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وقال: ﴿ فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ؕ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ [فاطر: ٨]، والمعنى ليست عليك زكاته وليست تحت قدرتك إلا أن يشاء الله.

﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ وهو الأعمى جاء مسرعاً إلى النبي ﷺ ليأخذ منه علماً وفقهاً، وهذا هو حال أهل الإيمان في كل زمان أنهم يحرصون على أخذ الخير والعمل به، والسعي هنا قد يكون على ظاهره: سعي البدن أو المراد به السعي المعنوي، وهو السعي لتحصيل الخير والصلاح، ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ حال كونه يخشى الله عزَّجَلَّ ويراقبه ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ لَاهِي ﴾ تُعرض وتقبل على الكافر مشتغلاً به.

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أي: حقا أن القرآن تذكرة، وما تقدم من عتاب الله عزَّجَلَّ لمحمد ﷺ ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ موعظة يستفيد منها من أراد الله له الفائدة، فإذا كان الله قد عاتب محمداً ﷺ النبي الكريم، فكيف بنا، مع أن نبينا ﷺ إنما طمع في إسلام بعض عظماء قريش؛ ولعل في هدايتهم هداية لغيرهم، واستقامة لغيرهم، ومع ذلك عاتبه الله ووعظه بهذه الموعظة ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴾

أَيُّ: اتعظ واستفاد، كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩]، ففي باب القدر الشرعي لا يرضى الله الكفر ولم يأذن به، ولا يجبه، بل يعاقب عليه بالطرد من رحمته، وأما القدر الكوني فله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، يهدي من يشاء فضلاً، ويضل من يشاء عدلاً ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ❖ ❖ ❖ كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ
إِنْ عُدُّبُوا فِعْدَلِهِ، أَوْ نَعُمُوا ❖ ❖ ❖ فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم ذكر مكان هذه الذكرى وأنها لا تنال بالأيدي فيعبث بها العابثون.

﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴾ أي: أن هذه التذكرة في صحف مكرمة، صحف مكتوبة مُعظمة ﴿ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴾ مرفوعة أن تنالها الأيدي عبثاً، ومطهرة مما يخالف الشرع ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ أي: بأيدي الملائكة السفرة، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال النبي ﷺ: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ» (١).

وقد ذكر العلماء في معنى السَّفَرَةِ آمرين:

الأول: أنهم الكتبة، من السَّفَرِ وهي الكتب، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥] فيكون المعنى أنهم الملائكة الذين يكتبون أعمال العباد وما يتعلق بذلك، الثاني: أنهم سفراء بين الله عَزَّجَلَّ وبين المكلفين، فإن جبريل الروح الأمين هو الذي نزل بالوحي الشريف على محمد ﷺ.

﴿ كِرَامٍ ﴾ في صفاتهم، والكرم: كثرة الخير، فهم على جمال في صفاتهم وذواتهم ﴿ بَرَّةٍ ﴾ قلوبهم وأعمالهم لكثرة أعمال البر، فإنهم كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦].

والبرُّ: كلمة عامة تشمل كل طاعة لله عَزَّجَلَّ من التوحيد فما دونه، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ

وَالنَّبِيِّنَ وَعَائِي الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ ۗ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۗ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۗ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۗ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ وَأَقْبَرَهُ ۗ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۗ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَآ يَفِضْ مَا أَمْرُهُ ۗ ﴿٢٣﴾ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۗ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۗ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۗ ﴿٢٦﴾ فَأَبْنَيْنَا فِيهَا جَبًّا ۗ ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًّا ۗ ﴿٢٨﴾ وَزَيَّنَّا وَنَخَلًا ۗ ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۗ ﴿٣٠﴾ وَفِكَهَةً وَأَبًّا ۗ ﴿٣١﴾ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِنَعْمَعَكُمْ ۗ ﴿٣٢﴾ ﴾

ثم أخبر الله عزَّجَلَّ عن حال الإنسان وكفرانه للنعم مع وضوح الحجج والبراهين الدالة على استحقاق الله جَلَّ جَلَّالُهُ للشكر والحمد عليها: ﴿ قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ ۗ ﴾ قيل هلك، وقيل: لعن ﴿الْإِنْسَانِ﴾ أي: الكافر، وقيل جنس الإنسان وأكثر الناس على الكفر إلا من رحم الله.

﴿ مَا أَكْفَرَهُ ۗ ﴾ قيل: ما سبب كفره، وقيل: أنها على التعجب أي: ما أشد كفره وإعراضه عن دين الله عزَّجَلَّ مع وجود الدلائل الواضحات والحجج الدامغات في بيان وجوب التوحيد على العباد! قال الله عزَّجَلَّ: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠] فيكون في هذا النظر عبرة وآية يدخلون بها للإسلام ﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢١]، إلى غير ذلك من الآيات، ومع ذلك ما أشد كفر الإنسان وجمود الإنسان بحق الملك الديان، والله المستعان.

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۗ ﴾ يقول: هو مخلوق حتى يتعاضم ويتكبر، مع أنه من نطفة حقيرة تخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، ثم تجتمع في رحم المرأة مشيج، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢]، وقال تعالى: ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۗ ﴾ بدء نشأته من هذه النطفة في رحم المرأة، فقدرة تقديرًا، حيث يكون نطفة ثم علقه، ثم مضغته، ثم عظام، ثم يكسو العظام لحمًا، فإذا تم الأجل خرج من بطن أمه وبدأ رضيعًا، ثم يجلس، ثم يمشي، ثم يقوم، وهكذا حتى يرد إلى أرذل العمر، كما قال الله جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينٍ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَنُوفُكُ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴿٥﴾ [الحج: ٥].

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴾ أي: يسره لسبيل الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، وقال: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]، وقال: ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، والحال كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَانْفَكَىٰ ﴾ [صَدَقَ بِالْحُسْنَىٰ] ﴿٦﴾ فَسَيَسِّرُهُ لِّلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ [الليل: ٥-٧].

وفي حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَيْعِ الْغَزَقِدِ فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ» قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تَنْتَكِلُ عَلَىٰ كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُسِّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُسِّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَانْفَكَىٰ ﴾ [صَدَقَ بِالْحُسْنَىٰ] ﴿٦﴾ [الليل: ٥-٦] الآية (١).

﴿ ثُمَّ أَمَانَةٌ ﴾ بعد حياته الطويلة ﴿ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أودعه في الأرض، ووري بالتراب، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ [أَحْيَاءُ وَأَمْوَاتًا] ﴿٣٦﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦] أي: تكفتمكم أحياء بتغيب فضلاتكم وما يخرج منكم ﴿ وَأَمْوَاتًا ﴾ أي: تغيبكم بعد موتكم.

والقبر يعتبر مكرمة للإنسان؛ لأن كل حيوان يموت يترك، فتظهر جيفته وربما أكلته السباع ونهشته الوحوش بخلاف الإنسان، فإنه يُوارى ويُدفن في التراب، ولذلك حينما قتل ابن آدم أخاه بعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى أخاه، قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُوَارَىٰ سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارَىٰ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١].

وكرمَّ الله المسلمين بمزيد عناية في ذلك: فيحسن كفنهم، وتعمق قبورهم، ويُلحد لهم، حتى لا يصل إليهم التراب، ويوضعون على أيانهم، ويدخلون باسم الله على ملة

ورسول الله ﷺ، ثم صان الله قبورهم بعد موتهم فحرم وطأها، فعن أبي مرثد الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا» (١)، وقد نهى النبي ﷺ عن الكتابة عليها، بل وبالغ في إكرامها سُجْدًا وَتَعَالَى حتى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عندما حَانَتْ مِنْهُ نَظْرَةٌ، فَإِذَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي الْقُبُورِ عَلَيْهِ نَعْلَانِ، فَقَالَ: «يَا صَاحِبَ السُّبُتَيْنِ، وَيْحَكَ أَلْتِ سِبْطَيْتِكَ» فَظَرَ الرَّجُلُ فَلَمَّا عَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلَعَهُمَا فَرَمَى بِهِمَا (٢)، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ أَمْشِيَ عَلَى جَمْرَةٍ، أَوْ سَيْفٍ، أَوْ أَحْصَفَ نَعْلِي بِرَجْلِي، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمْشِيَ عَلَى قَبْرِ مُسْلِمٍ، وَمَا أَبَالِي أَوْسَطَ الْقُبُورِ قَضَيْتُ حَاجَتِي، أَوْ وَسَطَ السُّوقِ» (٣)، وحرَمَ تعظيمها وتشيدها، ففي وصية النبي ﷺ لعلِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْ لَا تَدَعَّ تَمَّالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَيْتَهُ» (٤)، والقبر بعد ذلك نعيم أو عذاب: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ» (٥).

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾ ثم للتعقيب، متى شاء أنشره، بعثه وأخرجه من قبره إلى أرض المحشر والمنشر، فيُجازى على عمله، فإن كان من المسلمين المؤمنين الموحدين كان مآله إلى جنة النعيم، وإلى إكرام رب العالمين، وإن كان من الكافرين المجرمين كان مآله إلى الجحيم، نسأل الله السلامة.

وإذا أراد أن ينشره فلا يعجزه شيء سُجْدًا وَتَعَالَى: ﴿فَأَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤] صيحة واحدة في الصور فإذا هم على وجه الأرض، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبِيلُ، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يَرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١). أَي: يعيد الله عَزَّجَلَّ خلق الإنسان بعد موته من عجب الذنب.

﴿كَلَّا لَمَّا بِيضَ مَا أَمْرُهُ﴾ جماهير المتقدمين من المفسرين يقولون حقًا بأن الإنسان عاجز أن يأتي بما أمره الله عَزَّجَلَّ على أكمل الوجوه، ولكنه يتقي الله ما استطاع؛ لقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَانفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ولقوله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً تَنْهَأً﴾ [الطلاق: ٧].

(١) أخرجه مسلم (٩٧٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٣٠)، والحديث في «الصحیح المسند» (١٨١) لشيخنا مقبل الوداعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٦٧)، والحديث في «الصحیح المسند» (٩٣٢) لشيخنا مقبل الوداعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٩٦٩).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، ابن ماجه (٤٢٦٧)، عَنْ عُمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) متفق عليه، البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

وقيل المعنى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يقع البعث والنشور إلا متى أراد الله عَزَّجَلَّ، وهذا القول استظهره ابن كثير، لكن المعنى الأول أليق، ﴿كَلَّا لَمَآ يَفِضْ مَا أَمْرُهُ﴾ أي: أن الإنسان لم يأت بها أمر به إلا مع وجود بعض الضعف، والناس يتفاوتون.

ثم بين الله جَلَّجَلَّاهُ قدرته ببيان حال الإنسان في الدنيا وأرشد إلى النظر والتفكير في ذلك، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أي: ليتأمل الإنسان في دلائل الله وآياته، وضرب له مثلاً بأقرب الأشياء إليه؛ حتى يتوصل بها إلى مزيد الإيثار ودرجات الإحسان ﴿فَلْيَنْظُرِ﴾ والمراد بالنظر هنا: نظر تفكير وتعقل لا نظر تفرج، فإن كثيراً من الناس يذهبون إلى المزارع وينظرون إلى خضرتها وبهائها ويرجع إلى بيته ليس له إلا ذاك، لكن المراد نظر تأمل وتعقل وتفكير تدله على قدرة الملك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾ إلى مأكوله ومشروبه.

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أنزلنا الماء من السماء على الأرض بكثرة ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، يصبه من السحاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبا: ١٤]، وفي نزول المطر آية من آيات الله العظيمة، إذ أن الله ينشأ سحاباً ربما لا جرم له، محسوس وإن كان يرى، لكن لو مر السحاب من عندك تمد بيدك لا تجده إلا إذا وجدت رطوبته، ومع ذلك هذا السحاب يتكون فيه جبال من برد، وتنزل منه أمطار غزيرة، فيسقي الله عَزَّجَلَّ بها البلاد والعباد، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِئُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي: أمر المزارعين أمراً كونياً بالزراعة والحراث، وهو الذي علمهم بذلك، ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي: أصنافاً من الحب كالذرة والشعير والحنطة وغير ذلك ﴿وَعِنَبًا﴾ أعناب منه الأخضر، والأحمر، والأسود والحلو، والمر، والحامض ﴿وَقَضْبًا﴾ وهو القث على اختلاف أصنافه تأكله الدواب لاسيما البقر وغيرها، ويكون سبباً في در الحليب، وقد يكون المراد بالقضب نفس هذه الشجرة التي تسمى قضب ويعرفها المزارعون، وقد يريد به جملة الأشجار التي تكون مرعى للدواب والأنعام.

﴿وَنَخْلًا﴾ الشجرة المعروفة التي يستصبح ويدهن بزيتها، وتؤكل ثمرتها، وتتخذ إداماً، فهي شجرة مباركة، كما قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيْغٌ لِلْأَكْلِينَ

﴿٢٠﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ﴿وَمَخَلَا﴾ معروفٌ، ثمرهٌ لذيذٌ، وسعفه يصلح بساطًا، وساقه طويل كما قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَدٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق: ١٠-١١]، وعن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجْرَةَ لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»^(١).

﴿وَحَدَائِقُ غُلْبًا﴾ أي: مزارع فيها أشجار، قيل سميقة، وقيل عالية، وقيل ملتفة، وربما شملت جميع المعاني، فإن الأرض الزراعية تنقسم إلى قسمين: أرض تزرع فيها الأعشاب وهي سريعة الموت، وأرض تزرع فيها الحدائق الغناء، والأشجار العظيمة، فتبقى على هيئتها في الصيف والشتاء.

﴿وَفِكَهَةٌ﴾ أي: مما رزقهم الله: فاكهة من الرمان، والبرتقال، والتفاح، والسفرجل، وكم هي الفواكه العظيمة التي يمتن الله بها على عباده، ﴿وَأَبًا﴾ أعشاب ترعاها دوابهم، وأما ما روي عن أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ﴿وَفِكَهَةٌ وَأَبًا﴾ [عبس: ٣١]، فَقَالَ: «أَيُّ سَمَاءٍ تُظَلِّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقَلِّنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ»^(٢)، فهو منقطعٌ بين إبراهيمَ النَّيْمِيِّ وأبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأما ما جاء عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَرَأَ عَلَى الْمُنْبَرِ: ﴿وَفِكَهَةٌ وَأَبًا﴾ ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ الْفَاكِهَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا الْأَبُ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا هُوَ التَّكْلُفُ يَا عُمَرُ!^(٣)، فليس معناه أنه لا يعرف الأب، ولكن رأى أن البحث عن نوعه وجنسه يعتبر من التكلف، وإلا ما من عربي يفهم لغة العرب إلا ويعرف معنى الفاكهة ومعنى الأب، والذي يظهر أن اسم مدينة (إب) مأخوذ من هذا الأمر؛ لأنها بلد وإن كانت تخضر في موسم الربيع إلا أن سبب اخضرارها الأعشاب.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ بعد أن بين قدرته في هذه الأشياء: ﴿مَنْعًا لَكُمْ﴾ أكل هذا جعله الله متاعًا تتمتعون به فتأكلون وتشربون وتدخرون ﴿وَلَا نَعْمَكُمْ﴾ دوابكم من البقر والغنم والإبل، فتستمتعون وتستمتع أنعامكم ثم تستمتعون أيضًا بأنعامكم التي قد كبر حجمها، ولذ لحمها، وكثرت ألبانها.

(١) متفق عليه، البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف/ ط أشبيلية» (٣٢١٠٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف/ ط أشبيلية» (٣٢١٠٣).

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ٢٣ ﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٢٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ ٣٧ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ٣٨ ضَاكِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ٣٩ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْنَا عِبْرَةٌ ٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ٤٢ ﴾

وبعد أن بين الله **جَلَّ جَلَالُهُ** عجائب القدرة ذكر اليوم الآخر وما فيه بقوله: ﴿ **فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ** ﴾ إذا جاء يوم القيامة، وسميت بالصلاة؛ لأنها تكون بصوت مرتفع تصخ معه الأذان وتصم من شدتها، ومن وصفها أنها: ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ** ﴾ في يوم يهرب المرء من أخيه، وبدأ بالأخ؛ مع شدة حرص الأخ على أخيه وتعصبه له في الدنيا، ومع ذلك يفر منه يوم القيامة، ﴿ **وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ** ﴾ ويفر أيضًا من والديه ويفران منه، ﴿ **وَصَحْبِيهِ** ﴾ زوجته، ﴿ **وَبَنِيهِ** ﴾ أي: أحرص الناس عليه في الدنيا يهربون منه ويفر منهم؛ لأن ذلك اليوم كما قال الله **جَلَّ جَلَالُهُ**: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٢٨** ﴾ [المدر: ٣٨] أي: مرهونة بعملها، وكل إنسان يقول: نفسي نفسي ﴿ **وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ١٠** ﴾ [المعارج: ١٠].

﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ** ﴾ من الرجال والنساء ﴿ **يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ** ﴾ هذا هو سبب فرار بعضهم من بعض؛ أن كل واحد مشغول بنفسه وبعمله، وهذا حين يجد كل واحد عمله، كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَعْجُدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ٣٠** ﴾ [آل عمران: ٣٠]، والشأن: هو الشغل الذي يتبلى به الإنسان.

ثم بين الله **عَزَّجَلَّ** حال الناس في هذا اليوم: ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ** ﴾ وهي وجوه المؤمنين ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فوجوه المؤمنين مسفرة أي: جميلة هبية، كما قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ** ﴾ [القيامة: ٢٢] أي: فيها النضارة والبهاء. ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣** ﴾ [القيامة: ٢٣] بسبب نظرها إلى الله ﴿ **ضَاكِكَةٌ** ﴾ مسرورة لما حصل لها ﴿ **مُسْتَبْشِرَةٌ** ﴾ بوعد الله **عَزَّجَلَّ** الذي بشرهم به أنبيائه، وبشرهم به ملائكته، كما قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠** ﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

﴿وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه الكفار، ﴿يَوْمِيذٍ﴾ أي: في القيامة، ﴿عَلَيْهَا غَبْرَةٌ﴾ أي: سواد حيث تغيرت وجوههم البيضاء إلى السواد؛ بسبب ما كانوا عليه من الذنوب العظيمة، ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ تعلقها القترة فبدل الجمال الذي كانت عليه في الدنيا صارت سوادًا ومنظرًا سيئًا.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين تقدم وصفهم ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الجحدة لربوبية الله وألوهيته، والمتمردين على شرعه ودينه ﴿الْفَجْرَةُ﴾ الذين ارتكبوا كل فجور من الشرك فما دونه، فاستحقوا هذا العذاب الأليم والحزني العظيم بأن تكون وجوههم يوم القيامة مسودة، وتكون قد علتها القترة التي غيرت من نظارتها وحالها.

وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتْرَةٌ وَغَبْرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَأَلْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رَجُلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»^(١).

الذيخ: هو ذكر الضباع.

والحمد لله رب العالمين.



مَكِّيَّة

الْمَلَأَنِ السُّورَةُ التَّكْوِيْنُ

آيَاتهَا ٢٩

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ ، وَجَاءَ فِي «مَسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ» ، وَالتِّرْمِذِي (١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ، وَ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ ، وَ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾» .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ (٨) بَأْتَى ذَنْبٍ قِيلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّعْفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَبَلُ سُيِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِثَتْ (١٣) عَامَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) ﴿

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ويكون ذلك يوم القيامة حيث أن هذه الشمس العظيمة الواسعة، تكور فيضمم بعضها إلى بعضاً ثم تلقى في النار، كما يقال: كُوِّرَتْ العمامة، أي: جُمِعَتْ، وإلقائها في النار هو تبيكيت لعبادها من دون الله عزَّجَلَّ، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٩٨) لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوها وَكُلُّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلْقَاهُمْ الْمَلٰٓئِكَةُ هٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٣] .

﴿وَإِذَا النُّجُومُ﴾ التي جعلها الله جَلَّجَلَّاهُ زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، ﴿انْكَدَرَتْ﴾ أي: انطمس ضوءها، وسقطت عن أماكنها قيل في جهنم؛ وما يحصل هو بسبب التغير الذي يحصل في العالم العلوي؛ لأن القيامة يلحقها تغيرات، تغير في العالم العلوي من انفطار السماء وتساقط النجوم وتكوير الشمس، وتغير في العالم السفلي قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوٰتُ وَيُرْوٰى لِلّٰهِ الْوٰحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] .

(١) «مسند أحمد» برقم (٤٨٠٦)، والتِّرْمِذِي برقم (٣٣٣٣) .

ومن أوائل التغيرات في العالم العلوي: طلوع الشمس من مغربها، ومن التغيرات في العالم السفلي: ما دل عليه حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا نَتَحَدَّثُ فِي ظِلِّ غُرْفَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرْنَا السَّاعَةَ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَنْ تَكُونَ - أَوْ لَنْ تَقُومَ - السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهَا عَشْرُ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالدَّجَالُ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَالدُّخَانُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ، خَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ تَخْرُجُ نَارٌ مِنَ الْيَمَنِ، مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ، تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمُحْشِرِ»^(١).

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ ﴾ الثوابت الرواسي ﴿ سِيرَتْ ﴾ أي: زالت عن أماكنها، كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبا: ٢٠] ويبدأ التغير بأنها تمر مر السحاب، وتصبح الأرض كقرصة النقيب ليس فيها علم لأحد، ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨]، ثم تكون كالصوف الذي ينفش في الهواء، تحمله الريح، ثم تكون آثارها كالسراب ثم تتبدد الرؤيا إليها، والحال كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٧].

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ عشار الإبل تركت وسييت وقيل الأرض المعشرة، والذي يظهر أنها النوق؛ لأن العرب كانوا إذا صارت الإبل عشرا أحبوها وانتظروا ولدها، وهي التي تحمل في الشهر العاشر، فتعطل عن الركوب عليها، وتعطل عن الاهتمام بها، بمعنى أن الإنسان شغل عنها ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٧].

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أي: جمعت الوحوش من أسود، ونمور، وجميع حيوان الغاب تحشر يوم القيامة عند بارئها، كما قال النبي ﷺ: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءِ»^(٢)، وكما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَّتَالِكُمْ مَأْفَظًا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ؕ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فيجمعون في ذلك الصعيد العظيم، إلا أن الوحوش والحيوان إذا قضى بينها صارت ترابًا بخلاف الإنسان والجان.

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أوقدت بالنار وجمعها؛ لكثرتها، فمنها البحر المحيط، وهو ما يعبر عنه الآن بالمحيط الهادي، والأطلنطي، والهندي، والمتجمد الشمالي، والمتجمد الجنوبي، وهناك

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أبحر غير محيطه مثل؛ بحر العرب، وبحر قزوين الذي هو البحر الأحمر، والبحر المتوسط وغير ذلك من البحار الكثيرة، هذه البحار تسجر بالنار فتصير لهباً عظيماً ويذهب ماؤها.

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أي: جمع كل صنف مع صنفه ونظيره، قال تعالى: ﴿ وَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ

جَانِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِنَانِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨]، فاليهود مع اليهود، والنصارى

مع النصارى، وعباد الشمس مع عباد الشمس، كما قال رسول ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ

يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيَتِ الطَّوَاغِيَتِ، وَتَبَقَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا

مُتَنَافِئُهَا»^(١)، وكما قال الله عزَّجَلَّ: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ

﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٧-١٠].

فيجتمع الناس ويتمايزون، وإذا جالس بعضهم بعضاً، وزُوِّجَ بين بعضهم بعضاً، يتمنى

المجرم لو يكون بعيداً عن هذا الشرير، كما في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ،

فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْحَيِّثُ»^(٢).

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾^(٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿ والمؤودة: هي النفس التي تقتل قبل بلوغها،

وللكفار طريقان في قتلها: إما أن يقتلوا حين الولادة، وإما أن يقتلها في سن التمييز، حتى

ذكر أن بعضهم ذهب يحفر لابنته حفرة، وكان التراب يقع على لحيتها، وكانت ابنته تنفض

التراب من لحيتها ثم يلقيها في تلك الحفرة، وهذا يدل على غلظ قلوبهم، فإن الله عزَّجَلَّ قد

أعطى الرحمة في قلوب الحيوان، وهؤلاء يقتلون بناتهم، وكان قتلهم لبناتهم لسبيين: الأول:

الفقر، ولهذا السبب ربما قتلوا الولد والبنت، والثاني: خشية العار، ويكون هذا في حق البنت.

وقراءة الجمهور: ﴿ سُئِلَتْ ﴾ فإذا سُئِلَ المظلوم فكيف الظالم، وقرأ غير واحد ﴿ سَأَلَتْ ﴾

أي: طالبت بدمها، فالشاهد أن الله يقول: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾^(٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿ وكذلك

قاتل الموءودة يسأل عن سبب قتلها، وقد سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْعَزْلِ؟، فَقَالَ: «ذَلِكَ الْوَأْدُ

الْحَقِي»^(٣).

والصحيح أن الموءودة في الجنة؛ لقول النبي ﷺ: «فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ»، فَقَالَ بَعْضُ

(١) متفق عليه، البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٦١٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٤٢).

المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ» أي في الجنة^(١)، هذا هو القول الصحيح في هذه المسألة، وقد اختلف العلماء، فقال بعضهم: أولاد المشركين مع آبائهم، واستدلوا بحديث: «هُمُ مِنْ آبَائِهِمْ»^(٢) وهذا إنما هو في الدنيا في حال البيان؛ لكن القول الذي عليه أهل التحقيق: أن أولاد المشركين في الجنة، لثبوت النص عن النبي ﷺ.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرتْ﴾ أي: صحائف الأعمال تنشر يوم القيامة، وفيها ما سطر من خير أو شر، فإن الإنسان لا يعمل عملاً ولا يقول قولاً إلا كتب عليه ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحَدَّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وحين تنشر هذه الصحف منهم من يأخذها بيمينه، ومنهم من يأخذها بشماله، كما قال الله عزَّجَل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ، فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ مِمَّا كَتَبْتُ﴾ [الحاقة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، بِشِمَالِهِ، فَيَقُولُ يَلَيِّنُنِي لِزُؤْتِ كِتَابِي﴾ [١٥] ﴿وَلَوْ أَدْرِمَا حَسَابِي﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِأَمْرِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ، فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١].

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أي: السماء عالية البنيان، عظيمة الأركان، تراح عن مكانها، وتهدم أركانها، ويطويها الله عزَّجَل بيده ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ﴾ سميت الجحيم؛ لبعدها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَدْرُونَ مَا هَٰذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَٰذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ قَعْرِهَا»^(٣). ﴿سُعْرَتْ﴾ أوقدت، وأظلمت، وجُهزت، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٤)، عن سمرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٣)، ومسلم (١٧٤٥)، عن الصَّعْبِ بْنِ جَثَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).

وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿وَأِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾ أي: قربت، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْجَنَّةَ لِّلْمُنِيفِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]، فقربها الله للمؤمنين؛ ليدخلوها ويتمتعوا بالنظر إليها، ويستأنسوا بوجودها، إذ أنهم يُكرمون حين إتيانها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، هذا هو الجواب لما تقدم، وذلك حين تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال، وتعطل العشار، وتحشر الوحوش، وتسجر البحار، وتزوج النفوس، وتسأل الموءودة المقتولة، وتشر الصحف (الدواوين)، وتكشط السماء وتطوى وتذهب، وتسعر الجحيم، وتقرب الجنة عند ذلك: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ علمته ولا تنسى منه شيئاً، كله مسطر في الكتب، والملائكة يشهدون، والإنسان ينظر إلى عمله يمناً ويسرة كما سيأتي ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] ما فعلته، وما لم تفعله، وهذا العلم يُوجب للإنسان الحسرة في الآخرة ﴿يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ [ص: ١١] ﴿وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ [١٢] ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ [١٣] ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ [المعارج: ١١-١٤]

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ [١٥] الْجَوَارِ الْكُنُوسِ [١٦] وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ [١٧] وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ [١٨] إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [١٩] ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ [٢٠] مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [٢١] وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ [٢٢] وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِقِ الْمِيِّينَ [٢٣] وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ [٢٤] وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيعٍ [٢٥] فَأَن تَذَهَبُونَ [٢٦] إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ [٢٧] لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ [٢٨] وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [٢٩]

ثم قال عزَّجَلَّ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ أي: أني أقسم بالخنس، وهي النجوم حال طلوعها، وقيل غير ذلك.

﴿الْجَوَارِ﴾ النجوم حين تكون سابحة في السماء، ﴿الْكُنُوسِ﴾ النجوم عند غروبها، فأقسم الله عزَّجَلَّ بحال النجم في جميع حالاته الثلاث: عند طلوعه، وسيره، وعند غروبها، والنجم آية من آيات الله العظيمة، جعلها الله زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، قال قتادة: ﴿خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِّلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بغيرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيْبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ﴾ (١).

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» معلقاً (٤/١٠٧).

﴿وَأَلِيلٍ إِذَا عَسَسَ﴾ أقسم أيضًا بالليل إذا عسس أي: إذا أدبر، كما قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَأَلِيلٍ إِذَا دَبَّرَ ٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ ٣٤﴾ [المدر: ٣٣-٣٤]، فيقسم بالمتماثلين: ﴿وَالسَّمْسِ وَضُحَاهَا ١﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَالضُّحَىٰ ١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضحى: ١-٢]، ﴿وَأَلِيلٍ إِذَا بَغَشَىٰ ١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ [الليل: ١-٢]، أقسم بالصبح حال طلوع الشمس، وقبل ذلك يتنفس ويبدأ في ظهور النور بعد الظلمة، ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن هذا هو المقسم عليه، ﴿لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ والمراد به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، نسب إليه لأنه بلغه وهو رسول كريم، ذو أوصاف جليلة جميلة عظيمة، فإن لفظ الكرم أعم من العطاء، ولذلك رأينا أنه لا حرج في قول رمضان كريم من حيث أنه شهر الخير والبركة.

والقرآن هو قول الله، وكلامه، وإنما أضيف إلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه بلغه، وأضيف إلى النبي ﷺ؛ في سورة الحاقة لأنه بلغه للناس، ويزيده وضوحًا أنه قال: ﴿لَقَوْلِ رَسُولٍ﴾ والرسول هو الذي أرسل من غيره.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي: من أوصافه الرسول الكريم أنه صاحب قوة، كما قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ٦﴾ [النجم: ٦] أي: قوة وشدة؛ لكمال خلقته، ولعظيم شأنه، وقد رآه النبي ﷺ على خلقته مرتين وله ستائة جناح ساد عظم خلقه ما بين السماء والأرض.

﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي: أن هذا الرسول عند الله، صاحب العرش، وهو العرش العظيم، العرش المجيد الذي استوى الله عزَّجَلَّ عليه ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٥] وهو أعلى المخلوقات، وأول المخلوقات، قال النبي ﷺ: ﴿فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ﴾ (١).

﴿مَكِينٍ﴾ أي: أنه ممكن، مكنه الله عزَّجَلَّ، فهو المقدم على جميع ملائكة الله، وقد قال الله عزَّجَلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٥﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥].

﴿مُطَاعٍ﴾ أي: أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ مطاع من جميع الأملاك، يطيعونه؛ إذ أنه يبلغهم بأمر الله، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[سبأ: ٢٣]، وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُبْلَغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، صَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسَّلْسَلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ - قَالَ عَلِيٌّ: وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ - فِإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»^(١).

﴿نَمَّ أَمِينٌ﴾ أي: أنه متصف بالأمانة، وهذا ثناء عظيم من الله عَزَّ وَجَلَّ على جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي يُحَوِّثُهُ الرافضة والباطنية؛ بدعوى أنه دفع النبوة إلى محمد ﷺ وهي في الأصل لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وربما سلم بعضهم من الصلاة لاسيما النخالة ومن إليهم ويقولون: خان الأمين، خان الأمين. كيف يخون الأمين؟، لا تستقيم؛ لأن الأمين لا يخون فهو أمين مؤتمن على الوحي، وعلى أوامر الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ أي: محمد ﷺ الذي أرسل إليكم ليس بمجنون كما يزعم الكفار ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾^(٥٥) أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣]، وقد ذهب بهم الحال أن يشيعوا هذا الكذب بين الناس، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ ضِمَادًا، قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَرْدِ شَنْوَاءَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مُجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، مَنْ يَبْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ» قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكُهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغَنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أَبَايَعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَعَلَى قَوْمِكَ»، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي^(٢).

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ أي: أن محمدًا ﷺ رأى الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِالْأَفْقِ﴾ أي: سادًا الأفق، جالسًا على كرسيه ما بين السماء والأرض، وهذه هي النظرة الأولى، وقد رآه مرة أخرى ليلة الإسراء، وهذا مما يدل على أن سورة التكويد كان نزولها قبل سورة النجم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^(١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾^(١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾^(١٥)

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١).

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٨).

[النجم: ١٣-١٥]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ رآه بيناً واضحاً جلياً بصفاته.

ثم قال الله عزَّجَل في وصف محمد ﷺ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي: الوحي الذي نزل عليه ﴿بِضَيِّينِ﴾ ببخيل، بل إنه كان إذا جاءه الوحي علمه الناس، وبلغ دين الله. وفي هذه الآية قراءتان:

القراءة الأولى: ﴿بِضَيِّينِ﴾ ببخيل، والقراءة الثانية: ﴿بِظَنِينِ﴾ أي: بالمتهم، فالنبي ﷺ لم يكن متهماً على دينه، ولا ببخيل بما أوحاه الله إليه.

وهكذا ينبغي أن يكون طالب العلم باذلاً نفسه للناس، حريصاً على تبليغهم ما جاء عن الله، وما ثبت عن النبي ﷺ، إذا أن الله عزَّجَل أرسل الرسل بالوحي، وأمرهم أن يبلغوه كما جاء، قال الله عزَّجَل: ﴿وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، قال شيخ الإسلام: فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع (١). اهـ. وينبغي لطالب العلم أن تكون فتواه بالدليل؛ حتى لا يتهم على دين الله.

قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي: أن هذا القرآن ليس بقول شيطان رجيم، فإن أقوال الشياطين يعترها النقص، والاضطراب والاختلاف، وتختلط بالباطل، فلو كان قول شيطان لجاء الشياطين بمثله، أو قاربوا مثله، لكن تحداهم الله أن يأتوا بمثله فعجزوا ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، فعجزوا، ثم تحادهم أن يأتوا بسورة فعجزوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨].

والشيطان من شط وهو الذي خرج عن الطاعة ﴿رَجِيمٍ﴾، ملعون مرجوم.

ثم قال لهم بعد هذا البيان العظيم مبكتاً ومحقرًا لعقولهم الكاسدة: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: أين تعدلون عن هذا القرآن، وفيه الشفاء والبيان، ولكن حملهم الكبر على ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ الْهَتَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿[الصافات: ٣٥-٣٦].

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هذا القرآن ﴿ذِكْرٌ﴾ ذكرى ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ المكلفين من الجن والإنس.

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٣٧٥).

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ لمن شاء أن يدخل في دين الله، ويستقيم على شرع الله عَزَّوَجَلَّ، ومشية العبد لا يمكن أن تقع إلا إذا شاء الله ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ أي: يتبع الحق ويكون على الدين القويم والصراط المستقيم.

﴿ وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي: مشية التوفيق إلا إذا شاء الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩]، ففيه دليل وإعلام أن أحدًا لا يعمل خيرًا إلا بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ العالم العلوي، والسفلي، وقيل: بأن العالمين هم الجن والإنس، وزاد بعضهم الملائكة، والصحيح أن كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ عالم.

والحمد لله رب العالمين.



مَكِّيَّة

سُورَةُ الْبَلَاغِ سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

آيَاتُهَا ١٩

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ ، مَكِّيَّةٌ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾
 عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴿٥﴾ يَتَأَيَّمَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ
 فَعَدَّلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾
 كِرَامًا كُنُيِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قال تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ أي: تشققت، وتفطرت، وتصدعت، وهذا يكون يوم القيامة.

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴾ أي: الكواكب، والنجوم، تصير منتشرة متفرقة بعد اجتماعها، وبعد سيرها على الوجه الذي شرعه الله لها كوناً.

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ أي: ذهب ماؤها؛ بسبب ما سعرت به من النيران كما تقدم.

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴾ خرج ما فيها من المدفونين المقبورين، بعثتهم، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ ﴾ [العاديات: ٩]، خرجوا من قبورهم بعد أن كانوا قد وُروا في التراب، يقول فإذا بعثت القبور وخرج من فيها ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴾ علمت كل نفس مكلفة ما قدمت من خير أو شر، وما أخرت من ذلك، كما تقدم: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ يَتَأَيَّمَا الْإِنْسَانُ ﴾ نداء إلى جميع المكلفين ﴿ مَا غَرَّكَ ﴾ من الذي جعلك تغتر وسؤل لك الباطل حتى أضعت ما وجب عليك وأمنت مكر الله عزَّجَلَّ كما قال: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

﴿ بِرَبِّكَ ﴾ بخالقك ورازقك ومدبرك ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ العظيم، وهذا على التهديد، كما يقول

المثل: أحذر من الكريم إذا أهنته؛ فإنه ينتقم انتقامًا لا عفو بعده؛ لأن الكريم يعفو، ويصفح، ويتجاوز، ويعطي، ثم إذا رأى من هذا المُكْرَمِ النفور، علمه ليس أهلًا للكرامة، فعند ذلك يقلوه ويتركه.

ثم عَرَفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفْسَهُ، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي: أوجدك من العدم ﴿فَسَوْنَكَ﴾ على أحسن صورة كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ﴿وَصَوْرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿فَعَدَلَكْ﴾ قَوْمَكَ في أحسن صورة، وهيئة، وأحسن حال، وهذا لم يقع لغير الإنسان ممن هم في الأرض، الشياطين صورهم سيئة والحيوانان كلٌ على صورة، والإنسان خلقه الله على أحسن صورته يغطي عورته، ويسرح لحيته، ويمشط شعره، ويزيل درنه، إلى غير ذلك مما هو عليه.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ﴾ في أي هيئة ﴿مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إن شاء جعلك أحمرًا، أو أبيضًا، أو أسودًا، طويلًا، أو قصيرًا، ذكرًا، أو أنثى، فإنه لا يخرج عن مشيئة الله، وإرادة الله الكونية شيء، فالأمر أمره.

ثم قال: ﴿كَلَّا﴾ حقًا أيها المشركون أن الذي يملككم على الاغترار والتهادي في المعاصي ﴿بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أنكم تكذبون بيوم القيامة، يوم الجزاء، وتكذبيهم له؛ إما بعدم تصديقهم الخبر الدال على وقوعه، وإما بعدم الانقياد لتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، فإن هذا يلزم منه تكذيب يوم الدين، والجزاء، وإلا لو كان الإنسان يعلم أنه مبعوث بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ مجازى بأعماله فسيبادر للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ أي: من الملائكة يحفظون أعمالكم، كما أنه: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ [ق: ١٨]، كما أنهم يحفظون الإنسان من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه من أمر الله، فأحيانًا تمشي في طريق تكاد أن تتعثر على وجهك، وإذا بك تُحْفَظُ، فإذا جاء القدر حيل بينك وبين هذه الحفظة، فتسقط وتقع، والمعنى الأول أظهر، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿كِرَامًا كَنِينًا﴾ أي: أصحاب كرامة في جمال وجوههم، ونبيل أخلاقهم بخلاف الشياطين، فالملك إذا عصيت الله عَزَّوَجَلَّ تنحى عنك، والشيطان تستعيز بالله منه وهو جاثم على قلبك؛ لأنه لئيم حقير.

﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعلمون أفعالكم ويسطرونها عليكم.

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

ثم أخبر سبحانه وتعالى بحال الناس في الآخرة، فقال: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ أي: المؤمنون الموحدون الذين لزموا البر في أقوالهم وأفعالهم ﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ يوم القيامة، وهي جنة عدن يتنعمون بأنواع النعم من المأكل، والمشارب، والزوجات، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ وَيَبْشِرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٢٥].

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ ﴾ الكفار سمو بذلك لفجورهم بمخالفة أمر الله جل جلاله، ﴿ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ في عذاب أليم يوم القيامة.

﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ تُحرق أجسادهم، وتُذهب بهائها، وتُنغص حياتهم، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]، وقال عز وجل: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَهُمْ مَقْلَعُونَ مِنْ حديدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج: ١٩-٢٢]، أسأل الله السلامة.

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ لا يغيبون عنها ولا تغيب عنهم ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٢].

ثم قال معظماً لشأن يوم القيامة: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ أي: ما أدراك ما يوم القيامة، ما أدراك ما يوم الجزاء.

﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ تأكيدًا لهذا التعظيم ﴿ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ أي: لا يملك الأب لابن، والزوجة للزوج، والصاحب للصاحب نفعًا ولا ضرًا، بل إن نفسك لا تملك لنفسك شيئًا، فلا تستطيع أن تقدم أو تأخر إلا ما كان قد قدمته في الحياة، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨].

﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ لقوله: ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤]، يكرم المؤمنين بالجنة، ويهين الكافرين بالنار ولا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية.

والحمد لله رب العالمين.



مكية

الجزء الثامن من سورة المطففين

آياتها ٢٦

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ ، مَكِّيَّةٌ ، وَذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهَا مَدِينِيَّةٌ ، وَالَّذِي يَظْهَرُ الْأَوَّلُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ١ ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿ ٢ ﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ

﴿ ٣ ﴾ لَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿ ٤ ﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ ٥ ﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ٦ ﴾

قال تعالى: ﴿ وَيَلِّ ﴾ دعاء بالهلكة وإخبار عما يلحقهم من الخزي والعذاب الأليم في يوم القيامة ﴿ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ أي: الذين ينقصون المكيال والميزان، والله عَزَّجَلَّ قد أمر بوفاء الوزن ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ السَّمِيعِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥]، وتطفيئهم من جهتين: استيفاء الحق إن كان لهم، ونقصه إن كان لغيرهم. وينبغي للإنسان أن يؤدي إلى الناس الذي يجب أن يؤدي إليه، وهذه معصية قوم شعيب مع كفرهم، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَفْقَهُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْيَمِّيَّ وَالْأَمِيرَانَ إِتَى أَرْضَكُمْ يَخِيرُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿ ٨٤ ﴾ وَيَقَوْمِ أَتَوْا الْيَمِّيَّ وَالْأَمِيرَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿ ٨٥ ﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿ ٨٦ ﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿ ٨٧ ﴾ قَالَ يَفْقَهُمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿ ٨٨ ﴾ وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٌ ﴿ ٨٩ ﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيرٍ ﴿ ٩٠ ﴾ قَالَ يَفْقَهُمْ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿ ٩١ ﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿ ٩٢ ﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيًّا ﴿ ٩٣ ﴾ كَانُوا لَمَّا بَغَضْنَا آلَ الْبُعْدَى الْمَدِينَةَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿ ٩٤ ﴾ [الأعراف: ٨٤-٩٥].

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ كانه يقول: المطففون هم الذي إذا اکتالوا على الناس يستوفون، وجاء عند ابن ماجه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ كَيْلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطْفِفِينَ﴾ [المطففين: ١]، فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ»^(١)، وسند رجاله ثقات إلا علي بن الحسين بن واقد فيه كلام، وعلى صحة هذا الحديث ستكون السورة مدنية، والله أعلم.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا﴾ كالأول ما اشتروه ﴿عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ يستوفون ما لهم وزيادة ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ عند البيع منهم ﴿أَوْ وَزَوَّوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ يتقصونهم على ما لهم، وهذا دليل على حب الذات والبعد عن العدل، فأوعدهم الله عَزَّجَلَّ بالويل والثبور. وفي الآية الدعوة إلى الإنصاف، وَقَالَ عَمَّارٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ»^(٢). وتطفيف المكيال والميزان بلية ابتلي به التجار، وإلا هي عبارة عن جرائم تزيد وجرامات تنقص، لا تضر المشتري ولا تنفع التاجر في الغالب، ولكنها فتنة؛ بسبب الجشع لدى كثير من التجار، والله المستعان.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ﴾ ألم يستيقن هؤلاء الذين يطففون المكيال والميزان؟ ﴿أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ محشورون إلى الله عَزَّجَلَّ، ومجازون على أعمالهم ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة عظمتها في طوله، وفي الحساب فيه، وفي أهواله، وعظمتها في أن الله عَزَّجَلَّ يُبلي فيه السرائر، إلى غير ذلك.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا من عظمتها أن الناس يقومون لرب العالمين، يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»^(٣)، وفي حديث المِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ» - قَالَ سُلَيْمٌ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمْسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ - قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَفْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ الْجَمَامًا» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ»^(٤).

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٢٣).

(٢) رواه البخاري معلقاً في «صحيحه» (١٥/١).

(٣) متفق عليه، البخاري (٦٥٣١)، ومسلم (٢٨٦٢)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦٤).

موطن عظيم حين تقوم لرب العالمين وأنت تنتظر الجزاء، لاسيما المفرطون في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، عند ذلك يجدون الحسرة على ما حصل منهم: ﴿يَقُولُ بَلَيْتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْتِيهِمْ نَاقَهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٤-٢٦]، فلا خلاص من الله إلا إذ رحم الله، ولا رحمة من الله عَزَّوَجَلَّ إلا لأهل التوحيد الخالص، أما أهل الشرك والتنديد فقد قال عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٦]، فاستحضر هذا الموقف عبد الله وهو الوقوف بين يدي الله، فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيِّئَةٌ مِنْهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ﴿١﴾».

وقوله: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولم يقل: لله، مع أن لفظ الجلالة (الله) هو الاسم الذي عليه مدار بقية الأسماء؛ ليدل على سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ.

﴿الْعَالَمِينَ﴾: هم كل ما سوى الله، وقيل: الجن والإنس.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُومِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الْبُرْجَانِ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْدِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلُّ عَلَيْهِمْ نَارُ الْبُرْجَانِ الْأُولَى ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ أي: حقًا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ﴾ إن الله عَزَّوَجَلَّ قد قدر وكتب أن الفجار: الكفار يكونون في سجين، وسجين أسفل النار كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٥]، وفي حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اَكْتُبُوا كِتَابَ عِبْدِي فِي عَلِيِّنَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى» ﴿٢﴾، وسمي سجين؛ لأنه سجن للكفار وبش القرار، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ﴾ تعظيم لهذا الأمر الذي سيقعون فيه.

﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ أي: أن هذا السجين مكتوب في كتاب مرقوم، وليس معناه أن سجين هو الكتاب المرقوم.

(١) متفق عليه، البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤).

﴿وَلِئَلَّيَوْمَذِيئَلْمُكَذِّبِينَ﴾ إخبار بما يلحق الكفار يوم القيامة من الخزي والنكال والعذاب الأليم، ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يكذبون بيوم الجزاء والبعث والنشور؛ وذلك لأنهم يزعمون أن لا حياة بعد الموت، ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ﴾ أي: بيوم الدين ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ متعد لشرع الله سُجَّانَةً وَتَعَالَى، أثيم في قوله وفعله، من الإثم الذي يتعاطاه وأعظمه الشرك بالله عَزَّجَلَّ، والتكذيب بالبعث والنشور وغير ذلك.

﴿إِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِ ابْنَانُ﴾ من صفات هذا المكذب أنه إذا تتلى عليه آيات القرآن ووحى الرحمن ﴿قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مسطورة مكتوبة عن الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، وقالوا ذلك مكابرة، وإلا فإنهم يعلمون بعد رسول الله ﷺ عن ذلك.

﴿كَلَّا﴾ أي: حقًا، أو أنها للزجر والردع ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ حصل الران على قلوبهم، وهو ما يغطي القلوب؛ بسبب الذنوب والمعاصي، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ تَرَعَّ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ.» ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١)، فتغطى قلوبهم بالسواد حتى لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكراً إلا ما أشرب من هواها، وتأمل هذا فيمن حولك، إذا كان الإنسان من المبادرين إلى طاعة الله عَزَّجَلَّ إذا وقعت منه المعصية يجد ثقلها ويجد حسرتها، ويبادر إلى الاستغفار منها؛ ليستريح، وإذا كان العكس تقع منه المعصية ويفرح، ويستبشر بها، والله المستعان.

وفيه دليل على أن صلاح البدن عائد إلى صلاح القلوب، كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢)، وفيه دليل على أن الأعمال تؤثر على الإيثار، فإن هؤلاء ضعف إيمانهم وقل نصيبهم؛ بسبب ما يكسبونه من الأعمال السيئة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ أي: حقًا إن المكذبين الذين تقدم ذكر أوصافهم يوم القيامة

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، والحديث في «الصحیح المسند» (١٤٣٠) لشيخنا مقبل الوداعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عن ربهم لمحجوبون، لا يرونه، وبهذه الآية استدل الشافعي رحمته الله على أن المؤمنين يرون ربهم، فقد أخرج اللالكائي، عن الربيع بن سليمان، قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رُفعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] قال الشافعي: فلما أن حجبوا هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أنهم يرونه في الرضا قال الربيع: قلت: يا أبا عبد الله وبه تقول؟ قال: نعم، وبه أدين الله، لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله تعالى (١).

وهذا احتج من أهل السنة أن الحجب لا يكون إلا بعد رؤية، وذهبوا إلى أن كل من في الموقف يرى الله عز وجل، ثم يحتج عن الكفار، ودليل ذلك حديث أبي سعيد الخدري رحمته الله في (الصحيحين): «أن ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم» قال: «هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليُتبع كل أمة ما كانت تعبُد، فلا يبقى أحدٌ كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب، فيدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبُدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا، فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيساقطون في النار، ثم يدعى النصارى، فيقال لهم: ما كنتم تعبُدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا، فاسقنا، قال: فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها قال: فما تستظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبُد، قالوا: يا ربنا، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً، حتى إن بعضهم ليكاد أن يقليب، فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد أتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم،

فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبَّنَا، ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَجِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «دَحْضُ مَرَلَةٍ، فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِبٌ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوبِكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْحَيْلِ وَالرَّكَابِ، فَتَاجِ مُسَلَّمٍ، وَمَخْدُوشٍ مُرْسَلٍ، وَمَخْدُوشٍ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشِدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِثْوَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيُحْجُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرَجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتَحْرَمُ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَخْرَجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقِيهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْنَا بِهِ، فَيَقُولُ: ازْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرَجُوهُ، فَيَخْرَجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْنَا، ثُمَّ يَقُولُ: ازْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرَجُوهُ، فَيَخْرَجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْنَا أَحَدًا، ثُمَّ يَقُولُ: ازْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرَجُوهُ، فَيَخْرَجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا»، وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا

عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبُضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا فَطَقُّ قَدَّ عَادُوا حَمِيمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَقْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حِمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ، أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أَصْفِيرٌ وَأُخْيِضُرٌ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَيْضًا؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرَعَى بِالْبَادِيَةِ، قَالَ: «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْحَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَوْلَاءِ عَتَمَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمَلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١)، ويستدل على رؤية جميع من في الموقف بعموم أدلة اللقي، فإن اللقي لا يكون إلا مع الرؤية.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي: بعد المحشر وما يلحقهم فيه من الخزي، واللعن، كما قال تعالى:

﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، يدخلون الحميم، فيصلون الجحيم ويعذبون فيها.

﴿ثُمَّ يُنَادُوا هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يقال لهم على سبيل التبكيت والتحقير والإهانة كما قال الله

(١) متفق عليه، البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣).

عَرَّجَلٌ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ [الدخان: ٤٩-٥٠]، أي: أن هذا العذاب والحزني الذي أنتم فيه ما كنتم تكذبون به في الدنيا وتستبعدون وقوعه.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يُنظَرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَحْحُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتْمُهُمُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرْجَاهُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ولما ذكر الله جَلَّ جَلَالُهُ حال الكافرين ناسب أن يذكر حال المؤمنين، وهذا في أغلب القرآن أنه إذا ذكر حال المشركين ذكر حال المؤمنين، وإذا ذكر حال المؤمنين ذكر حال المشركين؛ كالترهيب من طريق الكافرين، والترغيب في طريق المؤمنين.

قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ﴿حَقًّا﴾ ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ أي: مكتوب في اللوح المحفوظ أن الأبرار سوف يكونون في عليين، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تعظيمًا لشأن الجنة، وفي حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اُكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ»^(١) في السماء السابعة، وقد قال بعض أهل العلم: هي الجنة ولا معارضة، فإن الجنة أشرف ما فيها.

﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: أنه مكتوب عند ملائكته المقربين، يطلعون عليه، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَأَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»^(٢).

ثم قال الله عَرَّجَلٌ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ إن المؤمنين أصحاب البر والصلاح ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ في نعيم وسعة خير في جنة عالية قطوفها دانية، ونعيمها في جميع شؤونها، في النظر إلى ربهم، وفي لبسهم، وفي أكلهم وفي تبعلهم، وفي جلوسهم، ﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ يُنظَرُونَ﴾ إلى ربهم يوم القيامة، جاء في بعض الروايات «غدوة وعشية»، ويرى الله جَلَّ جَلَالُهُ في موطنين:

﴿الموطن الأول: في الحشر، ودل عليه بالمفهوم قول الله عَرَّجَلٌ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ﴾

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤).

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

﴿حَجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وبالمنطوق قول الله عزَّجَل: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رِبْعَاهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

﴿الوطن الثاني: في الجنة﴾، ودل عليه هذه الآية، وقوله عزَّجَل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥]، وفي حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تفسير الزيادة بأنه النظر إلى وجه الله جَلَّ جَلَالُهُ (١).

وحال المؤمنين وصفاتهم أنك: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ بنظرك إلى وجوه المؤمنين تلاحظ ذلك ﴿نُضْرَةً النَّعِيمِ﴾ البهاء؛ لأن المستريح يرى خيره في وجهه، والمعذب يرى شؤمه في وجهه، فالمؤمنون تُشاهد النضارة في وجوههم؛ دليل على راحتهم وسعة حالهم، كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة: ٢٢].

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أي: لهم في الجنة نعيم عظيم وخير عميم ومنه أنهم يسقون شراباً من رحيق مختوم نوع من الخمر، ﴿خِتْمُهُ مِسْكٌ﴾ أي: مختوم بالمسك وقيل آخره مسك، وقيل مخلوط بالمسك، ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ أي: في هذا النعيم المقيم والخير العميم ﴿فَلْيَتَنَفَّسْ أَلْمُنْفَسُونَ﴾ بامثال أمر رب العالمين، وأهم ما يمثل هو التوحيد؛ لأن الله عزَّجَل أرسل به الرسل وأنزل به الكتب، ولأن تضييعه تضييع لصالح الدارين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وفيه فضيلة المسابقة إلى الخيرات، وقد قال الله عزَّجَل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفُورٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا» (٢)، والمذموم هو التنافس في الدنيا؛ لقول النبي ﷺ: «وَلَا تَنَافَسُوا» (٣)، وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَّصِدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَا لِي عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَآتَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قَالَ: أَبْقَيْتُ

(١) أخرجه مسلم (١٨١).

(٢) أخرجه مسلم (١١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قُلْتُ: لَا أَسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا^(١).

﴿ وَمِنْ أَجْهُ، مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ أي: مزوج هذا الشراب: من تسنيم، قيل: شراب ينزل من السماء، وقيل: شيء ظاهر كالسنام وقيل بأن ﴿ تَسْنِيمٍ ﴾: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقْرَبُونَ ﴾ فيكون من تفسير القرآن بالقرآن، أي: يشرب منها المقربون، وهذا الشراب الذي يشربونه من رحيق مختوم للذين تقربوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بأعمالهم الصالحة؛ لأن الناس ليس بينهم وبين الله سبب ولا نسب إلا أن يعمل الإنسان بالتوحيد الخالص، فيقرب من ربه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»^(٢).

ولما أخبر بحال المؤمنين وما فيه من الخير العميم، والفضل العظيم، قال عَزَّوَجَلَّ:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ^(١٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ^(٢٠) وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنقَلَبُوا فَكِهِينَ^(٢١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ^(٢٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ^(٢٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ^(٢٤) عَلَىٰ الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ^(٢٥) هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ^(٢٦) ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ كفروا بالله عَزَّوَجَلَّ وتمردوا على شرعه ورسله ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾

يَضْحَكُونَ ﴿ في الدنيا بل إنهم كانوا يتضحكون على النبي ﷺ حتى يرجع بعضهم إلى بعض في ناديهم، فعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جُزُورٌ بِالْأَمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَىٰ سَلَا جُزُورِ بَنِي فَلَانٍ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتْفِي مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشَقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتْفَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَىٰ بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالنَّبِيِّ ﷺ سَاجِدًا مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّىٰ انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ، فَجَاءَتْ وَهِيَ جُوَيْرِيَّةٌ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتَمُهُمْ، فَلَمَّا قَضَىٰ النَّبِيُّ ﷺ صَلَاتَهُ، رَفَعَ صَوْتَهُ، ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا،

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والحديث في «الصحیح المسند» (٩٨٨) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ، عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمْ الضَّحْكُ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ، عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ» - وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ - فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَى صَرَعى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سَجُّوا إِلَى الْقَلْبِ - قَلْبِ بَدْرٍ - قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: «الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ غَلَطَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ» (١).

فجازاهم الله عَزَّجَلَّ عن ذلك في يوم القيامة.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ أي: إذا مر الكفار بالمؤمنين ينظر بعضهم إلى بعض ويغمزونهم بالكلام والفعال فيقولون هؤلاء كذا وهؤلاء كذا؛ احتقارًا وازدراء.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ أي: الكفار في الدنيا ﴿انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ ينقلبون على حال سرور؛ بسبب سخريتهم وإهانتهم للمؤمنين ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: رأوا المؤمنين في الدنيا ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ وهذا من تقلاب الحقائق كما قال فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٩) [غافر: ٢٩]، كيف يصيح عابد الصنم هو المهتدي وعابد الله عَزَّجَلَّ هو الضال، هذا شيء عجاب.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ أي: أن المشركين لم يرسلوا على المؤمنين ليحفظوا أعمالهم ويراقبهم في كل صغيرة وكبيرة، بل إن الله عَزَّجَلَّ قد جعل ملائكة ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ (١١) يعاينون ما تفعلون (١٢) [الانفطار: ١١-١٢] يسطرون أعمال جميع الناس.

فلماذا هؤلاء الكفار يراقبون حال المؤمنين إن من الله عليهم بسعة طعنوا فيهم، وإن ضيق عليهم في معاشهم سخروا منهم، وإن مرض أحدهم ضحكوا عليه، وإن تأخر الوحي سخروا منه، حتى قالت تلك المرأة: ما أرى محمدًا إلا قد قلاه ربه، سبحان الله! يزعمون أن محمدًا ساحرٌ، كاهنٌ، عرافٌ، كذابٌ، فلما فتر الوحي زعموا أن الله قد قلاه، فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (٣) [الضحى: ٣] (٢)، أي: ما تركك ولا قلاك ولا كرهك.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ جزاءً وفاقًا، والجزاء من جنس العمل، كان الكفار يضحكون على المسلمين في الدنيا فكان الجزاء أن المسلمين يضحكون

(١) أخرجه مسلم (١٧٩٤).

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٩٥٠)، مسلم (١٧٩٧)، عَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْتَأْذِنُونَ ﴾ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهِيَ تَك لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾ أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَهِيَ تَالْمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَمِيَّاتٍ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّبِينَ ﴿٥٩﴾ [الصفات: ٥٠-٥٩]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ [الأعراف: ٤٤]. فدار الدنيا دار اختبار وابتلاء، قد يبتلى فيها المؤمن ويمحص، ودار الآخرة دار عز المؤمنين، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» (١).

وضحك المؤمنين على الكفار حال جلوسهم ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ السرر المرتفعة، تكون تحت الخمائل ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ يتمتعون، ومن أعظم نعيمهم أنهم ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى ربهم، و﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى نعيمهم الذي في الجنة، وربما نظروا إلى أهل النار، ويحمدون الله عَزَّجَلَّ على ما هم فيه من السلامة. ﴿ هَلْ تُؤْتَىٰ الْكُفَّارُ ﴾ هل جوزي الكفار ﴿ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي: على الذي كانوا يفعلونه من الأعمال الطالحة والجواب: نعم، يجازون يوم القيامة على عملهم سوء الجزاء والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.



مكية الجزء الثامن من سورة البقرة الآية ٢٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ ، مَكِّيَّةٌ ، وفي حديث ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، وَ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴾ ، وَ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّت ﴾ » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١ ﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ٢ ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ٣ ﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ٤ ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ٥ ﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلِّقِيهِ ٦ ﴾

يقول الله **عَزَّجَلَّ** : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ أي: واذكر إذ تشققت السماء وذهب ترابطها، وسقطت نجومها وانكدرت كواكبها، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أصغت، والأذن هو الاستماع والمعنى أنها أصغت لكلام ربها وأمره بالتشقق ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ حق لها أن تلتزم أمر الله **عَزَّجَلَّ**؛ لأنه لا يعجزه شيء، وإن تمردت على أمره فإنها هو قائل: كن فيكون، ولذلك حين عرضت عليها الأمانة أبت أن تقبلها ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) [الأحزاب: ٧٢] .

﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ قيل: وسعت يوم القيامة حين يحشر الناس عليها ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ ألقى ما فيها من المدفونين في قبورها وما قد حملت من أصناف المخلوقين، فإنهم يبعثون يوم القيامة «حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرْلًا» (٢)، كما قال الله: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة: ٤]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴾ [الانفطار: ٤]، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ استمعت لكلام ربها ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ حق لها ذلك؛ لأنها مخلوقة مأمورة بطاعة الله **عَزَّجَلَّ** .

﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ ﴾ نداء للإنسان المكلف ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ إنك صائر إلى الله، وإنك في طريقك إلى الله ﴿ فَمَلِّقِيهِ ﴾ يوم القيامة، واللقي يكون معه النظر، حتى نقل ابن خزيمة وابن القيم وغير واحد على ذلك الإجماع، وهو مما استدلل به أهل العلم على رؤية جميع من في

(١) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣) .

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .



الموقف الرب عزَّوجلَّ ثم يحتجب عن الكافرين.

فكل إنسان كادح إلى ربه، المؤمن، والكافر، إلا أن المؤمن يكون كدحه وسيره بالأعمال الصالحة المقربة من الله عزَّوجلَّ، والفاجر بعكسه، فحال المؤمن كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] هذا المؤمنون، وحال المجرم كما قال تعالى: ﴿يَلِيَّتِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿سَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ، وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) ﴿سَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ (١١) ﴿وَيَصِلَىٰ سَعِيرًا﴾ (١٢) ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (١٣) ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ﴾ (١٤) ﴿بَلَىٰ إِنْ رُبُّهُ، كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ (١٥)

ذكر الله عزَّوجلَّ أصناف الناس في يوم القيامة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ﴾ وهم أهل الإيثار، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أقرءوا كِتَابِيَّةً﴾ [الحاقة: ١٩]، وقال: ﴿فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ، فَأُوْلَئِكَ يَقْرءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَلًا﴾ [الإسراء: ٧١].

﴿سَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي: تعرض أعماله عليه، ففي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كِتَابَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ» (١).

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةِ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَازْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيَقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُكَبِّرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيَقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةٍ، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا» فَالْقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَحَّحَكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ» (٢).

وقد فسر النبي ﷺ الحساب بالعرض: فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُدْبٌ». قَالَتْ: قُلْتُ: أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قَالَ: «ذَلِكَ الْعَرْضُ» (٣).

(١) متفق عليه، البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، مسلم (٢٨٧٦).

﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ بعد العرض والحساب ينقلب إلى أهله في الجنة مسرورًا فرحًا بما أكرمه الله عزَّجَلَّ من الكرامة، ومنها قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَمُوتُوا فَلَا تَحْيُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَمُوتُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» (١)، ومن الكرامات النظر إلى وجه الله العظيم، والشرب من حوض النبي الكريم، وشفاعة النبي ﷺ فيهم، وغير ذلك.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبَهُ، وَرَأَىٰ ظَهْرَهُ ﴾ الكفار، يؤتون كتبهم من وراء ظهورهم بشئائهم، وهو معنى قول الله عزَّجَلَّ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبَهُ، بِسَمَائِهِ، فَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَمَّا أَوْتِ كَيْبَهُ ﴾ (٥٥) [الحاقة: ٢٥]، لما فيه من الأعمال السيئة الدالة على فساد ظاهره وباطنه.

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴾ يدعو على نفسه بالويل والثبور، والحال كما قال الله تعالى: ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ (١٤) [الفرقان: ١٤] ادعوا على أنفسكم بالهلاك الكثير، فلن يستجاب لكم، ويخلدون في نار جهنم ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿ وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا ﴾ يلتقى في النار تحيط به من جميع جوانبه والله المستعان ﴿ كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]، وسبب الخزي الذي هو فيه: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ فأمّن مكر الله جَلَّالَهُ اللهُ يَقُولُ: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩]، أمّن في الدنيا فخاف في الآخرة، والمؤمن خاف في الدنيا فأمّن في الآخرة ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ (٦٢) [يونس: ٦٢-٦٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرُوي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: «وَعَزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَىٰ عَبْدِي خَوْفِينَ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمَّنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفَّتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢). ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ ﴾ أي: تيقن؛ لأن الظن يأتي بمعنى اليقين ﴿ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ أن لن يرجع إلى الله عزَّجَلَّ، وكان مستيقنًا بذلك، بل كان يستبعد الرجوع إلى الله عزَّجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [السجدة: ١٠]، ﴿ بَلَىٰ ﴾ إنه سيرجع، وزد على ذلك ﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ كان به علمًا مطلقًا على جميع أعماله، زد على ذلك أن الله قد وكل ملائكة يكتبون ما عليه

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٩).

﴿ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ ﴾ [٨٠] ﴿ [الزخرف: ٨٠].

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ [١٦] **وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ** [١٧] **وَالْقَمَرِ إِذَا أَتَقَ** [١٨] **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ** [١٩] **فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** [٢٠] **وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ** [٢١] **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ** [٢٢] **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ** [٢٣] **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** [٢٤] **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** [٢٥]

﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ** ﴾ أي: أقسم بالشفق وهو الحمرة، وقيل البياض، والصحيح أن الشفق اسم لمجموعهما: الحمرة والبياض، وهو الضوء الذي يكون بعد غروب الشمس، إلا أن الشفق الذي تتعلق به صلاة العشاء هو الحمرة.

﴿ **وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ** ﴾ وأقسم بالليل، وما ضم وجمع ﴿ **وَالْقَمَرِ إِذَا أَتَقَ** ﴾ وأقسم بالقمر إذا كمل وتنام، ويكون ذلك في نصفه.

﴿ **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ** ﴾ حالاً بعد حال، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ** ﴾ [الانشقاق: ١٩]: ﴿ **حَالًا بَعْدَ حَالٍ**، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ ﷺ ﴾ (١)، والله أعلم.

﴿ **فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي: ما الذي جعل الكفار يعرضون عن الإيمان والتزام شرع الله **عَزَّجَلَّ** مع توافر الحجج وظهورها: ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ** ﴾ مع أن القرآن فيه من المواعظ والذكرى ما تتشقق به الحجارة، قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **لَوْ أَنرَأْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضِرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ** ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سِيرَتٍ يَدِ الْجِبَالِ أَوْ قُطِعَتْ يَدِ الْأَرْضِ أَوْ كَلِمٌ يَدِ الْمَوْتِيِّ** ﴾ [الرعد: ٣١]، أي: لو كان شيء مقروء ومكتوب تسير به الجبال الرواسي، وتقطع به الأرض الصلبة، لكان هذا القرآن الذي بكت من قراءته قلوب المؤمنين ووجلت ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢]، وازدادت به قساوة قلوب الكافرين، فما لهم لا يؤمنون بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً.

﴿ **وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ** ﴾ سواءً من غيرهم أو قرأوه هم ﴿ **لَا يَسْجُدُونَ** ﴾ تعظيماً لله **عَزَّجَلَّ**، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَرَلَ

الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ - وَفِي رِوَايَةٍ أَبِي كُرَيْبٍ: يَا وَيْلِي - أَمْرُ ابْنِ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَيُّتُ فَلَئِي النَّارُ» (١).

وقد قرأ النبي ﷺ سورة الانشقاق في صلاة العشاء وسجد، كما جاء من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «الصحيحين» فعَنْ أَبِي رَافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ الْعَتَمَةَ، فَقَرَأَ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١) [الانشقاق: ١]، فَسَجَدَ، فَقُلْتُ لَهُ: قَالَ: «سَجَدْتُ خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَا أَرَأَى أَسْجُدُ بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ» (٢).

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ والسبب الذي جعلهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون؛ أنهم يكذبون بوعد الله ووعيده، ويكذبون محمداً ﷺ الذي أرسل إليهم ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٥٢) [الذاريات: ٥٢] فبسبب اعتقادهم أنه ساحر أو مجنون كذبه وردوا دعوته.

ولما أخبرهم ﷺ أنه أسري به إلى بيت المقدس، كلهم تعاضم ذلك، مع أنه وصف لهم بيت المقدس وصفاً دقيقاً، بينما المؤمنون إذا أخبروا بشيء قالوا آمنا وصدقنا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ هَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ» فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ بَقْرَةٌ تَكَلَّمُ، فَقَالَ: «فَإِنِّي أَوْ مِنْ هَذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، - وَمَا هُمَا نَمَّ - وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذَّنْبُ، فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاءٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَانَتْهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذَّنْبُ هَذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبْعِ، يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي» فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ذَنْبٌ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: «فَإِنِّي أَوْ مِنْ هَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، - وَمَا هُمَا نَمَّ -» (٣).

فكان الصحابة رضوان الله عليهم على غاية من تصديق النبي ﷺ، وكان الكفار على غاية من تكذيبه فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٣٤) [الشعراء: ٢١٤]، وَرَهْطُكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ؛ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعَدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهُ». فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُمْ أَنْ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْسَفَحِ هَذَا الْجَبَلِ؟ أَكُتِّمُ مُصَدِّقِي؟» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذْبًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». قَالَ أَبُو هَبَّ: تَبَّ لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا. ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي

(١) أخرجه مسلم (٨١).

(٢) البخاري (٧٦٦)، ومسلم (٥٧٨).

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨).

لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ [المسد: ١]، وَقَدْ تَبَّ، هَكَذَا قَرَأَهَا الْأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ^(١)، ويقول هرقل لأبي سفيان: «هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدْرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ»^(٢)، وقد يكون تكذيبهم أيضا بسبب ما عندهم من الحسد والكبر والعناد ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصفات: ٣٥].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: والله مطلع ومحصي لما هم عليه من الحال، ولما جمعه في قلوبهم من الكبر والحسد، والبغي، والغل، الذي أوجب لهم عدم الدخول في الإسلام. قَالَ أَبُو جَهْلٍ: «إِنَّا كُنَّا وَأَنْتُمْ كَفَرَسِي رِهَانٍ فَاسْتَبَقْنَا الْمُجَدَّ مُنْذُ حِينٍ، فَلَمَّا تَحَاذَتِ الرُّكْبُ قُلْتُمْ مِنَّا نَبِيٌّ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا تَقُولُوا مِنَّا نَبِيَّةٌ، لَا أَعْلَمُ فِي فُرَيْشٍ أَهْلٍ بَيِّتِ أَكْذَبَ رَجُلًا، وَلَا أَكْذَبَ امْرَأَةً مِنكُمْ، فَادَّوهُ يَوْمَئِذٍ أَشَدُّ الْأَذَى»^(٣) أي: العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يكتُمون ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبرهم أن لهم عذابًا شديدًا في القيامة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثنى الله عَزَّجَلَّ أهل الإيمان والعمل الصالح، الذين يلتزمون شرع الله ظاهرًا وباطنًا ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ لهم جزاء على إيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿غَيْرِ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٣]، وقال: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]، إذا أكرمهم الله عَزَّجَلَّ بدخولهم الجنة كانوا في خلود لا موت، يتنعمون، ويأكلون، ويشربون ويلبسون، ولا ينامون؛ لأن النوم أخو الموت، فينعم المؤمنون نعيمًا كاملًا تامًا في جميع أوقاتهم ولحظاتهم، ومن أعظم نعيم الجنة النظر إلى وجه الله عَزَّجَلَّ، ولذلك كان النبي ﷺ يقول: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَيَّ وَجْهَكَ، وَالشَّوْقَ إِلَيَّ لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»^(٤).

والحمد لله رب العالمين.



(١) متفق عليه، البخاري (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨).

(٢) متفق عليه، البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٦٠).

(٤) أخرجه النسائي (١٢٢٩)، عَنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مكية

الجزء الثلاثين سورة البروج

آياتها ٢٢

سُورَةُ الْبُرُوجِ ، مِنَ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، فَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بِالسَّمَاءِ ﴿١﴾ وَالطَّارِقِ ﴿٢﴾ [الطارق: ١] ، «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ [البروج: ١] ، وَنَحْوَهُمَا مِنَ السُّورِ» (١) ، وَأَمَرَ ﷺ مَعَاذَ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا أَنْ يَقْرَأَ بِهَا فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، قَائِلًا : «يَا مَعَاذُ أَفْتَانٍ أَنْتَ؟ أَفْرَأُ سُورَةَ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ [الليل: ١] ، وَ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ [الأعلى: ١] ، وَ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ [البروج: ١]» (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَبُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَتَّخِذُوا لَهُمْ عَدَابٌ فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْخَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أقسم الله عَزَّجَلَّ بالسما العالية، ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي: ذات المنازل والنجوم السيارة، وقيل: بأن البروج هي منازل الشمس والقمر، وقيل: بأنها النجوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١١﴾ [الحجر: ١٦] ، وقال: ﴿نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] . ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وأقسم الله عَزَّجَلَّ أيضًا باليوم الموعود وهو يوم القيامة؛ لأنه آت لا محاله، وأقسم به لأنه يوم عظيم فيه من الأهوال ما الله به عليم.

﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾: يوم عرفة، وقيل: الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: يوم القيامة، وقيل بأن الشاهد: هو الله، والمشهود: هو مخلوقاته، قَالَ الْبَغَوِيُّ: الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الشَّاهِدَ: يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالْمَشْهُودُ: يَوْمُ عَرَفَةَ (٣) . اهـ.

وهو لفظ عام حيث أقسم الله عَزَّجَلَّ بالشاهد والمشهود ما كان، وفي «مسند أحمد» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]: «الشَّاهِدُ: يَوْمَ الْجُمُعَةِ،

(١) أخرجه أبو داود (٨٠٥)، والترمذي (٣٠٧)، والحديث في «الصحيح المسند» (٢٠٠) لشيخنا مقبل الوداعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٥٢١)، وابن حبان (١٨٤٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣٦٦/٨).

وَالْمَشْهُودُ: يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالْمَوْعُودُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١).

﴿ قِيلَ ﴾ أَي: لعن وأهلك ﴿ اصْحَابَ الْأَخْدُودِ ﴾ أَي: الكفار الذين خدوا الأخاديد في الأرض وأضرموها فيها النيران؛ لإحراق المؤمنين وامتثالهم، وقد اختلفوا في أصحاب الأخدود فقيل بأنهم قوم من فارس أراد ملكهم أن يحل المحارم فأبى علماءهم فأحرقهم، وقيل بأنهم قوم من الحبشة، وقيل قوم من اليمن، وقيل غير ذلك، ومن أصرح ما جاء في ذلك مرفوعاً عن النبي ﷺ حديث صُهَيْبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٢): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبُرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبُرْتُ، فَأَبَعْتُ إِلَيْ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السَّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرَ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرَ أَفْضَلَ أَمْ الرَّاهِبَ أَفْضَلَ؟ فَأَخَذَ حَجْرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمُوتَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَفَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيُّ بَنِيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتَبْتَلَى، فَإِنْ ابْتَلَيْتَ فَلَا تُدَلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلَامُ يُرِيءُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ يَهْدِيًا كَثِيرَةً، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَأَمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّ بَنِيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُرِيءُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمُنْشَارِ، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ، حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ، حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا

(١) «تفسير ابن كثير» (٣٦٦/٨).

(٢) برقم (٣٠٠٥).

فَاطْرُحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمِشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ فِي قُرُقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَأَقْدِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمِشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ صَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْعُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْعُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ، فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ، فَأَتَى الْمَلِكُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحَذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السُّكَّكَ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النَّيرانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْعُلَامُ: يَا أُمَّهُ اضْبِرِّي، فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ».

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ أَي: النار التي أضرموها والتهبت نيرانها وألقوا فيها الناس أحياء، وهذا منظر فضيع، وظلم عظيم، ﴿إِذْ هُرِّعَتْهَا لِقَعْدِهَا﴾ أَي: أن الكفار كانوا قاعدين على هذه النار؛ يرصدون عذاب الناس ويلقون من تردد فيها، ومن ارتد عن دينه تركوه، وهذا من أبشع الأحوال.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أَي: أنهم مطلعون على هذا الحال ويرقبون عذاب المؤمنين، ومعناها أيضًا حضور، وهم في فعلهم بالمؤمنين حضور لهذا الموقف.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ أَي: ما نقموا من المؤمنين: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ لم يكن من المؤمنين قتل نفس، ولا قطع طريق، ولا انتهاك عرض، ولا ما يستوجب أن يقتلوا، إلا أنهم آمنوا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وعموم هذه الآية ينطبق على كل من حارب حملة دين الله وقتلهم أو قاتلهم، لا لذنب اقترفوه، ولا لجرم حصلوه؛ إلا أنهم اعتقدوا الحق ودعوا إليه.

﴿الْعَزِيزِ﴾ ذي العزة ﴿الْحَمِيدِ﴾ المتصف بالمحامد والمكارم، ﴿الَّذِي﴾ أَي: الله العزيز الحميد ﴿لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما بينهما ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع ولكنه سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ

وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿ [هود: ١٠٢]، ومن أسماؤه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الشهيد، فهو عالم بالعالم المشهود وغير المشهود، كما قال تعالى: ﴿ **عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** ﴾ [الرعد: ٩] وهو المطلع الحاضر الذي لا يغيب عنه شيء، في الليلة الظلماء على حجرة سوداء نملة سوداء تسير، فيبصرها ويعلم حالها، لا تخفى عليه خافية.

ثم قال **جَلَّ جَلَالُهُ** متوعداً أهل الإجمام: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ بالتحريق والرد عن دينهم ﴿ **ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا** ﴾ من هذا الأمر العظيم، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: انظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** (١).

والله إن في هذا دلالة على عظم التوبة لأنها مكفرة للذنوب والمعاصي والسيئات، فإن من تاب إلى الله تاب الله عليه وأبدل سيئاته حسنات، كما قال **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقد أحرقوا المؤمنين وعذبوهم ونكلوا بهم، فأخبر أنهم لو تابوا تاب عليهم وارتفعت عنهم المطالبة والمؤاخذه.

﴿ **فَلَهُمْ** ﴾ أي: من مات على كفره وعناده وظلمه ﴿ **عَذَابُ جَهَنَّمَ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان، ولا سواء؛ فإنهم أحرقوا المؤمنين بنار ضعيفة ويحرقون بنار قوية تزيد عليها بتسعة وستين جزءاً، ففي حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أَنَّ النَّبِيَّ **ﷺ**، قَالَ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقَدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**» قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «**فَإِنَّهَا فَضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**» (٢).

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** ﴾ (١١) إِنَّ

بَطَشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِيٌّ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغُفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجَنَّاتِ ﴿١٧﴾ فَرَعُونَ ثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قَوْلٌ مَنجُودٌ ﴿٢١﴾ فِي لُوحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

ثم قال الله **عَزَّجَلَّ** خبراً عن حال المؤمنين في الآخرة: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ إن الذين آمنوا بالله بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم ﴿ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ التزموا العمل الصالح في أنفسهم ﴿ **لَهُمْ** ﴾ جمع جنة وهذا وعد عظيم، فلهم بساتين عظيمة، وقصور عالية رفيعة ﴿ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا** ﴾

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٣).

﴿الْأَنهَرُ﴾ أنهار الخمر واللبن والماء والعسل المصفى كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ، وَأَنْهَرٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥]،

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ هذا هو الفوز الذي ليس بعده فوز، فإن المؤمن إذا أدخل الجنة يقال له: ﴿يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ﴾، ينسى كل شيء، ينسى كل ما نزل به من ظلم وقهر وعذاب وشدة وضيق حال، ﴿هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا﴾ وهكذا الكافر إذا أغمس غمسة في النار قال الله له: ﴿يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ، لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل

عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ [النبا: ٣١] منازل يسلمون فيها من كل آفة وبليه.

ثم قال الله عَزَّجَلَّ متوعدا للكفار في كل زمن وحين: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إن بطش الله وانتقامه للمخالفين لدينه وشرعه، والمحاربين لأوليائه من رسله ومن دونهم ﴿لَشَدِيدٌ﴾ إلا أنه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظِلْمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

﴿إِنَّهُ﴾ أي: الرب عَزَّجَلَّ من قوته وقدرته ﴿هُوَ بَدِئُ﴾ الخلق من العدم ﴿وَبَعِيدُ﴾ النشأة الآخرة يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ المتجاوز العافي عن عباده المؤمنين ﴿الْوَدُودُ﴾ المحبوب من أوليائه والمحب لأوليائه، فإن الود هو صافي المحبة، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٩٠].

واقتران هذا الاسم باسم الرحيم والغفور؛ يدل على تجاوز الله عن أوليائه ومحبته لهم، فكل من تاب إلى الله وغفرت ذنوبه كان محبوباً عند الله عَزَّجَلَّ، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَكُلِّ أُمَّةٍ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَأْسِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَأَنْفَلْتُمْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ آيسَ مِنْ رَأْسِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخَطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ» (١).

ومن وده لأوليائه أنه يدافع عنهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ

لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

ومن وده لهم أنه يهديهم ويثبتهم، كما قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ

سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة: ١٦].

ومن وده لأوليائه أن يوفقهم لكل خير «فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتَ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ

الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّ» (٢).

ومن وده لأوليائه أنه يغضب لغضبهم ويرضى لرضاهم، فعن عائذ بن عمرو، أن أبا

سفيان أتى على سلمان، وصهيب، وبلال في نفر، فقالوا: وَاللَّهِ مَا أَخَذْتُ سُبُوفُ اللَّهِ مِنْ عُنُقِ

عَدُوِّ اللَّهِ مَا خَذَهَا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنْتُمْ لَوْلَنْ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ

فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ». فَأَتَاهُمْ أَبُو

بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا إِخْوَانَاهُ، أَغْضَبْتِكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي (٣).

ومن وده لأوليائه ظاهر في حركاتهم وسكناتهم، وأعظم ما يكرمون به أنهم يرزقون الرؤية إلى

وجهه يوم القيامة.

فلما أخبر عن شدة بطشه، وأخبر عن قدرته على البداية والإعادة أتى بالإخبار أنه الغفور

الودود؛ حتى لا يقع المسلم في القنوط من رحمة الله، وإنما يبطش الله عز وجل بالكافرين والمحاربين

لدينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا

﴿٥٩﴾ [الكهف: ٥٩]، وقال: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ثم وصف نفسه المقدسة بقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ أي: أن الله هو صاحب العرش، وذكره

دون غيره؛ لشرفه، فهو أعلى المخلوقات وأعظمها، وعليه استوى الرب الأعلى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو

عرش كريم عظيم واسع.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠٤).

﴿الْمَجِيدُ﴾ هذا وصف لله عَزَّجَلَّ، أي: أنه الواسع المعظم الممجّد.

وعلى قراءة: الجر في ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ أي: أن العرش واسع، وفي الأثر عن مُجَاهِدٍ، قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي الْكُرْسِيِّ، إِلَّا بِمَنْزِلَةِ حَلَقَةِ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ»^(١) فالعرش مخلوق عظيم واسع؛ وكان من دعاء المؤمن: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»^(٢). فلو كان شيئاً أثقل من العرش لذكره النبي ﷺ في هذا الموطن.

﴿فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ أي: أن الله يفعل ما يشاء وهذه صيغة مبالغة من الفعل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ، مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ، كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال: ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾^(٣) [الأنبياء: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤) [يس: ٨٢]، فيرزق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من شاء، ويمنع من شاء، وفي الحديث: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»^(٥).

ويستدل بهذه الآية أهل العلم على إثبات الصفات الفعلية لله عَزَّجَلَّ فهو يغضب، ويرضى، ويجب متى شاء، وكيف شاء، ومن شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه الآية من العموم الدال على وصف الله عَزَّجَلَّ بكل كمال، فإن العاجز عن بعض الأعمال عنده نقص بقدر عجزه، فتجد أن الإنسان يستطيع أن يفعل شيئاً، لكنه لا يستطيع أن يفعل كل ما يريد لضعفه؛ أما الله - فله المثل الأعلى - فعال لما يريد، أراد أن يهلك أمة أهلكتها، أهلك عاداً بالريح، وشمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف. وفرعون بالبحر، وقريش بالقتل، فلا يعجزه شيء، أراد أن يخلق السماوات والأراضين خلقها، ويوم القيامة يريد أن يبدل الأرض غير الأرض والسماوات يبدلها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ، وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ثم قال لمحمد ﷺ مسلماً له وواعداً له بالنصر والظفر: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ هل جاءك خبر الجنود الذين سبقوا هذه الأمة، الذين تمردوا على شرع الله وأمره، ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ذكره؛ لشدة

(١) أخرجه بن منصور (٤٢٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٦٣)، وعبد الله بن أحمد في «السنن» (٤٥٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠١٨٣)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٦)، عن جُوَيْرِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) متفق عليه، البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣)، عن الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

غطرسته إذ أنه زعم أنه الرب الأعلى ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤] وادعى أنه الإله المعبود فقصمه الله عَزَّجَلَّ، وجعله آية لمن بعده حيث أغرقه وأُصعد على مكان؛ حتى يراه الناس، كما قال تعالى: ﴿ فَأَلْوَمٌ نُّجِجِكَ بِبَدَنِكَ لِنُكُوتٍ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَنَفُلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢]، قال العلماء: السبب أن فرعون حين مات أظهر؛ حتى لا يقول الناس إنه الرب وإنما اختفى، فجعله الله آية ظاهرة لمن معه، أما ما يقوله كثير من الناس من أن جثة فرعون ما تزال موجودة الآن هذا كلام ليس عليه دليل وإنما الآية متعلقة بذلك الوقت، ﴿ وَثَمُودَ ﴾ قوم صالح الذين عقروا الناقة وكان مقرهم في حضر موت، ويمتدون إلى شمال الجزيرة.

ثم قال: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ وهذا خبرٌ من الله أن الذين كفروا مهما جاءتهم الآيات والدلائل البينات، إلا أنهم في تكذيب خبر ربهم ولدعوة رسولهم.

﴿ وَاللَّهُ مِن وَّرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ لا يفوتونه، يعلم ما هم عليه فيحفظها لهم، ويجازيهم عليها يوم القيامة وإذا أراد أن يهلكهم أهلكتهم، كما قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩] لا يستطيعون منه فرارًا، ولا يستطيعون لبطشه دفعا، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتَهُ.

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي: أن هذا القرآن الذي بين أيديكم مقروء مجيد واسع في أحكامه، وواسع في مواظبه وواسع في علومه، وممدوح ومحمود؛ لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو محفوظ وكريم.

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قيل ذكره، وقيل بأنه أيضًا مكتوب في اللوح المحفوظ الذي حُفظ عن عبث العابثين، وعن الزيادة والنقصان، فإن الله عَزَّجَلَّ لما خلق القلم قال: اكتب ما كان وما يكون إلى قيام الساعة» كما جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ فَقَالَ: الْقَدَرُ، فَجَرَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ» (١)، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٨٤٠).

مكية الجزء الثامن من سورة الطلاق آياتها ١٧

سُورَةُ الطَّلَاقِ، مَكِّيَّةٌ، وقد كان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة العشاء، وأمر معاذًا بقراءتها، وهي من وسط المفصل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَآلَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْمَلَهُمْ رُؤُودًا ۝١٧﴾

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ يقسم الله عزَّجَلَّ بالسماء المرفوعة، ﴿وَالطَّارِقِ﴾ هو النجم الذي يطرق بليل، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ معظمًا لشأنه ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ الذي يثقب بضوئه من السماء إلى الأرض، وقيل هو زحل؛ لأنه في السماء السابعة ويصل ضوءه إلى الأرض وقيل يثقب الشياطين إذا أرسل عليها، وقال عكرمة مضيء ومحرق للشياطين، وهو مفرد أضيف فيعم كل نجم يوصف بهذا الوصف، فأقسم الله عزَّجَلَّ بالسماء والنجوم الثاقبة في ضوئها، العالية في ارتفاعها، إذ أنها شاهدة على وحدانية الله عزَّجَلَّ.

أَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُغْصَى الْإِلَٰهَةُ * * * * * أَمْ كَيْفَ يَحْجَدُهُ جَاحِدٌ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكِ كِتَابَةٌ * * * * * وَتَسْكِينَةٌ أَبَدًا شَاهِدٌ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ * * * * * تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي: كل نفس من الأنفس عليها حافظ يحفظها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿لَهُ، مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، حتى إذا جاء أمر الله الذي قدره على العبد في اللوح المحفوظ خلي بين العبد وبين ما يحصل له، وقيل: عليها حافظ يحفظ أعمالها والكل صحيح، وهذا هو المقسم عليه من أن النفس المكلفة عليها حافظ لأعمالها مبين لها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كُنِينِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠-١١]. وفي هذه الآية وعيد عظيم يستفيده المؤمنون من أن أعمالهم محفوظة وأقوالهم مسطرة،

فيبادرون بالتوبة من المعصية ويلتزمون بالطاعة، ولهذا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَثِّرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ، ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١)، وَكَانَ يَقُولُ: «يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ»^(٢)، قال تعالى: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ تنبيه للإنسان على ضعف أصله وأراد الله عَزَّجَلَّ أَنْ يبين لهؤلاء المعارضين أنه لا يعجزه شيء، وأنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه وله المثل الأعلى، فلينظر كل إنسان إلى نفسه ويتفكر فيها ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥] أي: أولم يتفكروا في خلق الله عَزَّجَلَّ للسموات الواسعة وللأرض الشاسعة، فهو يقول: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ صيغته الخبر وهو أمر، كما قال تعالى: ﴿ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال تعالى أمراً بالتفكير في مخلوقاته: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾^(٣) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ^(٤) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ^(٥) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ^(٦) [الغاشية: ١٧-٢٠]، ﴿ مِمَّ ﴾ أي: مبدأ نشأته ما كان، فكان أبوه آدم من تراب، وأما خلق بقية الناس ﴿ خُلِقَ ﴾ أي: تكونت خلقته ﴿ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ وهو المني الخارج بدفق، والدفق هو الذي يميز المني عن غيره من المياه، فالمذي والودي يخرج بغير دفق، وأما المني فإنه يخرج بدفق ولذة، ويوجب الغسل، وقد قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾^(٧) [الواقعة: ٥٨].

والمني طاهر على القول الصحيح من أقوال أهل العلم؛ فمنه خَلَقَ اللهُ الأنبياء، والمرسلين، والمؤمنين، والموحدين، والنبي ﷺ ربما صلى بالثوب الذي جامع فيه أهله كما في حديث أمِّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا^(٨)، وفي حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «وَلَقَدْ رَأَيْتَنِي أَفْرَكُهُ مِنْ تَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَكًا فَيُصَلِّي فِيهِ»، وفي رواية: «وَإِنِّي لَأَحْكُهُ مِنْ تَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَابَسًا بِظُفْرِي»^(٩).

﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ ﴾ أي: هذا المني الدافق يخرج من بين صلب الرجل، أي: ظهره، ﴿ وَالتَّرَائِبِ ﴾ أي: ترائب المرأة، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: تَرَبِيَةُ الْمُرَأَةِ مَوْضِعُ الْقِلَادَةِ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: التَّرَائِبُ مَا بَيْنَ الْمُنْكِبَيْنِ إِلَى الصُّدْرِ^(١٠). وقيل: ترائب الرجل؛ لأن المرأة يقال لمكان ترائبها ثدي،

(١) أخرجه أحمد (١٢١٠٧)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٩٤٢٠)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٤٠٤).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٨)، (٢٩٠)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٥) «تفسير ابن كثير» (٣٧٥/٨).

والرجل لما لم يكن له ثدي قيل: ترائب، وكلا المعنيين صواب، فإن الجنين يأتي من اختلاط ماء الرجل بماء المرأة، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢) ﴿[الإنسان: ٢]، وقال تعالى: ﴿الزَّيْطُ نُطْفَةٌ مِنْ مَيِّ يَمْعَىٰ﴾ (٣٧) ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَلْحَقَ فَسَوَىٰ﴾ (٣٨) ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٣٩) ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ (٤٠) ﴿[القيامة: ٣٧-٤٠].

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِمْ لَقَادِرٌ﴾ هذه هو المقسوم عليه بأن الله عَزَّجَلَّ على رجوع الإنسان يوم القيامة لقادر ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣٨١) ﴿[البقرة: ٢٨١]، ويرجعهم تعالى بأجزائهم وجميع شأنهم، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ مِنْهُ، خُلِقَ وَفِيهِ يَرْكَبُ» (١)، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثُمَّ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَسْبَتُونَ كَمَا يَسْبَتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَيْلَىٰ، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجَبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يَرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢)، ثم ينفخ في الصور فإذا هم قيام ينظرون، ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى الآية قولين:

أحدهما: على رجوع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك. قاله مجاهد، وعكرمة، وغيرهما.

والقول الثاني: إنه على رجوع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة. وهذا القول قال به الضحاك، واختاره ابن جرير (٣). اهـ.

﴿يَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ فيصبح السر علانية، المؤمن يعرف بوجهه، والكافر يعرف بوجهه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ففي الدنيا قد يتزيا الإنسان بخلاف باطنه، ومع ذلك قد يفضح، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ (١٩) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرَفْنَاهُمْ بِسِيمَاهُمْ ۖ وَلَتَعْرَفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٢٠) ﴿[محمد: ٢٩-٣٠]، وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣٧٦/٨).

قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

ثم قال تعالى: ﴿فَالَهُ﴾ أي: الإنسان ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي: في نفسه فيدفع عنها ﴿وَلَا نَاصِرَ﴾ أي: من غيره، وهذا غاية الضعف، فانظر إلى الطفل الصغير الذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، يكون له من يقوم بشأنه، فإذا كبر يقوم هو بأمره، أما هذا فما له من قوة في نفسه فيدفع ولا ناصر من غيره فيرفع، بل في غاية الضعف، وغاية الذل والحقارة، وليس إلا رحمة الله للمؤمنين، ونقمة الله على الكافرين، فمن الآن اجعل لك ناصرًا؛ فإن الله نعم المولى ونعم النصير، ينصر عباده في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ [غافر: ٥١-٥٢] أما المجرم الكافر فما له من قوة ولا ناصر، بل يسحب إلى النار سحبًا، ويساق إليها سواقًا لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ وهذا قسم آخر أقسم ربنا عزَّجَلَّ بالسماء ذات الرجوع؛ أي: ذات المطر؛ وقيل السحاب الذي فيه المطر سمي بذلك لأنه يرجع بين الحين والآخر، وينزل المطر من السحاب المسخر بين السماء والأرض، وإنما أضيف إلى السماء؛ لأن كل ما علا يسمى سماء، فيرجع يرزق العباد كل عام، وقيل: المعنى أن الأعمال ترجع إلى السماء وترفع إليها، وقيل ترجع نجومها وشمسها وقمرها أي: حين غروبها وشرقها وكلها معانٍ تفيدها الآية.

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الْأَصْدَاعِ﴾ الأرض الواسعة التي تتصدع عن النباتات، وهذا قول الجمهور، وقيل: حين تتصدع القبور فتخرج من فيها، فأقسم الله بالسماء وما يرجع إليها، والأرض وما يخرج منها. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ﴾ هذا هو المقسم عليه؛ أي: أن القرآن هو قول الله وكلامه ووحيه، ﴿فَصَلِّ﴾ بين واضح، حق لا مزح فيه ولا هزل، فإذا أخبر الله بشيء فهو كائن لا محالة.

مَا قَضَى اللَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ❀ ❀ ❀ وَالشَّقِيُّ الْجُهُولُ مَنْ لَامَ حَالَهُ

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ لأنه كلام الحق سبحانه وتعالى المنزهة عن الهزل والنقص والعيب، فجاء بالقرآن مفصل موضح مبين تقام به الحجة على العباد؛ لأن الكلام الهزل قد لا يؤخذ به، لو كان هناك إنسان يهزل ويمزح تجد أن بعضهم ما يأخذ بكلامه يقول والله كنت أظن أنك تمزح، فالله عزَّجَلَّ يخبر بأن قوله فصل بين الحق والباطل، ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ بل هو الحق الواقع، ومع ذلك فإن الكفار يكذبون به.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿يَكِيدُونَ﴾ بهذا الدين وأهله ﴿كَيْدًا﴾ مكرًا كبيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُوا﴾

(١) متفق عليه، البخاري (٣١٨٦)، ومسلم (١٧٣٥).

مَكْرًا كَبَارًا ﴿٢٢﴾ [نوح: ٢٢]، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُنَبِّئُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأَنْفَال: ٣٠]، ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]، فهذا هو حالهم، مع أهل الإسلام في كل وقت وحين وإلى أن تقوم الساعة، لكن مع ذلك مكرهم وكيدهم بائر لأن الله هو المتربص بهم ولهذا قال: ﴿وَإِكْدُكَيْدًا﴾ أي: أن الكفار ومن إليهم يمكرون بالمسلمين ويكيدون المسلمين، ولكن الله عَزَّجَلَّ يكيدهم ويمكر بهم، والغالب الله عَزَّجَلَّ الذي لا يعجزه شيء، وربما أهلكهم وسلط عليهم بنفس فعلهم. فنحن نؤمن بوعد الله ووعيده، وعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين والحفظ والكلاءة، ووعد الله على الكافرين والمخالفين. والمكر والكيد من صفات المقابلة، فإن الله عَزَّجَلَّ يوصف بكل كمال وينزه عن كل نقص.

صفات ثلاثة أنواع:

❖ **الأول: صفات كمال لا تقص فيها بوجه من الوجوه:** كالسمع والبصر والقدرة، فهذه تثبت لله عَزَّجَلَّ.
❖ **الثاني: صفات نقص لا كمال فيها بوجه من الوجوه:** كالعجز، والصمم، والكسل، فهذه ينزه الله عَزَّجَلَّ عنها.

❖ **الثالث: صفات كمال من وجه ونقص من وجه:** كالكيد، والمكر، والمخادعة والاستهزاء، فهذه لا تثبت مطلقاً وإنما تثبت في حال المقابلة، ولهذا يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [١٥] **وَإِكْدُكَيْدًا**، ويقول عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأَنْفَال: ٣٠].

﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رَوْبًا﴾ يعني انتظر ما سيحصل للكافرين فإنما يمهلون ثم يكون عاقبتهم خزيًا وبوارًا، فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٢] ﴿هود: ١٠٢﴾^(١)، ودائمًا تكون العاقبة للثقوى، وقد يبتلى المؤمن ابتداءً ويُمحسون ويُجتبرون، وتُرفع درجاتهم، لكن بعد ذلك يسلط الله على الكافرين ويدمدم عليهم، فإنه لا يعجزه شيء.

والحمد لله رب العالمين



(١) متفق عليه، البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

مكية الجزء الثلاثون سُورَةُ الْأَعْلَى آياتها ١٩

سُورَةُ الْأَعْلَى، وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، وَمِنَ السَّنَةِ أَنْ الْإِمَامَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَالْجُمُعَةِ بِـ ﴿سَبِّحْ أَسْمَرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الأعلى: ١]، وَ﴿هَلْ أُنْتَكِ حَدِيثُ الْغَدَشِيَّةِ﴾ (١) [الغاشية: ١]، فَعَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِـ ﴿سَبِّحْ أَسْمَرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الأعلى: ١]، وَ﴿هَلْ أُنْتَكِ حَدِيثُ الْغَدَشِيَّةِ﴾ (١) [الغاشية: ١]، قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؛ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ (١).

فَمِنْ حَدِيثِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُوتِرُ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ، كَانَ يَقْرَأُ فِي الْأُولَى بِـ ﴿سَبِّحْ أَسْمَرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الأعلى: ١]، وَفِي الثَّانِيَةِ بِـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) [الكافرون: ١]، وَفِي الثَّلَاثَةِ بِـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) [الإخلاص: ١]، وَبَقِيَتْ قَبْلَ الرُّكُوعِ، فَإِذَا فَرَغَ، قَالَ عِنْدَ فِرَاعِهِ: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يُطِيلُ فِي آخِرِهَا (٢).

وَفِي «الصَّحِيحِينَ» أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ الْبَقْرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلِ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْتَقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ، فَقَرَأَ الْبَقْرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَرَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَأْنُ أَنْتَ؟». ثَلَاثًا، «اقْرَأْ: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا﴾ (١) [الشمس: ١] وَ: ﴿سَبِّحْ أَسْمَرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الأعلى: ١]. وَنَحْوَهَا» (٣).

وَتَبَّتْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ بِهَا فِي الظُّهْرِ فَعَنِ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ بِـ ﴿سَبِّحْ أَسْمَرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الأعلى: ١] (٤)، وَرَبِمَا قَرَأَ بِهَا فِي الْعَصْرِ.

وَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنْ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْدَمْ الْمَدِينَةَ حَتَّى قَرَأَ ﴿سَبِّحْ أَسْمَرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الأعلى: ١] (٥).

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨).

(٢) أخرجه النسائي (١٦٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٠٦)، ومسلم (٤٦٥)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه مسلم (٤٦٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣٩٢٥).

❖ ومن أسماؤها: «سَبِّح» كما جاء عن ابن عباس، إذ لم تفتح سورة في القرآن بهذا اللفظ إلا هذه السورة.

❖ ومن أسماؤها: ﴿سَبِّحْ أَسْمَرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) ﴿١﴾ كما سماها رسول الله ﷺ.

❖ ومن أسماؤها: الأعلى؛ إذ ذكر فيها اسم الله الأعلى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ أَسْمَرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (٢) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (٣) ﴿وَالَّذِي أخرجَ الْمَرْعَى﴾ (٤) ﴿فَجَعَلَهُ عِشَاءً أَحْوَى﴾ (٥) ﴿٥﴾

يقول الله عزَّجَلَّ لمحمد ﷺ: ﴿سَبِّحْ﴾، والأمر لمحمد ﷺ أمر لأتمته إلا إذا جاء الدليل بخصوصية محمد ﷺ، ومعنى ﴿سَبِّحْ﴾: نزه الله عزَّجَلَّ عن النقائص والمعائب، وكل صفة ذميمة، والله عزَّجَلَّ له المثل الأعلى، وقد سلك النبي ﷺ هذا المسلك، فكان يقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى» (١)، و«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، يتأوَّل القرآن (٢).

وما يدل على عظم تنزيه الله عزَّجَلَّ عن النقائص والمعائب أن من أساء الله عزَّجَلَّ: السلام القدوس، وقد امتدح الله عزَّجَلَّ الأنبياء إذ يسبحونه ويزهونه عن كل نقص وعيب ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١) ﴿وَلِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٢) [الصفات: ١٨٠-١٨٢]، فسبح الله نفسه منزهاً لذاته المقدسة عما ادعاه المبطلون من اتخاذ الصاحبة والولد، ثم سلم الله على الأنبياء والمرسلين؛ لأنهم نزهوا الله عزَّجَلَّ عن جميع النقائص والمعائب. فهو سبحانه له المثل الأعلى ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] أي: الوصف الأعلى، فله من كل صفة كمالها، فحياته لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، وعلمه لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، وسمعه لا يخفى عليه شيء، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ» (٣)، وبصره لا يفوته شيء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) [الشورى: ١١]، وعلمه لا يعزب عنه شيء ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٢) متفق عليه، البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤١٩٥).

مُبِينٍ ﴿ [سبأ: ٣]، وهو القيوم الذي قام بنفسه وتقوم به مخلوقاته، إذ لا قدرة لها على عيش أو حركة أو سكنه إلا بإقامته لها، وهو القدوس المنزه عن كل نقص وعيب، وهو السلام: السالم من النقص والعيب، إلى غير ذلك من الأوصاف التي وصف الله **عَزَّجَلَّ** بها نفسه.

﴿ **سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ** ﴾ قيل: سبح ربك المسمى بالأسماء، وقيل المعنى: سبح الله **عَزَّجَلَّ** بأسمائه وصفاته، إذ أن التنزيه والتسبيح قد يكون بالقلب، لكنه هنا أمر بالتسبيح باللسان ويتواطأ القلب واللسان. ﴿ **الْأَعْلَى** ﴾ هذا المعنى العظيم الذي ينبغي أن يعتقدَه كل مسلم، ومن خالف هذا الاعتقاد كان من الموافقين لعقيدة فرعون وهامان ومن سار على سيرهما.

فالله **عَزَّجَلَّ** الأعلى، عليٌّ بذاته، وعليٌّ بصفاته ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ ﴿ طه: ٥ ﴾، ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ ﴿ فاطر: ١٠ ﴾، ولهذا كان المسلمون حين يضعون جباههم - التي هي أشرف موطن في الإنسان - في الأرض، ويكونون في حال السفلى ينزهون الله **عَزَّجَلَّ** بقولهم: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، وكانوا في أسفارهم إذا صعدوا في الجبل كبروا، وإذا نزلوا سبحوا؛ تنزيها لله **عَزَّجَلَّ** عن ذلك، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**، قَالَ: «كُنَّا إِذَا صَعَدْنَا كَبْرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا» (١).

ثم وصف الله **عَزَّجَلَّ** نفسه بقوله: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى** ﴾ خلق الإنسان، والحيوان، والسموات والأراضين ومن فيها وسواها، ﴿ **فَسْوَى** ﴾ أي: أكملها وعدلها في أكمل صورة وأجسى حالة ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ ﴿ الملك: ١٤ ﴾.

﴿ **وَالَّذِي قَدَّرَ** ﴾ قدر مقادير الخلائق، فقدر آجالها ومآكلها ومشاربها وقدر منافعها وكل ما يتعلق بها ولا يمكن أن يتخلف عن مخلوق شيء مما قدره الله **عَزَّجَلَّ** وقضاه: ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا** ﴾ ﴿ الأحزاب: ٣٨ ﴾، وعن ابنِ عُمَرَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** أنه سئل النبي **ﷺ** فقيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا نَعْمَلُ أَفِي شَيْءٍ قَدْ خَلَا أَوْ مَضَى أَوْ فِي شَيْءٍ يُسْتَأْنَفُ الْآنَ؟ قَالَ: «فِي شَيْءٍ قَدْ خَلَا وَمَضَى» فَقَالَ الرَّجُلُ أَوْ بَعْضُ الْقَوْمِ: فَنَيْمِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُسَرُّونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يُسَرُّونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ» (٢).

وفي «الصحيحين» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ**، وَهُوَ

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٦).

الصَّادِقُ الْمُصْدُوقُ، قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُمِيعُ خَلْقَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضَعَّةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ» (١).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرَّمَ» (٢).

﴿فَهَدَى﴾ هداية إلى سبيل الخير، وحذره من سبيل الشر كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ

النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠: البلد)، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا

﴿٣﴾ [الإنسان: ٣]، وأعم من ذلك الهداية العامة: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ (٥٠: طه)

[طه: ٥٠]، خلق الإنسان وهداية إلى سبيل معاشته، وخلق الحيوان وهداية إلى سبيل معاشته، وبين لكل مخلوق سبيل السلامة والعطب، وهذا لا يكون إلا من الله عَزَّوَجَلَّ، ثم الهداية الأخرى وهي هداية البيان والدلالة والإرشاد، إذ أنزل الله عَزَّوَجَلَّ القرآن والسنة على محمد ﷺ؛ لهداية الناس ودلائتهم إلى الخير العظيم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢: الشورى).

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمُرْعَى﴾ أي: من أوصاف الله عَزَّوَجَلَّ أنه أخرج المرعى من جميع أصناف النبات

والزروع، فانظروا إلى ما حولنا من الصحاري والفيافي، والجبال، والقفار، تكون يابسة لا شيء فيها وإذا برنا عَزَّوَجَلَّ ينزل مطرًا أو غيثًا وإذا بالمرعى يخرج، فتأكل منه الأنعام، ويستفيد منه الإنسان.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ يخرج مخضراً نظراً ثم يصير يابساً هشياً متغيراً بعد ذلك كما أخبر الله

عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِكَلَامِ

الْعَرَبِ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْدِيمُ، وَأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمُرْعَى

أَحْوَى، أَي: أَخْضَرَ إِلَى السَّوَادِ، فَجَعَلَهُ غُثَاءً بَعْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مُحْتَمَلًا

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤).

إِلَّا أَنَّهُ عَيْرٌ صَوَابٍ؛ لِمُخَالَفَتِهِ أَقْوَالَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ (١). اهـ.

﴿ سُنُقْرُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿ وَيُسْرِكُ لِلْيَسْرَى ﴾ (٨) فَذَكَرَ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿ سِيدْرُكُمْ مِنْ يَخْفَى ﴾ (١٠) وَيَنْجِبُهَا الْأَشْقَى ﴿ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ (١٣) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿ (١٣) ﴾

ثم قال الله لنبيه مبشراً له: ﴿ سُنُقْرُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ سنقرتك القرآن فلا تنساه، فالنبي ﷺ أُمي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، فأوحى الله إليه بالوحي، فكان إذا جاءه جبريل يعالج نفسه من أجل أن يتحفظ القرآن ويجد في ذلك مشقة، فقال الله عزَّجَلَّ له: ﴿ لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَجْعَلَ بِهِ ﴾ (١٦) إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقَرَأَهُ أَنَّهُ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْجِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (١٨) ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿ (١٩) ﴾ [القيامة: ١٦-١٩] ثم إنك بعد ذلك تحدث به الناس.

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن ينسخه، كما نسي بعض السور، ونسيها بعض الصحابة رضوان الله عليهم، ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾، ويعلم ما في قلوب العباد وما يعملونه في السر والعلن، وهذا فيها ترهيب عظيم لجميع المسلمين أن يراقبوا الله عزَّجَلَّ في خلواتهم وجلواتهم وكذلك يعلم مصالح العباد وما يصلحهم ظاهراً وباطناً.

ثم يقول الله ممتناً على نبيه: ﴿ وَيُسْرِكُ لِلْيَسْرَى ﴾ منة عظيمة، رفع الله عزَّجَلَّ الأغلال والأصار عن أمة محمد، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَكِنْ يُشَادُّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَأَسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّبْحَةِ» (٢)، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: «يَسْرًا وَلَا تُعْسِرًا، وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرًا، وَتَطَاوَعًا وَلَا تَخْتَلِفًا» (٣)، وقال الله عزَّجَلَّ: ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿ فَذَكَرْ ﴾ أي: الناس وادعهم إلى دين الله عزَّجَلَّ، وعلمهم التوحيد، وحذرهم بطش الله، ورجبهم فيما عند الله، ﴿ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ قيل: معناها ذكر من كان متقبلاً للذكرى حيث ينتفع بها، وقيل المعنى: ذكر وإن لم ينتفع بها أحد؛ فإنك تؤدي الذي عليك، وقد استدل بعض أهل

(١) «تفسير ابن كثير» (٣٧٩/٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٨).

العلم بهذه الآية مع ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبعض السلف: أن الإنسان ينبغي أن يصون العلم، فلا يضعه إلا في المكان الذي يجد له قبولاً؛ حتى لا يمتهن ويزدري، والذكرى تنفع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ أي: الذي يستفيد من الذكرى هو من يخشى الله عز وجل، والخشية: هي الخوف مع التعظيم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْتَكَاثُرَ وَأَخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤]. فالله عز وجل أمرنا أن نخشاه، وأن نخافه ونراقبه فمن أراد الله له الخير في الدنيا والآخرة، رزقه خشيته.

وفي قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم، وأمر لأئمة لاسيما الدعاة وحملة القرآن وحفظة السنة، فينبغي لهم أن يتفرقوا في البلدان، وأن يقوموا في المساجد، وأن يوجهوا الناس إلى طاعة الله عز وجل، فإن الغفلة قد سيطرت على القلوب، ولم يبق مقبلاً على الله عز وجل إلا نزاع من الناس، وتأملوا المساجد فإنها في فترة من عمارها إلا في يوم الجمعة، بل إن بعضهم ربما يصلي الجمعة ولا يصلي غيرها من الصلوات، والله المستعان.

﴿وَيَنْجِتْهَا﴾ أي: لا يتنفع بالذكرى ﴿الْأَشْقَى﴾ الشقي بكفره فيشقي في الدنيا بقسوة القلب وفساد العيش وغير ذلك من المصائب التي تلحقه، ويلحقه الشقاء في القبر وعذابه فيه والشقاء في الآخرة.

﴿الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي: يوم القيامة وقيل: بأن النار الصغرى نار الدنيا، فعن سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه، وكان من أصحاب بدر، قال: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فرج علينا يوماً من بينه قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بسير، فوقف على مجلس بني عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً، علي بردة، مضطجعاً فيها بفناء أهلي، فذكر البعث والقيامة والحساب، والميزان، والجنة، والنار فقال: ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان ترى هذا كائناً؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة، ونارٌ يُجْرُونَ فيها بأعمالهم، قال: نعم، والذي يُخْلَفُ بِهِ لَوْ دَانَ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُورٍ فِي الدُّنْيَا، يُحْمَوْنَهُ ثُمَّ يَدْخُلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطْبَقُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا، قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبيُّ يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة، واليمن، قالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه، قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو حي بين أظهرنا، فآمننا به وكفر به بغياً وحسداً، فقلنا: ويحك

يَا فُلَانُ أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ: لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى. وَكَيْسَ بِهِ (١).

﴿النَّارُ الْكُبْرَى﴾ نارا كبيرة عظيمة، قعرها بعيد وحرها شديد، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجِبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَذَرُونَ مَا هَذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى أَنْتَهَى إِلَيَّ فَعَرَّهَا» (٢).

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ لا يتنعم بحياة ولا يرتاح بموت ﴿وَأَدَاؤُا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنِكُمْ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فقال الله في حق المؤمن: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٥٦) ﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٥٧) [الدخان: ٥٦-٥٧]، وفي المقابل قال في حق الكافر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٣١) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الٰذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لِنُعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٣٧) [فاطر: ٣٦-٣٧]، وهذا من الأدلة على أبدية النار وخلودها أعادنا الله منها، وهذا في حق الكافر، وأما من دخلها من أهل الإسلام فإنه يخرج منها، فعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَّا تَهُمْ إِمَاتَةٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحَمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ صَبَائِرٌ صَبَائِرٌ، فَبُثُوا عَلَىٰ أَثَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَسْتَوْنَ نَبَاتَ الْجَبَّةِ تَكُونُ فِي حِمِيلِ السَّيْلِ» (٣).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١٥) ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ (١٨) ﴿صُحُفٍ إِتْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (١٩)

ثم يقول الله ممتنًا على المؤمنين المخلصين المطيعين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ قيل زكى نفسه بركة الفطر، والمعنى العام أولى: تزكى بالطاعات والقربات، من التوحيد، والصلاة، والصيام، والحج، والقيام، وحفظ القرآن، وبر الوالدين، وصلة الأرحام وطهر نفسه من الأخلاق الرذيلة.

(١) أخرجه أحمد (١٥٨٤١)، والحديث في «الصحيح المسند» (٤٤٣) لشيخنا مقلب الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥).

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ هذا خبر من الله، وخبر الله لا يتأخر ﴿ مَن تَزَكَّى ﴾ وكان من دعاء النبي ﷺ: **«اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا»** (١).

﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ أيضًا ومن صفات المفلحين أنه يذكر اسم ربه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، سبحانه ونزهه ودعاه ورجاه، وصلى لله **عَزَّجَلَّ** لاسيما الصلوات المفروضة، وبادر أيضًا إلى النوافل والمستحبات، فكل ذلك محبوب إلى الله **عَزَّجَلَّ**.

ثم أخبر الله عن حال الناس إلا من رحم الله: ﴿ **بَلْ تُؤْمِنُونَ أَلْحِيَةَ الدُّنْيَا** ﴾ تحبون الدنيا وترغبون فيها وتقدمونها على الآخرة التي هي دار البقاء، تقدمون الفاني على الباقي، والقليل على الكثير، والشقاء على السعادة، والدنيا قد لعنها الله، عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»** (٢)، والدنيا زائلة لا تبقى، ولو بقيت للخيرين لبقيت لمحمد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، ولو بقيت للجبابرة المعرضين لبقيت لفرعون والنمرود وبختنصر ومن إليهم، ولكنها لا تبقى لأحد، فحال الناس أنهم يؤثرون الحياة الدنيا بماكلهم ومشاربهم وشهواتهم ومعاملاتهم وتجاراتهم، وقد ذكر الله الدنيا بقوله: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يهيجُ فَترثه مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال رسول الله ﷺ: **«وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ»** (٣).

﴿ **وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ أي: دار الآخرة، وهي الجنة؛ لأنها دار البقاء، فعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **«مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبَلٌ ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى سَبَابُهُ»** (٤)، خالدين فيها أبدًا يتنعمون بالنظر إلى وجه الله **عَزَّجَلَّ**، ويتنعمون بالمآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك مما خلقه الله **عَزَّجَلَّ** للمؤمنين، فعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: **«لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، كُلٌّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يَرَى مُخَّ سَاقِيهَا مِنْ وَرَاءِ حِمَمِهَا مِنَ الْحُسْنِ»** (٥).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، عَنِ الْمُسْتَوْدِ بْنِ شَدَّادٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٣٦).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٤٦)، ومسلم (٢٨٣٤).

ثم يقول: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما تقدم من وصف الله عَزَّجَلَّ وبشارة النبي ﷺ، والأمر بالتذكير ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾، وقيل: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي: قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، أي: هذا في الكتاب المنزل على من كان قبل محمد ﷺ ﴿صُفُفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ذكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَحْتَبَهُ وَهَدَانَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَعَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

﴿وَمُوسَى﴾ موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ عانى من بني إسرائيل، ودعا إلى الله عَزَّجَلَّ، وصابر

وصبر.

والحمد لله رب العالمين.



مكية الجزء الثلاثون سُورَةُ الْعَاشِيَةِ آياتها ٢٦

سُورَةُ الْعَاشِيَةِ، مكية، وفي «صحيح مسلم» عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الأعلى: ١]، وَ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) [الغاشية: ١]، قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؛ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ (١)، وَجَاءَتْ رَوَايَةٌ عِنْدَ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ: كَتَبَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ إِلَى النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَسْأَلُهُ: أَيُّ شَيْءٍ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، سِوَى سُورَةِ الْجُمُعَةِ؟ فَقَالَ: «كَانَ يَقْرَأُ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ﴾ (٢)»، وَهِيَ سُورَةٌ عَظِيمَةٌ اخْتَارَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَرَاءَتِهَا فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، وَفِي هَذَا الْمَشْهَدِ الْكَبِيرِ، تَتَوَارَدُ أَلْسِنَةُ الْأُئِمَّةِ عَلَى قَرَاءَتِهَا فِي أَغْلَبِ الْمَسَاجِدِ فِي الْعَالَمِ، وَفِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالذِّكْرِ مَا تَنْخَلَعُ بِهِ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَكُونُ دَاعِيًا لَهَا إِلَى جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَمَحْذَرًا لَهَا مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) وَوَجْهُهُ يَوْمَ مِيذِ حَشِيعَةٍ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَيْنِيَّةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) ﴿﴾

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) وَوَجْهُهُ يَوْمَ مِيذِ حَشِيعَةٍ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَيْنِيَّةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) ﴿﴾، هَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ الْمَعْذِينَ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجْهُهُ يَوْمَ مِيذِ نَاعِمَةٍ﴾ (٨) لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَوَارِكُ مَبْنُوتَةٌ (١٦) ﴿﴾، هَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَكْرَمِينَ الْمُتَعَمِّينَ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْنَدٍ﴾ (٥٥) [القمر: ٥٥].

ثم يقول: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٠) ﴿﴾، دَعْوَةٌ إِلَى النَّظَرِ إِلَى دَلَائِلِ الْوَحْدَانِيَّةِ الَّتِي

(١) برقم (٨٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (٨٧٨)، وأحمد (١٨٣٨١)، والنسائي (١٧٤٩).

تؤدي بالإنسان إلى إفراد الله **عَزَّجَلَّ** بالعبودية.

ثم قال **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** ﴿١١﴾ **لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ** ﴿١٢﴾ ﴾، وهذا تطمين للدعاة إلى الله، وترغيب لهم في الدعوة إلى الله، وليس إليهم هداية الناس. ثم قال **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ** ﴿١٣﴾ **فِعَذِّبْهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ** ﴿١٤﴾ **إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ** ﴿١٥﴾ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ** ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ ونعود إلى معانيها، يقول الله **عَزَّجَلَّ** لمحمد **ﷺ**: ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ** ﴾ ذهب جمع من المفسرين إلى أن المعنى: قد أتاك حديث الغاشية، أي: خبر الغاشية، وهو من أساء يوم القيامة على قول لأهل العلم، كما أن الله **عَزَّجَلَّ** سماها القارعة، والحاقة، والواقعة. وسميت غاشية؛ لأنها تغشى الناس، وقيل: بأنها اسم للنار وبئس القرار، سميت بالغاشية؛ لأنها تغشى الكفار بحرهما وما فيها من الخزي والبوار، نعوذ بالله من شرها، قال تعالى: ﴿ **لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ** ﴿٤١﴾ [الأعراف: ٤١]، وذكر الله الوجوه؛ لأنها أكرم ما في الإنسان، فالإنسان في هذه الدنيا يحرص على وجهه أن يشوبه شيء من الأذى، وفي ذلك اليوم يعذب الكافر ابتداءً بوجهه.

﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ** ﴾ أي: ذليلة حقيرة من حياتهم من ربهم إذ لم يمثلوا شرعه ودينه، ومن خزيهم بين العالمين، ومما يقدمون عليه من العذاب المهين، وقال ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: تخشع، ولا ينفعها عملها.

﴿ **عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ** ﴾ قال بعض أهل العلم: أن الآية في شأن الكفار الذين يعبدون الأصنام والأوثان، فيعملون في الدنيا وينصبون ويتعبون، ومع ذلك يعذبون في الآخرة، وقال بعضهم بأنها في اليهود والنصارى، وروي عن عمر ولا يثبت: أنه مر على راهب في صومعة فناداه، فلما خرج بكى عمر، فقيل له: يا أمير المؤمنين إنه ممن علمت، فقال: إنما ذكرت قول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ** ﴾ ﴿٢﴾ **عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ** ﴿٣﴾ ﴾، عاملة في الدنيا وتنصب ومع ذلك تعذب في الآخرة، وقيل بأن المعنى: أن أهل النار يعملون في النار، فيعاجون السلاسل التي يربطون بها، والحميم، وما هم فيه من العذاب الأليم، فيعملون وينصبون ويتعبون، وقيل بأنها في حق من يعصي الله **عَزَّجَلَّ** في الدنيا، عاملة في الدنيا بالمعاصي والسيئات، والكفريات، والشركيات، وناصبية في الآخرة يلحقها النصب والعذاب الأليم في النار وبئس القرار.

﴿ **تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً** ﴾ أي: نار شديدة الحر كما قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا** ﴿١١﴾ **لِلطَّغْيَانِ** ﴿١٢﴾ **مَتَابًا** ﴿١٣﴾ **لِئَلَّيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** ﴿١٤﴾ **لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا** ﴿١٥﴾ **إِلَّا لِحِمِيمًا وَغَسَّاقًا** ﴿١٦﴾ ﴾ [النبا: ٢١-٢٥].

فهذه النار يصلها الكفار، نار حامية تغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن جميع جوانبهم، أكلهم النار ولبسهم النار وشرابهم النار، نعوذ بالله من حرها وسمومها.

﴿ تَشْقَىٰ مِنْ عَيْنِ آيَةٍ ﴾ أي: انتهى حرها وغليانها فبلغت بالحر منتهاه ﴿ وَقِيلَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۗ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْ سُرَادِقُهَا ۗ وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا ۗ لَكِنْ بَمَاذَا؟ ﴾ ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴾ لما ذكر الله عَزَّجَلَّ شرابهم، وأنه الحميم، أخبر عن طعامهم وأنه الزقوم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَعَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَاَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ ۗ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ [الدخان: ٤٣-٤٨] والضرير شجرة في الحجاز يسميها أهل مكة الشبرق، كانت تأكلها الإبل إذا كانت طرية، أما إذا صارت ضريعاً لا يأكلها شيء من الدواب ولا يتفجع بها أحد من الناس؛ لأنها كثيرة الشوك والأذى.

وقيل سمي ضريع؛ لأنهم إذا أكلوه تضرعوا إلى الله عَزَّجَلَّ في رفعه عنهم، والمعنى الأول عليه جماهير العلماء: أنهم يأكلون طعاماً سيئاً في منظره، سيئاً في أكله، سيئاً في حاله ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْجُوعِ ﴾ أي: لا تسمن منه أجسامهم، ولا يذهب به جوعهم، بل يعذبون بالجوع والعطش مع ما هم فيه من العذاب الأليم، نسأل الله عَزَّجَلَّ السلامة والعافية.

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِمَهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيبةٌ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِبٌ مُبْتُونَةٌ ﴿١٦﴾

فلما بين الله جَلَّ جَلَّالَهُ حال الكافرين وصف حال المؤمنين، المكرمين، النعمين: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢] من النضارة والجمال والبهاء ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٣] بأعينها تتلذذ بالنظر إلى وجه الله، وما أعطوا شيء أحب إليهم من النظر إلى وجه الله عَزَّجَلَّ.

وهذا المعنى مذكور أيضاً في قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩] أي: حال المؤمنين، ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلِيمَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهَّقَهَا قَتْرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس: ٤٠-٤٢]، فالله عَزَّجَلَّ ذكر وجوه المؤمنين وما فيها من النعمة والجمال والبهاء،

وهذا دليل على جمال بقية أعضائهم، كما ذكر وجوه الكافرين وما فيها من الخزي والعذاب المهين، وهذا دليل على ما يلحق بقية أجسامهم.

﴿لَسَعِيهَا﴾ في الدنيا بالطاعات، ﴿رَاضِيَةً﴾ أي: بأعمالها التي عملتها في الدنيا وأوصلتها إلى مرضات الله عز وجل، وفي حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةٍ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْقَبْرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّا عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» ثَلَاثَ مَرَارٍ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالِ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا، تَزَلَّتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَفَنٌ وَحُطٌّ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ، صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ يُعْرِجَ بِرُوحِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَاهَدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى» قَالَ: «فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفَقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيِّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَتَبَهَّرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيِّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللَّهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشِّرْكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، كُنْتُ وَاللَّهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، بَطِيئًا عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: هَذَا كَانَ مَنَزَلُكَ لَوْ عَصَيْتَ اللَّهَ، أَبَدَلْتُكَ اللَّهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجَّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، فَيَقُولُ لَهُ: اسْكُنْ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالِ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غَلَاظٌ شِدَادٌ، فَاَنْتَزَعُوا رُوحَهُ، كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ الْكَثِيرُ الشَّعْبِ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِ، وَتُرْعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُعْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ لَا تُعْرِجَ رُوحَهُ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ، قَالُوا: رَبِّ فُلَانٌ بَنُ فُلَانٍ عَبْدُكَ، قَالَ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَاهَدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيِّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتُ، وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُتَبِّرُ الرَّيْحِ فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِهَوَانٍ مِنَ اللَّهِ،

وَعَذَابٍ مُّتِمِّمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشِّرْكَ اللَّهُ بِالشَّرِّ مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْحَقِيبُ، كُنْتُ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا، ثُمَّ يُقَيِّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكُمْ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةً، لَوْ ضَرَبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرْشِ النَّارِ» (١).

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ سقفها عرش الرحمن، «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» (٢).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْعَابِرَ فِي الْأَفْقِ، مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِتَمَاضِيلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ» (٣).

﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴾ وفي قراءة: ﴿ لَا يَسْمَعُ فِيهَا لَأَغِيَةً ﴾ (٤) وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا ﴾ (٥) إِلَّا قِيَلًا سَلَمًا سَلَمًا ﴿٦﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]، فهي جنة عظيمة أعدها الله للمؤمنين في ذلك اليوم العظيم لا يؤذيهم شيء لا من الزوجات، ولا الأبناء، ولا الجيران، ولا من الضوواء.

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أي: عيون سارحات وأفردت لإفادة العموم، منها ما هو من الخمر الصرف الذي لا يُسكر ويُتعم به، ومنها ما هو من العسل، ومنها ما هو من اللبن، ومنها ما هو من الماء كما قال تعالى: ﴿ مِثْلَ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِ بَيْنَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ ﴿٦﴾ [الإنسان: ٦].

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ أي بعيدة المنال، ومع ذلك يذكر العلماء أنها تدنوا من أصحابها إذا أرادوا الصعود، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ ﴿١٣﴾ [الإنسان: ١٣]. فيتعمون مع زوجاتهم وأهاليهم.

(١) أخرجه أحمد (١٨٦١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» (٤٠٩/٨).

﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ أكواب يشربون فيها الخمر، واللبن، والعسل، والماء قال تعالى: ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ [١٨]، ومعنى السلسبيل أن تروى بدون أن يسبب لك شيئاً من الشجي أو غير ذلك، وهذه الأكواب بعضها من الذهب، وبعضها من الفضة، قال تعالى: ﴿ وَأَكْوَابٌ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا وَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإنسان: ١٥-١٦].

﴿ وَمَنَارِقٌ مَّصْفُوفَةٌ ﴾ وسائد كثيرة جميلة عظيمة، كما قال جَلْجَلَةُ: ﴿ مُتَكِبِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقال: ﴿ مُتَكِبِينَ عَلَى رَقَرٍ حُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٦].

﴿ وَزَرَائِبٌ مُبْثُوثَةٌ ﴾ أي: فرش وبسط مبثوثة في الجنة، أينما شاء جلس، وأينما شاء اتكأ، لا يلحقه نصب ولا تعب، وإذا أراد الطعام والشراب جاءه كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٤]، فهم على فرشهم وتدنوا منهم فيأكلون ويشربون ويتنعمون، ثم تعود إلى أماكنها.

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾

ثم يقول ربنا داعياً إلى التأمل في آياته الكونية التي تؤدي إلى الإيثار ومعرفة الله عَزَّجَلَّ: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ ﴾ أي: هلا ينظرون بأعينهم ويفكرون بقلوبهم ﴿ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ وذكر الله الإبل؛ لأن العرب كانت تراها أعظم المخلوقات الحيوانية، ومن عظيم شأنها أن لا حيوان يحمل ثم يقوم وهو جالس إلا الإبل، ومن عظيم شأنها علو رقبته، ومن عظيم شأنها أنها تنقاد للطفل الصغير، ومن عظيم شأنها أنها تمكث الليالي والأيام لا تشرب الماء، ومن عظيم شأنها حملها للأثقال الكثيرة إلى غير ذلك، فالذي خلقها وسخرها وأعددها وأمددها هو الله عَزَّجَلَّ، فيكون داعياً إلى عبادته.

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ أي: وينظرون إلى هذه السماء العظيمة المترامية التي رفعت بغير عمد رفعها الله عَزَّجَلَّ، وهي دالة على قدرته ووحدانته، فيكون داعياً لهم إلى عبادة الله عَزَّجَلَّ وإفراده بما يجب له.

﴿ **وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ** ﴾ الجبال العظيمة التي لا تتحرك ولا تتزلزل، ثبتت بها الأراضي، وتجد الجبل العالي فإذا ما طلعت ووجدت الماء يسيل من أعلاه، فإذا بأحسن الثمار وأحسن الأشياء موجودة فيه، من الذي أنبته؟ من الذي رفعه؟ من الذي حفظه؟ هو الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

﴿ **وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ هذه الأرض الواسعة بسطها الله **عَزَّجَلَّ**، وجعل فيها المهاد والأنهار، وجعل فيها البحار، وفيها غير ذلك، أفلا يكون في ذلك دعوة إلى أفراد الله **عَزَّجَلَّ** بالعبادة؟! بلى وربي، كما قال بعضهم: **الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَآثَرُ الْأَقْدَامِ يَدُلُّ عَلَى الْمُسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَأَرْضٌ ذَاتُ فَجَاجٍ، أَلَا تَدُلُّ عَلَى اللَّطِيفِ الْحَيِّرِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَإِلَى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ** ﴾ (٢٠) **وَإِلَى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ (٢١) **وَإِلَى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾ (٢٢) [الذاريات: ٢٠-**

٢٢]، ومما يدل على ذلك ما جاء عن أنس بن مالك **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: **جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ**، قَالَ: **«صَدَقَ»**، قَالَ: **فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟** قَالَ: **«اللَّهُ»**، قَالَ: **فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟** قَالَ: **«اللَّهُ»**، قَالَ: **فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟** قَالَ: **«اللَّهُ»**، قَالَ: **فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، أَلَلَّهَ أَرْسَلَكَ؟** قَالَ: **«نَعَمْ»** (١).

ثم قال لمحمد **ﷺ**، وهو أمر لكل داعي إلى الله **جَلَّ جَلَالُهُ**: ﴿ **فَذَكِّرْ** ﴾ بخطبتك، ودعوتك، الناس بما لهم عند الله، وخوفهم ورجبهم ﴿ **إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** ﴾ ليس عليك الهداية والتوفيق، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [الفصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقال: ﴿ **فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ [فاطر: ٨]، وهذه تسلية لمحمد **ﷺ**، لأنه كان يذكر الكفار، وربما شق عليه حين يجد إعراضهم، بل ورموه بالحجارة، وطرده، وهموا بقتله، فعن جابر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُواهَا عَصَمُوا مِنِّي بِهَا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ** ﴾ (٢٢) [الغاشية: ٢١-٢٢] (٢).

فالله **عَزَّجَلَّ** هو الذي له الأمر أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وأما الداعي والمدعو فحاله كما قال

(١) أخرجه مسلم (١٢)، عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

(٢) أخرجه مسلم (٢١).

جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ فذَكَرْنا نَفْعَ الذِّكْرِ الَّذِي ﴿٩﴾ سِيَدُّكُمْ مِنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَبِجَنَّتِها الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصِلِي النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ [الأعلى: ٩-١٢].

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمُجَاهِدٌ، وَعَزْرُهُمَا: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَسْتَ بِالَّذِي تُكْرَهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ (١)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» (٢).

﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ يقول لكن من تولى عن الذكر، وكفر بالله، وحارب الله ورسوله ﷺ: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ ﴾ يوم القيامة ﴿ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ في نار وقودها النار والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يرحم من دخلها، وتكبر أجسامهم ليزدادوا عذاباً، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضُرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ، مِثْلُ أَحَدٍ وَغِلْظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثِ» (٣)، فَيُكْسُونَ وَيَلْبَسُونَ مِنَ النَّارِ، وَيَفْرَشُونَ مِنَ النَّارِ، وَيَضْرَبُونَ بِالنَّارِ، وَيَشْرَبُونَ مِنَ النَّارِ، وَيَأْكُلُونَ مِنَ النَّارِ نَعُودٌ بِاللَّهِ مِنْهَا.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ ﴾ أي: مرجعهم، فالجميع، من المؤمنين والكفار، والأبرار والفعجار إياهم إلى الله عَزَّجَلَّ، كما قال: ﴿ وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣٨١) [البقرة: ٢٨١].

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ أي: يحاسبهم الله عَزَّجَلَّ على أعمالهم ولو كانت مثاقيل الذر في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويجازون عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

والحمد لله رب العالمين



(١) «تفسير ابن كثير» (٣٨٨/٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٥١).

مكية الجزء الثلاثون سُورَةُ الْفَجْرِ آياتها ٢٠

سُورَةُ الْفَجْرِ، وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ ٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ ٥﴾
 أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ إِرَامَ دَاثِ الْعِمَادِ ٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا
 الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩﴾ وَقُرْعُونَ ذِي الْأَوْدَادِ ١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٢﴾ فَصَبَّ
 عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٤﴾

قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم الله جَلَّ جَلَالُهُ بالفجر قيل الصبح، وقيل النهار، وقيل صلاة الفجر،
 وقيل صلاة الفجر يوم عرفة وأي كان فقد أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ بالفجر؛ لأنه آية عظيمة، إن كان الصبح
 فهو آية يفلقها الله ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وإن كانت صلاة الفجر فهي صلاة مشهودة
 تشهدها ملائكة الله، قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]
 وإن كان النهار ففيه من العجائب الدالة على قدرة الله ما الله به عليم.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قيل عشر ذي الحجة، وهو أشهر الأقوال، وقيل العشر الأواخر من رمضان،
 وقيل العشر الأول من محرم، فعشر ذي الحجة فيها يوم عرفة، وهو أفضل أيام العام، وعشر
 رمضان فيها ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها صيام رمضان الذي هو فرض
 وركن من أركان الإسلام، وفي فضل يوم عشر ذي الحجة ما أخرجه البخاري عن ابن عباسٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ
 الْأَيَّامِ الْعَشْرِ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَا
 الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ، وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»^(١).

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ الشفع: قيل بنوا آدم، والوتر: هو الله، وقيل الشفع: الصلوات المشفوعة،
 والوتر الصلوات الفردية، وقيل الشفع العدد الزوجي، والوتر الواحد، وقيل غير ذلك، ذكر ابن
 كثير أكثر من سبعة أقوال عن السلف في هذه المسألة، ولا مانع أن الشفع المراد به صلاة الشفع

والوتر المراد به كذلك، أو أن الوتر هو الله **عَزَّجَلَّ**، والشفع هو ما سوى الله **عَزَّجَلَّ** أي: أن الآية عامة فأقسم الله بكل شفع وكل وتر.

﴿ **وَأَيْلٍ إِذَا يَسَّرَ** ﴾ يقسم أيضًا بالليل إذا سرى وغطى الأرض بظلامه، أو إذا ولي، لكن المعنى الأول أليق؛ لأنه أقسم بالفجر الذي هو أول النهار، ثم أقسم بالليل الذي هو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَيْلٍ إِذَا عَسَسَ ۗ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۗ (١٨)** ﴾ [التكوير: ١٧-١٨].

﴿ **هَلْ فِي ذَلِكَ** ﴾ أي: فيما ذكرت ﴿ **قَسَمَ لَّذِي هَجَرَ** ﴾ أي: قسم لصاحب اللب السليم والعقل المستقيم، ففيها آيات بينات، ظاهرات قاهرات، وتدل على إفراد الله بالخلق والملك والتدبير وتدل على إفراد الله **عَزَّجَلَّ** بالعبادة.

﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ أي: ببصرك وبصيرتك ﴿ **كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** ﴾ وهم قوم هود، كما قال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ** ﴾ [فصلت: ١٥]، وقال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقد أهلكهم الله بالريح كما قال الله **عَزَّجَلَّ** في سورة الأحقاف: ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [٢٤] ﴿ **تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ** ﴾ كذلك **بَجَرِي الْقَوْمِ الْمَجْرَمِينَ** ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]، وكان سبب ذلك ما أخرجه أحمد عن الحارث بن حسان، قال: إِنَّ عَادًا أَرْسَلُوا وَافِدَهُمْ قَيْلًا، فَتَزَلَّ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْحُمْرَ، وَتَغْنِيهِ الْجُرَادَاتَانِ، فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى جِبَالَ مُهْرَةَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ أَتِ لِأَسِيرِ أَفَادِيهِ، وَلَا لِمَرِيضٍ فَأَدَاوِيهِ، فَاسْقِ عَبْدَكَ مَا كُنْتَ سَاقِيَهُ، وَاسْقِ مُعَاوِيَةَ بْنَ بَكْرِ شَهْرًا - يَشْكُرُ لَهُ الْحُمْرَ الَّتِي شَرِبَهَا عِنْدَهُ - قَالَ: فَمَرَّتْ سَحَابَاتٌ سُودٌ فَنُودِي أَنْ خُذْهَا رَمَادًا، رَمِدًا لَا تَذَرُ مِنْ عَادٍ أَحَدًا قَالَ أَبُو وَائِلٍ: «فَبَلَّغَنِي أَنْ مَا أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ كَقَدْرِ مَا يَجْرِي فِي الْحَاتَمِ» (١).

﴿ **إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ أي: عادهم إرم، قبيلة من قبائل العرب، ذات العمد؛ لأنهم كانوا يرفعون سقف بيوتهم، وأما من ذهب إلى أن إرم ذات العمد مدينة تتحرك ولا يوجد مثلها في الأرض، وهذا يقول: رأيتها في حضرموت والثاني يقول: رأيتها في الشام، وأنها ترى في السنة مرة، هذا

كلام ليس عليه دليل.

﴿ **الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ** ﴾ لأن الله أعطاهم قوة، فكانوا يرفعون بيوتهم ويشيدونها، ويشيدون مداخلها ومخارجها، قال الله **جَلَّالَهُ: ﴿ كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَانْفِقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَانْفِقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّتِ وَعُيُونٌ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣٤].**

﴿ **وَتُمُودٌ** ﴾ أي: ألم تر ما فعل الله **جَلَّالَهُ** بشمود، وهم قوم صالح هداهم بالدلائل البينات فأبوا إلا الكفر والعناد، قال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاَسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَآخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ آهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾** ﴾ [فصلت: ١٧]، وقد أهلكهم الله **جَلَّالَهُ** بسبب عقر الناقة على ما يأتي في سورة الشمس، ﴿ **الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ** ﴾ أي: قطعوا الصخور؛ لقوتهم ولصلابة طباعهم. ﴿ **بِالْوَادِ** ﴾ وادي القرى، إذ كانوا يسكنون فيه، كما قال تعالى: ﴿ **وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾** ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

﴿ **وَفِرْعَوْنٌ** ﴾ أي: ألم تر ما فعل الله بفرعون الجبار الذي ادعى الربوبية كبرًا وعلوًا ﴿ **ذِي الْأَوْتَادِ** ﴾ صاحب الأهرامات العظام، وقيل الأوتاد: الجنود الذين ثبَّتوا ملكه، كما ثبتت الأرض بوجود الأوتاد من الجبال الرواسي عليها وهذا القول الذي عليه أهل التفسير، وقيل لأنه ضرب لامراته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت.

﴿ **الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ** ﴾ أي: كل من تقدم: عاد وتمود وفرعون ومن إليهم، كلهم وقع منهم الطغيان والتجاوز لأمر الله **عَزَّجَلَّ**، فقتلوا وظلموا وبطشوا، وأعظم الطغيان الذي وقعوا فيه، الشرك بالله **عَزَّجَلَّ**.

﴿ **فَاكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ** ﴾ الفساد الديني والخلقي، فإن أعظم الفساد أن يشرك بالله **عَزَّجَلَّ** في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ثم يليه الفساد الخلقي، حيث يرتكب الناس الزنا واللواط ويشربون الخمر وغير ذلك من المحرمات، قال الله **جَلَّالَهُ: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾** ﴾ [الروم: ٤١]، وقال: ﴿ **وَمَا**

أَصْبَحَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي: أن الله عزَّ وجلَّ أنزل عليهم رجًا من السماء وأحل عليهم عقوبة لا يردّها عن القوم المجرمين فأهلكهم بعذاب صبه عليهم صبا، فأهلك عادا بريح، وشمود بصاعقة وصيحة، وفرعون في اليم، كما قال تعالى: ﴿ فَاكْلًا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِبَآئِرٍ صَادٍ ﴾ أي: يرصد خلقه فيما يعملون فيسمع، ويبصر، ويعلم، ويرصد أعمالهم، وإنما يمهلهم كما قال جلَّ جلاله: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُهُمْ رَوْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق: ١٥-١٧].

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْتَضِنُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

ثم قال جلَّ جلاله: **خبرًا بحال الإنسان في الشدة والرخاء، والسراء والضراء، ينظر إلى ما يأتيه من خير أو شر بمنظور دنيوي لا منظور شرعي ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ ﴾** أي: جنس الإنسان **﴿ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ، فَأَكْرَمَهُ ﴾** بالولد والمال والبيت والسكن والأتباع **﴿ وَنَعَّمَهُ ﴾** في مأكله ومشربه وملبسه **﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾** يزعم أن هذا كرامه من الله له، كما قال تعالى: **﴿ وَلَئِنْ أَدَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّي لَأَن لِّي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾** [فصلت: ٥٠]، وقال تعالى: **﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾** [المؤمنون: ٥٥-٥٦] ومع أن المال لا يدل على كرامة؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وإنما المكرمة في الدين لأن الله يعطي الدين من يحب، قال تعالى: **﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾** [الحجرات: ١٣]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ»^(١).

(١) متفق عليه، البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ أي: إذا ابتلى الإنسان بقله المال، والفقر ﴿فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: ضيق عليه العطاء فإن الرزق هو العطاء ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ يزعم أن الله أهانه بذلك، وهذه نظرة الكافر لا نظرة المسلم، وأما المسلم فيعلم أن في المال بلغة، كما قال رسول الله ﷺ: ﴿نِعْمًا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ﴾^(١) ومع ذلك ليس هو بدليل كرامة، فينبغي للعبد أن يحمد الله على الهداية، وأن يسعى في تحصيلها، وأما الدنيا فليست بمقياس، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تُعَدَّلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ﴾^(٢).

وانظروا إلى حال النبي ﷺ دخل عليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد أثر الحصر في جنبه، وفارس والروم ينامون على الديباج والحري، ويلبسون الإستربق، ويشربون في آنية الذهب والفضة، فالعبرة بدين الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: ﴿كَلَّا﴾ حقًا ليس الأمر كما زعم فإن الدنيا ليست بمقياس كرامة: ﴿بَلْ لَا تُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ﴾ يقول لا تقع منكم كرامة اليتيم الذي فقد أباه ويحتاج إلى من يحوطه تربية وكفالة، وكفالتها من أعظم الأجور، فَعَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا﴾ وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا^(٣)، وظلمه يعتبر من أشد الظلم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، إكرام اليتيم طاعة، وإهانة اليتيم معصية قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾^(٤) [الضحى: ٩].

﴿وَلَا تَخْضَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: ولا تأمرون غيركم بإطعام المسكين المحتاج الفقير، فإذا كان الذي لا يأمر بإطعامهم مذموم فالذي لا يطعمهم أشد في الذم؛ فيجب على الإنسان أن يعطي ما أوجب الله عليه في ماله، من زكاة وصدقة ونحو ذلك، ويحث غيره على ذلك، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّمِّ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾^(٥) [الماعون: ١-٣] فأخبر أن هذا فعل المكذبين بالدين.

وقال أيضًا: ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ عِنْدِ ۖ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيْبٍ﴾^(٦) [ق: ٢٤-٢٥]، فالإنسان يذم بمنعه الخير بعدم أمره بالخير.

والمسكين، قيل: هو الفقير، وقيل: بينه وبين الفقير عموم وخصوص، وهو أن الفقير الذي

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٠٢)، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٠٤).

يجد مالا لا يغبنيه، والمسكين الذي لا يجد شيئا، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ الْأَكْلَةُ وَالْأَكْلَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنَى، وَيَسْتَحْيِي أَوْ لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِحْفَافًا» (١).

قال: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ ﴾ أي: المال المكتسب بالإرث وغيره ﴿ أَكَلًا لَمَّا ﴾ أكلًا شديدًا، سواء كان من حلال أو حرام، فينفقونه في كثير من أوجه الشر والفساد ﴿ وَتَحْبُونَ أَمْالًا ﴾ أي: جنس المال من الذهب والفضة، والإبل، والبقر، والرقيق، والعقار وغير ذلك ﴿ حُبًّا جَمًّا ﴾ حُبًّا عظيمًا في نفوسكم حتى تقدمونه على طاعة الله ومرضاته، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمِنْ أَرْوَاكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَعَدُوَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ ءَ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِأَنَّهُمْ ءَامَوُاكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ءَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩]، وربما بسببه أحللتهم الحرام وحرمتهم الحلال، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَإِدْمِنْ ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنْ لَهُ وَإِدْيَا آخَرَ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابَ، وَاللَّهُ يُتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ» (٢).

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِرُ الْإِنْسَانَ وَآنَى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَاثِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْتِيهِمْ تَوَافُؤُهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ يَتَأَيَّمُوا النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾

ثم يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة بقوله: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: حقًا أن هذا الذي تقدم سيرتك، وسترحلون منه إلى غيره، وذلك ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ ﴾ حين دُكَّتِ الأرض وذهبت جبالها، كما قال: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبا: ٢٠] وصارت بيضاء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد ﴿ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [١٧] يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٨﴾ [طه: ١٠٧-١٠٨].

﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ مبالغة في دكها وتغيير حالها ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ طَبَّ وَبَرَزُوا لِلَّهِ

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٤٨).

﴿الْوَجِدُ الْقَهَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقام الخلائق من قبورهم.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، وفيه إثبات صفة المجيء لله عَزَّجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية، وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٦]، ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي: وجاء معه الأملاك ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ صفوفًا كثيرة، يحيطون بال مخلوقات المحشورة.

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تجر وتقرّب من أهلها، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُومَهَا»، كما قال تعالى: ﴿وَأَزَلِفَتْ أَلْحِنَّةُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرُزَّتِ أَلْحِمِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: ٩٠-٩١].

﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ﴾ أي: في هذا اليوم يتذكر الإنسان كل الأعمال التي عملها، من تفريطه في الطاعة، وارتكابه للمعصية، وهذا كقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾﴾ [النازعات: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ لَهُ الْذَكْرَى﴾ لا تنفعه الذكرى عندئذ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]. فيتذكر كل عمل لكن لا يفيد ذلك؛ لأنه لا يستطيع أن يستعقب العمل.

﴿يَقُولُ﴾ أي: جنس الإنسان الظالم لنفسه: ﴿يَلَيْتَنِي فَدَمَّتْ لِحْيَاتِي﴾ أي: من الأعمال الصالحة التوحيد والصلاة والصيام، وجميع أنواع الطاعات والقربات، والمراد بالحياة هنا: الحياة الأبدية، يا ليتني قدمت لها ما يكون سببًا في حصولها على الوجه الأكمل، وأما الدنيا كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وعن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا أَخَّرَ» (١)، ولما فرقت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الشاة التي ذُبحت، قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَقِيَ إِلَّا كَيْفَهَا؟ قَالَ: «كُلُّهَا قَدْ بَقِيَ إِلَّا

كَتَبَهَا»^(١)، لأن الشيء المقدم عند الله عَزَّجَلَّ ينال الإنسان بركته في أخراه.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿ لا يعذب عذاب الله أحد، عذاب شديد، وخزي

عظيم أكيد، كما قال: ﴿ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدَةٍ ﴿٩﴾ ﴾ [الهمزة: ٨-٩].

﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ أي: يوثق الكافر؛ فلا يستطيع الفرار ولا تغيير الحال الذي هو عليه،

ويوثقهم بالسلاسل كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوه ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوه ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا

سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ

هَهُنَا حِمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غَسَلِينِ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٧].

﴿ يَتَأَيَّنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ هذا خطاب للنفس المؤمنة عند مفارقة الروح الجسد كما في

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا

كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالُوا: أَخْرِجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَأَنْتِ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، أَخْرِجِي

حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ»^(٢)، وكما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ

الْمُفْرِقِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ

الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْفِرِينَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزَلُ مِنَ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾

[الواقعة: ٨٨-٩٤]، واطمأنت هذه النفس بالتوحيد وبجميع أنواع الطاعة، كما قال تعالى:

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أي: بالموت فما بعده في المحشر ﴿ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾ على نفسها، وراضية بما

نالت من ربه، وفي حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ

الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ يَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟

يَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، يَقُولُ: أَلَا أُعْطَيْتُمْ

أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ يَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ يَقُولُ: أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي،

فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(٣).

﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ أي: في عباده الأخيار المصطفين من الله عَزَّجَلَّ، الذي التزموا الطاعات،

وهذه هي العبودية الخاصة المقتضية للخضوع والمحبة.

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٤٠)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٦٩)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، والسنائي (١١٣٧٨).

(٣) متفق عليه، البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

﴿وَأَدْخُلْنِي جَنَّاتٍ﴾ جنة عدن، كما قال تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْنَدٍ﴾ ﴿٥٥﴾ [القمر: ٥٥].

وهذا وعد عظيم من الله عزَّجَلَّ لعباده المؤمنين.

وأما ما يفعله بعض الناس من كتابة هذه الآية على نعش الميت فإن هذا من البدع، وكذلك

قراءتها عند التعازي، ثم إن في فعل ذلك الحكم للإنسان بالجنة، وعقيدة أهل السنة عدم الجزم

بجنة إلا لمن حكم له رسول الله ﷺ.

والحمد لله رب العالمين.



مكة

سُورَةُ الْبَلَدِ

آياتها ٢٠

سُورَةُ الْبَلَدِ، مَكَّةُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَالْوَالِدِ وَمَا وُلِدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْعَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأُ ۝٦ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ ﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ يقول أقسم بهذا البلد، وهو مكة المكرمة، وقد أقسم الله به في سورة التين ﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ ﴾ [التين: ١-٣]، فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ به؛ لعظمته، ومنزلته، فهو حرم آمن، قال تعالى: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا رِوَيْحِ الْعَدُوِّ ﴾ [سُورَةُ الْبَلَدِ، ١]، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحْرَمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يُعْصِدَ بِهَا شَجَرَةً»^(١)، كانت تُغزى البلدان إلا قريش، وكان معظمًا في جميع الأديان حتى عند أهل الجاهلية.

﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ هذا إخبار من الله عَزَّوَجَلَّ أنه سيجعل مكة حلالًا لمحمد ﷺ يقاثل فيها، وهي من البشارات بالفتح العظيم، وفعلاً دخلها النبي ﷺ حلالاً، وأحلت له ساعة من النهار، حتى قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَلَمْ يُحْرَمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يَسْفِكَ بِهَا دَمًا وَلَا يُعْصِدُ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ ازْتَخَصَ بِهَا أَحَدٌ، فَقَالَ: أُحِلَّتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ اللَّهَ أَحَلَّهَا لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَلَمْ يُحِلَّهَا لِأَحَدٍ غَيْرِي، ثُمَّ هِيَ حَرَامٌ كَحَرَمَتِهَا بِالْأَمْسِ، يَا خِرَاعَةَ: إِنَّكُمْ قَتَلْتُمْ هَذَا الْقَتِيلَ مِنْ هُدَيْلٍ وَأَنَا وَاللَّهِ عَاقِلُهُ فَمَنْ قَتَلَ بِهَا قَتِيلًا بَعْدَ هَذَا فَأَهْلُهُ بَيْنَ خَيْرَتَيْنِ: إِنْ أَحْبَبُوا قَتَلُوا، وَإِنْ أَحْبَبُوا أَخَذُوا الْأَدِيَّةَ»^(٢)، وهذه خصيصة لمحمد ﷺ وليست لغيره؛ ولذلك رد أبو شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى عمرو بن سعيد، حين استدل بأن مكة كانت حلالاً للنبي ﷺ.

﴿ وَالْوَالِدِ وَمَا وُلِدَ ﴾ قيل آدم وذريته، وهو قول مجاهد واختاره ابن كثير وقيل: أقسم الله بهم؛ لأنهم آية من آياته العظيمة، جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، ومكنهم تمكيناً عظيماً، كما قال

(١) متفق عليه، البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٨٦)، عَنْ أَبِي شُرَيْحِ الْعَدَوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٥].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: في شدة خلق حيث أن جنس الإنسان في مكابدة، يكابد وهو في بطن أمه، ثم يكابد عند خروجه منها، ثم يبدأ في المكابدة وهو يبحث عن الثدي لالتقامه، ويأتيه الجوع والمغص والحرارة، ثم إذا صار طفلاً يحبو تارة ويقوم تارة وإذا به يكابد؛ ولذلك تجد كثيراً من الأبناء هذا يكسر رأسه، وتنقطع يده، ويقع على وجهه، فإذا ما استقام أمره وقارب الاحتلام وإذا به في مكابدة، يكلف بعض أمور الخدمة، ثم يهمله شأن نفسه من الزواج وغيره، ثم تقع عليه التكاليف فيكابدوها فقل من يوفق، حتى المؤمن يكابد هذه الحياة، فيبتلى المرء على قدر دينه، وقد رأى النبي ﷺ رجلاً لا يأتيه الحمى ولا الصداع، فقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْظَرُ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلْيُنْظَرُ إِلَيَّ هَذَا»^(١).

ومكابدة الإنسان في هذه الحياة أمر ملاحظ لكل أحد، فالغني يكابد، والملك يكابد، والرجل يكابد، والمرأة تكابد، والمستقيم يكابد، والفاجر يكابد، كل في مكابدة والمعان من أعانه الله والمسلم من سلمه الله، وتصريف الإنسان على هذا الحال يدل على قدرة الملك الغلاب سبحانه وتعالى، «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(٢)، إلا أن المؤمن يستفيد من هذه المكابدة رفعا للدرجات، وتكفيراً للسيئات، والله المستعان.

﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أيظن هذا الإنسان الذي يكابد الحياة أن لن يقدر عليه أحد من الناس أو من غيرهم، يظن أنه كبير ومتعالي، ومن ذا الذي يصرعه ويقهره، بل إن الله عز وجل قادر على أن يضيق عليه، وأن يهلكه، وقادر على أن يفعل به ما شاء، كما قال تعالى: ﴿فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٣)، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ من شدة كبره وتعاليه وخطريته يقول: أنا قد أنفقت الأموال الكثيرة، ولم يقل: «يقول أنفقت ما لا لبدا»؛ لأن المال إذا كان في وجه الخير يطلق عليه النفقة والصدقة، وإذا كان في وجه الشر يطلق عليه الهلكة، فهنا يقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ أي: أهلكه في الحرام في شرب الخمر، ومعاقرة المومسات، والبطش والظلم، وليس بنافع له هذا الإهلاك، بل إنه: «لَا تَزُولُ قَدِمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟» (١).

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي: في حال إهلاكه لماله في غير أوجه الخير، أيظن أنه غير مراقب؟ بلى، مراقب من الله، ومراقب من ملائكة الله، فإن الله بكل شيء عليم، وملائكة الله تحط عليه ما يفعل ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، زد على ذلك: أن جوارحه تشهد عليه يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وفي حديث أبي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدِمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ» (٢).

﴿الَّذِي جَعَلَ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْتَهُ الْجَنَّةَ (١٠) فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) بَيْنَمَا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسَكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)﴾

ثم يقول الله عَزَّجَلَّ ممتنًا بنعمه على عباده لاسيما المعرضين الذي لم يراقبوا الله فيها: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ قيل: تشهد عليه يوم القيامة، ولتكن هذه النعمة داعية إلى شكر الله عَزَّجَلَّ، لو كنت أعمى البصر كيف يكون حالك؟ لا تعلم طريق قضاء الحاجة، ولا تستطيع أن تأتي السوق، وربما ضربت برأسك في عمود، وبرجلك في حجرة أو شوكة، فهذه نعمة جعلها الله لك، فلتستغل في طاعة الله، ومن طاعة الله أن ينظر بها إلى الحلال لا إلى الحرام ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ آبَائِهِمْ وَبَعْضُوا مِنْ أُمَّهَاتِهِمْ وَبَعْضُوا مِنْ إِخْوَانِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١١)، والبيهقي في «المدخل» (٤٩٣)، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٧).

ومن طاعة الله أن تتفكر حين تنظر بها ﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ أيضًا جعل الله له لسانًا يتكلم به بخلاف غيره من الحيوان أو الجهاد ممن هو أكبر منه حجمًا، وأشد منه قوة، ومع ذلك ليس لديه لسانًا يتكلم به ولا شفتان يغطي بها فاه من دخول الأشياء الغريبة إليه، وتستقيم بها الحروف؛ وكثير من الحروف شفوية تتحرك معها الشفة، وتمايز بينها، زد على ذلك أنها تجمل الوجه، فلو رأيت رجلًا قد أحرقت شفتاه لربما كان منظره يخيف الناظر إليه، وأنت جملك الله بهما، زد على ذلك أنه جعل لها الشارب من فوق يغطيها بشيء من الشعر، يقصر بين الحين والآخر حتى لا يطول ويؤذي، فتحفظ هذه الشفاه رطوبة الفم، إلى غير ذلك من النعم.

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أي: طريق الخير والشر، فإن النجد هو الطريق، وقيل: الثددين. والمراد بالهداية هنا: الهداية العامة، وهذا مثل قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ٣]، وقوله عز وجل: ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩]، ومثل قول الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرَهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يَخِلُّ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرَهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل: ٥-١٠]، وقوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٥٠]، فيعرف الإنسان مصالح نفسه.

ثم قال: ألا يستغل هذه النعم في اقتحام العقبة الكؤود المتعبة التي لا يصل إلى الجنة إلا باقتحامها، ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ ﴾ والاقْتِحَام: هو الدخول في الشيء بقوة، يقولون: اقتحم الجيش المدينة، إذ دخلها بقوة وبطش. ﴿ الْعَقَبَةُ ﴾ مفسرة بما بعدها، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِتْمَاهَا قَحْمَةٌ شَدِيدَةٌ فَاقْتَحِمُوهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَفَلَا سَلَكَ الطَّرِيقَ الَّتِي فِيهَا النَّجَاةُ وَالْخَيْرُ. ثُمَّ بَيَّنَّهَا فَقَالَ: ﴿ وَمَا أَدْرَبَكُمْ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةٌ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ ﴾ [البلد: ١٢-١٤] (١). اهـ.

هذا هو تفسير ﴿الْعَقَبَةَ﴾ ﴿فَكَ رَقَبَةً﴾، فعن البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ أَفْصَرْتَ الْحُطْبَةَ، لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ، أَعْتَقِ النَّسَمَةَ، وَفَكَ الرَّقَبَةَ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَيْسَتْ بَوَاحِدَةٍ؟ قَالَ: «لَا، إِنْ عِتَقَ النَّسَمَةَ أَنْ تَفْرَدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَ الرَّقَبَةَ أَنْ تُعَيِّنَ فِي عِتْقِهَا، وَالْمِنْحَةَ الْوَكُوفُ، وَالْفَيْءُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ تُطَقْ ذَلِكَ، فَاطْعِمِ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ، وَأْمُرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ تُطَقْ ذَلِكَ، فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنَ الْخَيْرِ»^(١).

وأفضل الرقاب في العتق: أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمنًا، فعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا»^(٢).

وإعتاق النفس المملوكة أجرها عظيم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرَجَهُ بِفَرْجِهِ»^(٣)، ويدخل فيها إعتاق الأسارى، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حِدِّهِمْ وَسَكِينًا وَيَنِيْمًا وَأَسِيرًا﴾^(٤) [الإنسان: ٨].
وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فُكُّوا الْعَانِي، يَعْنِي: الْأَسِيرَ»^(٥).

﴿أَوْ اطْعَمُوهُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ ومن اقتحام العقبة أيضًا إطعام الطعام في يوم المجاعة، أما في يوم الرخاء كل إنسان يطعم، طبخت قدرًا من الرز أكلت منه أنت والأبناء وزادت فضله تطعم، طبخت لحمًا وزاد فضله تطعم، لكن هذا الصنف ميز أنه يطعم في يوم ذي مسغبة، يوم الجوع الشديد، فيؤثر على نفسه وعلى أبنائه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مُجْهُودٌ، فَأَرْسَلْ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلْ إِلَى الْآخَرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوْثٌ صِبْيَانِي، قَالَ: فَعَلَّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السَّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلُ، فَقُومِي إِلَى السَّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَفَعَلُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمْ بِضَيْفِكُمْ اللَّيْلَةَ»^(٥).

(١) أخرجه أحمد (١٨٦٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٨٤).

(٣) متفق عليه، البخاري (٦٧١٥)، ومسلم (١٥٠٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٤٦).

(٥) أخرجه مسلم (٢٠٥٤).

وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحسنه بعض أهل العلم، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» (١).
وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ» (٢).

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: أطمع في مثل هذا اليوم يتيمًا تربطه بينه وبينه قرابة من رحم أو غيره. والعناية باليتيم من الأمور المهمة، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا (٣).

﴿أَوْ مَسْكِينًا﴾ أي: فقيرًا ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ كأنما ألصق بالتراب من شدة فقره، يقولون: فلان فقير متربة، أي: أنه انحط في الفقر إلى أسفل درجاته، بحيث لا يملك شيئًا عينيًا ولا غير ذلك، فإعانة من تقدم ذكره من أعظم القربات.

﴿تُرْكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِتَائِبِينَ لَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

﴿تُرْكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ هذا المطعم والمنفق في أوجه الخير ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ لأن الكافر وإن أعتق أو تصدق، وأطعم لا يقبل منه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٢٢) [الفرقان: ٢٣].

أليس عبد الله بن جدعان كان له جفنة كبيرة يحملها أربعة كل يوم يطعم بها فقراء مكة؟، ومع ذلك جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ جُدَعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمُسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» (٤)، لكن يشترط فيمن يتجاوز هذه العقبة أن يكون من الذين آمنوا، واستيقنوا بقلوبهم، وعملوا بحوارحهم، فإن الإيمان عند أهل الحق: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فيما بينهم يوصي بعضهم بعضًا بالصبر على أقدار الله، وعلى طاعة الله وعن معصية الله، فإن ذلك من أسباب تثبيتهم والله عَزَّوَجَلَّ قد وصى نبيه بالصبر في مواطن

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٤)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٠٤)، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢١٤).

﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [الزمل: ١٠].

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ تواسوا بالتراحم فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، اِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(١)، فالرحمة مطلوبة، ولا تنزع إلا من شقي، وأما المؤمن فإنه رحيم؛ ولذلك تجد رحمته في زوجه وفي أبنائه وفي أصحابه، بل وفي المجتمع، يحذر من الشرور والآثام، ويدعوهم إلى طريق الجنان.

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أي: أصحاب الجنة الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَأَصْحَابِ الْمَيْمَنِ مَا أَصْحَابِ الْمَيْمَنِ ﴾^(٢٧) في سِدْرٍ مَخْضُودٍ^(٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ^(٢٩) وَظِلِّ مَمْدُودٍ^(٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ^(٣١) وَفَكَهْفٍ عَثِيرٍ^(٣٢) لَّامْقُطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ^(٣٣) وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ^(٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً^(٣٥) جَعَلْنَهُنَّ أَجْكَارًا^(٣٦) عَرُبًا آتْرَابًا^(٣٧) لِأَصْحَابِ الْمَيْمَنِ^(٣٨) [الواقعة: ٢٧-٢٩]، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾^(٨٨) فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٍ^(٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْمَيْمَنِ^(٩٠) فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَيْمَنِ^(٩١) [الواقعة: ٨٨-٩١]، سمو بأصحاب اليمين؛ لأنهم يأخذون كتبهم بأيانهم يوم القيامة، وفي الدنيا يقدمون اليمين في كثير من شؤونهم، وكان النبي ﷺ يناول، ويأخذ، ويأكل بيمينه، كما جاء من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُعْجِبُهُ التَّيْمُنُ، فِي تَنْعَلِهِ، وَتَرْجُلِهِ، وَطُهُورِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ»^(٩٢)، فصفة اليمين صفة لأهل الإسلام، وصفة الشمال صفة لأهل الإجمام.

وبعد أن بين حال المؤمنين قال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ الذين جحدوا الآيات وكذبوا بها وردوها وأبوها وأعرضوا عنها ﴿ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أي: أصحاب الشمال، وقد قال الله جَلَّ جَلَالُهُ في وصفهم: ﴿ وَأَصْحَابِ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابِ الْمَشْأَمَةِ ﴾ [الواقعة: ٩]، ﴿ وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ ﴾^(٤١) فِي سَمُورٍ وَحَمِيرٍ^(٤٢) وَظِلِّ مِّنْ يَمُومٍ^(٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ^(٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ^(٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ^(٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيْدَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظْلَمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ^(٤٧) أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ^(٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ^(٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ^(٥٠) [الواقعة: ٤١-٥٠]، فهم أصحاب السؤم، وأصحاب الشمال في دنياهم وأخراهم،

(١) أخرجه أحمد (٦٤٩٤).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

حتى في قيامتهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا بَلِيَّ لِمَ أُوتِيَ كِتَابِي بِشِمَالِهِ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٧].

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴾ أي: أصحاب المشأمة في نار، قد أغلقت وأطبقت عليهم أبوابها، زد على ذلك أنهم في عمد ممددة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۗ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ [الهمزة: ٨-٩]، ولو تركوا على حالهم لكان عذاباً شديداً؛ ولكنهم مع ذلك يكونوا أعمدة ممددة زيادة في العذاب والحزني، والنكال، سلمنا الله وجميع المسلمين.

والحمد لله رب العالمين.



مكية

الجزء الثلاثون سُورَةُ الشَّمْسِ

آياتها ١٥

سُورَةُ الشَّمْسِ، مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ١ ﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا ﴿ ٢ ﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿ ٣ ﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿ ٤ ﴾ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴿ ٥ ﴾ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا ﴿ ٦ ﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿ ٧ ﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ ٨ ﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّهَا ﴿ ٩ ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿ ١٠ ﴾ ﴾

قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **وَالشَّمْسِ** ﴾ أقسم الله بهذا المخلوق العظيم الذي جعله الله **عَزَّجَلَّ** مضيئاً لهذا العالم الذي نحن فيه، فنستفيد من ضوئها وحرها، ومن شروقها وأفولها. والأصل أن الله **عَزَّجَلَّ** يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ تعظيماً لشأنها وبيناً لمنزلتها، وأما المخلوق فلا يجوز له الحلف إلا بالله **عَزَّجَلَّ**؛ لأن النبي **ﷺ** يقول: «مَنْ كَانَ حَالِماً فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ» (١)، وعن عبد الرحمن بن سمره **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، عن النبي **ﷺ** قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِالطَّوَاغِيتِ» (٢)، وعن سعد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: حَلَفْتُ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ**: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ انْفُتْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا، وَتَعَوَّذْ وَلَا تَعُدْ» (٣)، إلى غير ذلك من الأدلة. وقيل: بأن في الآية محذوفاً، وهو: ورب الشمس وضحاها، ورب الضحى، ورب العصر، والمعنى الأول أليق؛ لأن الأصل عدم التقدير؛ ولأن الله **عَزَّجَلَّ** فعال لما يريد.

فيقول ربنا **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿ **وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا** ﴾ قيل المراد به الضوء الذي ينبعث منها، وقيل المراد به النهار الذي يكون بسببها، أي: أقسم الله **عَزَّجَلَّ** بالشمس، وأقسم بضحاها وهو النور الذي يغطي البسيطة.

﴿ **وَالْقَمَرِ** ﴾ وأقسم بالقمر المخلوق العظيم الذي جعل فيه آيات ظاهرات بينات، به يعرف تعاقب الشهور والأعوام، وبه يعرف الحساب، ومن عجب شأنه أنه يبدأ هلالاً وينتهي بذلك، فيرتقي من مطلع إلى مطلع حتى يكتمل ليلة الرابع عشر أو الخامس عشر ثم يعود كالعرجون

(١) متفق عليه، البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦)، عن عبد الله بن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٦٢٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٩٠)، وابن ماجه (٢٠٩٧).

القديم، حتى يصير هلالاً آخر لكن من جهة المشرق، فإذا ما ذهب نوره وصعد مرة أخرى من المغرب بدأ الشهر، فيقول الله **عَزَّجَلَّ: ﴿إِذَا نَلَّهَا﴾** أي: تلاها في الظهور والخروج، وقيل تلاها؛ لأنه يكون بعدها، والذي يظهر أن المعنى الأول هو المقارب؛ لأن النهار أولاً ويتلوه الليل، والقمر يكون في الليل.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا﴾ وأقسم أيضاً بالنهار الذي جعله لمعائن الناس، كما أنه جعل الليل لسبات الناس وراحتهم، وهذا من فضله عليهم، إلا أنهم اختلفوا في قوله: **﴿وَالْقَمَرِ إِذَا نَلَّهَا﴾** هل المعنى يعود إلى الشمس؛ لأن بعض أهل العلم جعل المعنى يعود إلى الشمس في جميع هذه الآيات.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا﴾ جلاً الظلمة وغشى البسيطة بنوره، **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾** يغشى الشمس بظلمته فيذهب بضوئها، وقيل يغشى البسيطة، وهذا هو الصحيح؛ لأن الشمس ربما تكون شارقة في موطن آخر.

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أقسم بالمخلوق العظيم والجرم الكبير الذي جعله الله **عَزَّجَلَّ** سقفاً محفوظاً لهذه البسيطة، وأفرد السماء، ويدخل فيها جميع السموات، لأنها اسم جنس. حُلِّيَّ بالالف واللام، فأفاد العموم، **﴿وَمَا بَدَّلَهَا﴾** قيل: والذي بناها، والمعنى والسماء والله، الذي بناها فكانه حلف بالسماء وحلف بالذي بنى السماء، وقيل أيضاً والسماء وبنائها، أي: أنه أقسم بالسماء ذلك الجرم العظيم الذي ما بين أسفل كل سماء وأعلى مسيرة خمسمائة عام، وأقسم ببنائها، أو وأقسم بنفسه المقدسة التي بنت تلك السماوات، وهذا دليل على قدرته العظيمة، فإنه لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض وهو العلي القدير **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: وأقسم بهذه البسيطة التي نحن عليها وما فيها من الجبال والوديان والوهاد والبحار والأنهار والصحاري والقفار، **﴿وَمَا خَلَقَهَا﴾** أي: دحاها، كما قال تعالى: **﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾** (٣٠) **﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾** (٣١) [النازعات: ٣٠-٣١] وقد بسط الأرض وأعدّها؛ لمصالح العباد ومنافعهم، وهذا ظاهر جلي، فلو كانت الأرض كلها على حالة واحدة ربما ما صلحت لسكنى الناس، ولوجدوا فيها العنت والتعب؛ لكن - سبحان الله - جعل فيها الجبال، وفيها من الثمار، والمياه، والمناخ ما يصلح به حال أهلها، وخلق الأرض منبسطة، وفيها من التربة والمناخ ما يصلح به أهلها، ويقع بها خير عظيم.

ثم قال: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾** أي: أقسم بنفسٍ وما سواها وقيل المراد نفس الإنسان المكلف

أقسم الله بها؛ لعجيب شأنها، فتفكر في نفسك أيها المخلوق، كيف تكون بين الحين والآخر تارة في فرح وتارة في حزن، وتارة في سرور وتارة في غضب وتشعر بتغيرات بداخلك وأنت جالس في موطنك، ربما تشعر بشدة حال وضيق نفس، وربما تشعر بانسراح صدر وسرور حال، وربما يغضبك ما لا يغضب، ويفرحك ما لا يفرح، وربما العكس.

فأقسم الله بهذه النفس ﴿وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾ أي: والذي سواها هو الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، خلقها على هذه الهيئة العظيمة، وقيل المراد جميع الأنفس المخلوقة، أقسم الله **عَزَّجَلَّ** بجميع مخلوقاته التي لها نفس، ولولا أن الله **عَزَّجَلَّ** جعل في الإنسان نفساً لكان كالتمثال.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها وبين لها ذلك وليس فيه أن الله **عَزَّجَلَّ** يحب الشر ويرضاه، بل إنه يبغضه ويأباه، ولكن هذا كقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وكقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، فالله **عَزَّجَلَّ** خلق الناس على حالين: حال إيمان وبر وهدى، وحال إجرام وكفر وبغي. ومعنى ألهمها ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، أي: أن هذه النفس سائرة إما إلى فجور إذا عصت الله **عَزَّجَلَّ**، وإما إلى هدى وتقى إذا لازمت شرع الله **عَزَّجَلَّ**.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله **عَزَّجَلَّ** خالق كل شيء، إلا أنه خلق الخير وهو يحبه ويأمر به، وخلق الشر ولا يحبه وينهى عنه، فهذا هو المعنى، حتى لا يتبادر إلى الذهن معنى يخالف ما عليه اعتقاد أهل السنة والجماعة، فالمعنى جعل ما فيها من الفجور والتقوى، وذكر **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الفجور قبل التقى؛ لأن أكثر الناس على مخالفة لأمر الله **عَزَّجَلَّ**، وإعراض عن دين الله **عَزَّجَلَّ**، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ثم في الآية معنى عظيم: وهو أن الله هو الذي يهدي من يشاء إلى أقوم الطرق وأحسن السبل؛ فضلاً منه ومنة ورحمة، ويضل من يشاء عدلاً منه ونقمة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وفيها بيان أن نفوس البشرية تنقسم إلى قسمين: نفوس طائفة، وهي الممدوحة، ونفوس فاسدة فاسقة، وهي المذمومة. وفيها أن صلاح العبد يعود إلى صلاح نفسه، فمن كان في نفسه صالحاً كان في ظاهره صالحاً، ومن كان في نفسه فاسداً كان في ظاهره فاسداً. وبهذا تعلم أيها المسلم أنه يجب عليك أن تعالج نفسك بإخلاص العمل لله **عَزَّجَلَّ** وحسن المراقبة له، والمحبة لرسول الله **ﷺ**، ولأصحابه ولمن سار على سيره وهديه، والمحبة لكل كمال، والبغض لكل رذيلة.

فهذا أحد عشر قسماً، أقسم الله عَزَّجَلَّ بها، والجواب لها.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا ﴾ أفلح في الحياة الدنيا، من زكى نفسه بطاعة الله عَزَّجَلَّ، والفلاح هو حصول المطلوب والسلامة من المرهوب.

والمعنى الثاني: أن المفلح هو من زكاه الله عَزَّجَلَّ، وكلا المعنيين صواب، فالموفق للطاعات هو الذي يوفقه الله عَزَّجَلَّ ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور: ٢١]، وقد قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ ﴾ [الأعلى: ١٤] وفي دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٩] أي: يطهرهم من درن الذنوب والمعاصي، وفي دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّهَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»^(١).

وقوله: ﴿ قَدْ ﴾ تدل على التكثر وتدل على التحقيق وهو المراد هنا، ﴿ مَنْ زَكَّهَا ﴾ زكى النفس؛ لأن النفس إذا زكت الأعمال، وإذا فسدت فسدت الأعمال كقول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢).

﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ خاب في الدنيا وفي الآخرة ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه: ١١١] لحقته. الخيبة والخسارة.

﴿ مَنْ دَسَّهَا ﴾ أي: الذي أخملها، ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، وذلك بارتكاب المخالفات والمعاصي والسيئات، فأصبحت مخدولة سيئة غير محبوبة.

فيقول الله عَزَّجَلَّ بعد أن أقسم هذه الأيمان: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا ﴿١﴾ ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴾ وبهذا تعلم عظم شأن هذه النفس وحاجة العبد إلى مراقبة الله فيها وإلى صلاحها والنفس صلاحها بغير ما يصلح البدن، نعم هناك تعلق، لكن البدن يصلحه الطعام والشراب والنوم ونحو ذلك، والنفس تصلح بقراءة القرآن، وبذكر الملك الديان، والوقوف بين يدي الرحمن، والعمل بوحى الله عَزَّجَلَّ المنزل على النبي العدنان ﷺ.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (١٥٩٩)، عَنْ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تشرب الماء يوماً، ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥]،
﴿ وَبَيْنَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ [القمر: ٢٨] فأبوا وخالفوا هذا الأمر، ولو التزموا
الشرع لكان خيراً لهم.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ أعرضوا عن أمره،
وارتكبوا نهيهِ وزجره، كذبوا رسالته ونبوته ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ عقرها واحد، وأضاف الله العقر
إليهم جميعاً؛ لأنهم تمالؤوا، ولذلك كان العذاب عليهم جميعاً ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم ﴾
أهلكهم وغطاهم بسبب تلك المعصية العظيمة والجرم الكبير؛ بتكذيب النبي ﷺ، وتكذيب ما
أمر الله به، ومخالفة شرع الله عزَّجَلَّ ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ بسبب ذنوبهم ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ سوى تلك القرية
حيث أهلكها، فأخذتهم الصاعقة من فوقهم، والزلزلة من تحتهم، وبركوا على ركبهم يستغيثون
فلا يغاثون، كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ
وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [٦٤] فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَعُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ
وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ ﴿ ٦٥ ﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ
يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿ ٦٦ ﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِينًا
﴿ ٦٧ ﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَ إِنَّا نَعْمَدُ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدَ لَلثَمُودِ ﴿ ٦٨ ﴾ [هود: ٦٤-٦٨]، وهذا هو
بطش الله الذي لا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فزكَّ نفسك، فإن هؤلاء لم يزكوا أنفسهم فالحقهم
هذا العذاب، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ
أَلْهُونَ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ١٧ ﴾ وَبَجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿ ١٨ ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَخَافُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ تَبِعَةً؛ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ الْمَطْلُوقُ، وَالْقَاهِرُ
الذي لا يغلب. وقيل: أي: لَمْ يَخَفِ الَّذِي عَقَرَهَا عَاقِبَةَ مَا صَنَعَ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى؛ لِذَلَالَةِ
السِّيَاقِ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ (١).

دع في هذه السورة آيات بينات ودلائل واضحات، وهي مرتكزة على ثلاثة أمور:

الأول: القسم من أجل تأكيد المحلوف عليه. والقسم يكون بالله عزَّجَلَّ أو بصفة من صفاته،
هذا في حق العبد، أما في حق الله عزَّجَلَّ فله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

الثاني: أن زكاة النفس بطاعة الله وتوحيده وهي قطب رحي السعادة، وسبب الفلاح العظيم.

الثالث: قص الله عَزَّوَجَلَّ لنا ما لحق ثمود في اعتراضهم على شرع الله وأمره، فأهلكهم ودمدم عليهم، ولم يخف عاقبة ذلك الهلاك؛ لأنه القوي الذي لا يعجزه شيء، والغني الذي لا ينقصه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والحمد لله رب العالمين.



مكية

الجزء الثلاثون سُورَةُ اللَّيْلِ

آياتها ١١

سُورَةُ اللَّيْلِ، مكية، وهذه السورة من وسط المفصل، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في صلاة العشاء، وأمر بذلك معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين صلى بقومه، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَيَقْرَأُ بِهِمُ الْبَقْرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَآتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ، فَيَقْرَأُ الْبَقْرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَرَعَمَ أُنَى مُنَافِقٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«يَا مُعَاذُ، أَفَتَأْتَانِ أَنْتَ؟»**. ثَلَاثًا، **«اقْرَأْ: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا﴾ (١) ﴿الشَّمْسُ﴾ (١) وَ: ﴿سَبَّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)﴾** [الأعلى: ١]. **وَنَحْوَهَا (١)**.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَقَ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)﴾

يقول الله **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾ أقسم بالليل ﴿إِذَا يَغْشَى﴾ يغشى البسيطة بظلامه ﴿وَالنَّهَارُ﴾ أقسم بالنهار ﴿إِذَا تَجَلَّى﴾ جلى ضوءه البسيطة وأشرق واستنار.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ لها معنيان: الأول: أنه أقسم بنفسه المقدسة، فقال: والذي خلق الذكر والأنثى، الثاني: أنه أقسم بالذكر والأنثى. كما في قراءة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه كان يقرأ: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٢)﴾ [الليل: ٢]، **وَالذَّكَرُ وَالْأُنثَى (٣)**.

وإذا تأملت هذه المقسومات الثلاثة وجدت أن الله **عَزَّ وَجَلَّ** أقسم بالمتقابلات، فأقسم بالليل ويقابله النهار، وأقسم بالنهار ويقابله الليل، وأقسم بالذكر ويقابله الأنثى، وهذا عام في كل ذكر وأنثى من الحيوان.

وهنا فائدة: وهي ما جاء به دارون الملحد، وتابعه كثير من الناس بنظرية النشوء

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٦)، ومسلم (٤٦٥)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٤٢)، ومسلم (٨٢٤)، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والتطور، وهي أن الانسان كان مخلوقاً على غير هذا الحلقة، ثم تطور حتى صار قرداً، ثم تطور حتى صار إنساناً بشرياً، وهذه النظرية كفرية؛ إذ أنها تُخالف الكتاب والسنة والإجماع، فإن القرآن والسنة والإجماع قائم على أن الله خلق آدم أبا البشر عَلَيْهِ السَّلَامُ من تراب، كما قص الله عَزَّجَلَّ علينا قصته في سورة البقرة، والحجر، والإسراء، وص، والكهف، وطه، وفي غير ذلك من السور.

ثم يقول **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** مبيناً المقسم عليه: ﴿ **إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى** ﴾ أي: إن ما تعملونه يا معاشر الناس ﴿ **لَشَتَّى** ﴾ متنوع ومتفرق، فمنهم من يعمل بأعمال أهل الصلاح والخير، ومنهم من يعمل بأعمال أهل الشر والضير، وهذا كقول الله عَزَّجَلَّ ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩]، فكثير من الناس سلك سبيل الإجماع، وقليلهم الذين سلكوا سبيل أهل الإيمان. وإذا نظرت إلى من حولك تجد معنى هذه الآية: ﴿ **إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى** ﴾ في أمور الدنيا والدين، فليس كل الناس في أمور الدنيا على معنى واحد، هذا يعمل في التجارة، وهذا في الزراعة، وهذا في الصناعة، وهذا يدرس، وهذا ينام، وهذا يفعل ويفعل. وفي أمور الدين، تجد هذا يقبل على طاعة الله عَزَّجَلَّ وتوحيده، وإفراده بما يجب له، وعلى الصلاة، والصوم، والحج، وهذا عنده نوع تفريط، ويوجد أشد من ذلك، من يكفر بالله عَزَّجَلَّ، ورسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك.

ثم يبين **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** حال كل طائفة، فقال: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى** ﴾ أي: أعطى المال في سبيله، وأعطى الأعمال الصالحة التي طلبت منه، وإن كانت الآية بمنطوقها يدخل فيها إعطاء المال أولاً في أوجه الخير، فكذلك هي شاملة لكل عمل صالح، فهو عطاء تتقرب به الى الله عَزَّجَلَّ ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى** ﴾ ما وجب عليه ﴿ **وَاتَّقَى** ﴾ راقب الله عَزَّجَلَّ بفعل المأمور وترك المحذور، فإن من معاني التقوى أن تجعل بينك وبين عقاب الله عَزَّجَلَّ وقاية. ومن أعظم أسباب التقوى: الإيمان، والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ (٤) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [البقرة: ٢-٤]. وهكذا يتقي الله عَزَّجَلَّ بترك المحذور، فما نهى الله عَزَّجَلَّ عنه أجتنبه وابتعد عنه.

﴿ **وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى** ﴾ قيل: صدق بالوعد والجزاء، وقيل بالجنة، وقيل: بلا إله إلا الله، وقيل: غير ذلك، وكلها معاني مُتقاربه، بمعنى أنه صدق وعد الله للمؤمنين، بإثابتهم، ومجازاتهم الجزاء الأوفى؛ ولذلك بادر إلى العمل الصالح، والترم لا إله إلا الله قولاً، وفعلًا، واعتقادًا.

﴿ فَسَيَسِّرُهُ لِّلْيَسْرَى ﴾ أي: أن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى جزاءه في الدنيا أن ييسره الله عَزَّجَلَّ ليسرى العمل، ويرفع عنه الأغلال والآصار التي كانت على من قبلنا، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَكِنْ يُشَادُّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّبْحَةِ»^(١).

والمعنى الثاني: أنه ييسره لسلوك سبيل السيرية في قبره، فيسأل فيجيب، وعلى الصراط يمر كمر البرق أو الريح أو الخيل أو غير ذلك، ويؤمن من الفزع الأكبر، فييسره الله عَزَّجَلَّ لكل خير، والتيسير بيد الله:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى * * * فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

فما تستطيع أن تصلي إلا إذا أعانك الله، أو تتصدق أو تتكلم أو تقوم أو تقعد إلا بتيسير الله عَزَّجَلَّ، فإذا الطائع يوفقه الله، والعاصي يخذله الله.

وبعد أن ذكر صنف أهل الإيمان ثنائه بأهل الإجماع فقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾ بخل بما أوجب الله عليه، فيبخل بالزكاة المفروضة، وبالنفقات الواجبة، ويبخل على نفسه بالطاعات فلم يأت بالصلاة والصيام، وقبل ذلك التوحيد وغير ذلك مما أوجب الله عليه، واستغنى عن الله، وإن كان لا يستطيع أن يستغني عن الله في الواقع، لأن ما من مخلوق إلا وهو فقير إلى الله ﴿ يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَنَّهُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥]، ولكنه يتكبر ويتجبر، ويظهر أنه مستغني عن الله، والله هو الغني الحميد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يضره أعراض المعرضين ولا تكبر المتكبرين. ما عساك أيها الإنسان فإذا نظرت إلى من حولك أنت فرد في أسرة، في مجتمع، في دولة، أنت لا تستطيع أن تعيش إلا بمن يعينك على هذه الحياة، تحتاج إلى زوجة، وولد، ودكان، وحمام، وغرفة نوم، وسيارة، وغير ذلك، أنت فقير، فلا تستطيع أن تستغني عن الله، لكن إذا استغنى ورأى نفسه متكبر جازاه الله عَزَّجَلَّ على سوء فعله.

﴿ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ﴾ أي: كذب بالتوحيد، أو كذب بالوعد، أو كذب بالجنة، على المعاني السابقة: ﴿ فَسَيَسِّرُهُ لِّلْيَسْرَى ﴾ يجعله الله عَزَّجَلَّ في عسرٍ في جميع شأنه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤]، وبعد مماته ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤]، ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَّتْهَا الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

وكذلك تعسر عليه أعماله، فالدين يُسر والبدعة عُسر، والتوحيد يُسر والشرك عُسر، والطاعة يُسر والمعصية عُسر، لكن كثيرًا من الناس لا يفقهون، يتبعون شهواتهم وأهواهم. فإذن أمور الدين الموافقة لشرع رب العالمين مبنية على اليسرية، ومخالفة الإسلام، والسنة مبنياً على العسرية.

ومعنى ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْعَسْرِيِّ﴾ أي: يُخَذَل، ليس معنى ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يُعينه ويوفقه ويسدّد، لا، المشرك لا يوفق ولا يسدّد، والعاصي لا يوفق على معصيته ولا يسدّد، بينما المؤمن يُعان من الله؛ ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ» (١)، «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» (٢)، والمجرم يُخَذَل، ويسلط الله عليه شيطانه وهواه ونفسه، فيقع فيها وقع فيه من الضلال البعيد.

وفي هذه الآيات الإيذان بالقدر، ففي «الصححين» (٣) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا وَفِي يَدِهِ عُوذٌ يَنْكُتُ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ مَنَزَلَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلَا تَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: «لَا، اَعْمَلُوا، فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَى﴾ (٥) ﴿وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى﴾ (٦) [الليل: ٥-٦].

[٦]، إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْعَسْرِيِّ﴾ (١٠) [الليل: ١٠].

﴿وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ (١١) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ (١٢) ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ (١٣) ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٤) ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (١٥) ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (١٦) ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآتِفَى﴾ (١٧) ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (١٨) ﴿وَمَا لِاحِدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ (١٩) ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٢٠) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (٢١) ﴿

ثم يقول تعالى مبيّنًا ضعف المتكبرين: ﴿وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ أي: أيها الإنسان لا يغني عنك مالك شيئًا إذا هلكت ومت ولقيت ربك، وإنما الذي ينتفع به العبد يوم القيامة العمل الصالح إذا قبله الله عَزَّوَجَلَّ. وقبول العمل مبني على شرطين: الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والثاني: والمتابعة لرسول الله ﷺ. فانظر لنفسك أيها المسلم قبل أن تتردى، ولا تجد من يُعينك في ذلك الأمر الذي وقعت فيه، قال النبي ﷺ: «يَتَّبِعُ الْمَيْتَ ثَلَاثَةً، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ» (٤)، فإن تردى لا يبقى

(١) أخرجه أحمد (١٩٩٧)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١١٩)، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) البخاري (٤٩٤٦)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

معه، إلا العمل، إن كان صالحًا فنعم هو، وإن كان غير ذلك فبئس ما هو، نسأل الله السلامة.
﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ الذي علينا أن نهدي الناس، ونبين لهم طريق الخير من طريق الشر والضير.

هداية وأنواع:

١ - هداية التوفيق، وهذه خاصة بالله جَلَّ جَلَالُهُ، ويعطيها الله عَزَّجَلَّ للمؤمنين الموحدين الطائعين.
٢ - وهداية الدلالة والإرشاد، وهي عامة فإن الله أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ هداية الناس، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنَّا لَنَهْدِيكَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

فيقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٣] أي: البيان لطرق الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَإِنَّا لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ يقول الله عَزَّجَلَّ وإن لنا الآخرة، فنجازي المؤمنين بإحسانهم، ونجازي الكافرين بإجرامهم، فيخلد المؤمنون في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ويخلد الكافرين في نار أعدت للكافرين. وهذه الآية فيها معنى عجيب: إذا كانت الآخرة لله والأولى لله، فلماذا تكون على غير مراد الله؟!

فلو دخلت بيتك ووجدت ولدك يعمل على غير ما تُريد، ماذا سيكون خطابك له - أنا أحدثكم عن ما يقع منا جميعاً - خطابنا: هذا بيتي! لماذا تفعل فيه ما لم أذن لك؟! فهنا يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنَّا لَنَا لِلْآخِرَةِ﴾ يجازي المحسنين بأحسن الجزاء؛ والآخرة أكمل، والأولى هي ملك الله، وأرض الله، وخلق الله، فينبغي أن يكون المسلم على ما أراد الله، وإلا كان عاصياً لله متصرفاً في ملك الله بما لم يأذن الله عَزَّجَلَّ به شرعاً؛ لأن الإذن الكوني يختلف عن الإذن الشرعي، الإذن الكوني كل يفعل ما كُتب عليه في الأزل، وأما الإذن الشرعي فهو الطاعة وترك المعصية.

﴿فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلْقَوْنَ﴾ خوفكم ﴿نَارًا تَلْقَوْنَ﴾ ناراً ملتهبة مُحرقه، نسأل الله أن يجنبنا وإياكم من حرها وسمومها، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ مسكنه النار ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نُصَلِّبُ جُلُودَهُمْ بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَافًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٤-٢٦]. وهنا يقول: ﴿فَأَنْذَرْتُمْ﴾ خوفكم، والنبى ﷺ كان يقول «أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ،

أَنْذَرْتُمْ النَّارَ» حَتَّىٰ لَوْ كَانَ رَجُلٌ كَانَ فِي أَقْصَى السُّوقِ، سَمِعَهُ، وَسَمِعَ أَهْلَ السُّوقِ صَوْتَهُ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ (١). وقد أرسل الله جَلَّالَهُ الرسل بالندارة والبشارة، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ﴾ أي: بالخير والجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥] أي: من النار والعذاب.

﴿نَارًا تَلَطَّى﴾ محرقة، حرها شديد، وقعرها بعيد، ومن استغاث فيها أغيث، لكن ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، ماذا تقول في وصفها أبلغ مما وصفها الله عزَّجَل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ (٣٦) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبِّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٣٧) [فاطر: ٣٦-٣٧]. وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُم نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦) [التحریم: ٦].

ثم قال في وصف هذه النار واهلها: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي: أنه لا يسكن فيها ويخلد إلا الشقي والمراد به الكافر، وهذا كقول الله عزَّجَل: ﴿سَيَذَكَّرُ مِنْ بَحْشَى﴾ (١٠) ﴿وَيَنْجَبَهَا الْأَشْقَى﴾ (١١) الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) [الأعلى: ١٠-١٣]، وأما المسلم إذا دخلها لذنب اقترفه أو بسبب تفریطه، فإنه يخرج منها بعد ذلك، فقد جاء من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيُونَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا فَحَمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ صَبَاثِرَ صَبَاثِرٍ، فَبُثُوا عَلَىٰ أُنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَلَيْسُوا عَلَيْكُمْ، فَيَسْتَبُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ تَكُونُ فِي حِمِيلِ السَّيْلِ» (٢).

﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ أي: الأشقى هو الذي كذب بآيات الله الشرعية، وربما وقع منه التكذيب أيضًا بالآيات الكونية، لكن أغلب الناس يُؤْمِنُ أن الله هو الخالق الرزاق المالك المدبر لهذا العالم ولكنه يكفر ويكذب بآيات الله الشرعية، التي هي القرآن والسنة. ﴿وَتَوَلَّى﴾ أعرض عن الكتاب والسنة علمًا وعملاً، وكل متولي له حظه من الآية، فبعضهم يتولى تولى كليًا

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٩٩)، عَنِ النَّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥).

كالكافرين، وبعضهم يتولى توليًا جزائيًا كعصاة المسلمين، فينبغي للمسلم أن يحتاط لنفسه. ثم قال: ﴿ وَسَيَجْزِيهَا ﴾ أي: النار التي تُلْطَى، ينجو منها ﴿ الْآتَى ﴾ الذي يفعل المأمور، ويترك المحذور. فالتقوى لها حدان: الحد الأول: فعل المأمور، والثاني: ترك المحذور، قال النبي ﷺ: « مَا مَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَبِيُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّهَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةً مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ »^(١). وإذا اجتمعت مع البر: فالبر الطاعة، والتقوى ترك المعصية.

والآتى هو: ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ ينفق في سبيل الله، ليزكي نفسه، كما قال تعالى: ﴿ حُذِرْنَ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فمن معاني الزكاة أنها تزكي المال، تنميه وتصفيه، وكذلك تزكي الأنفس عن البخل، والشح، والطمع، وغير ذلك. وذكر الله المال في هذه الآيات قبل الصلاة مع أن الصلاة أؤكد في الفرض؛ لأن المجتمع المسلم في بداية إسلامه كان فقيرًا، يحتاج إلى الإعانة، ويحتاج إلى التكاتف والتعاون، ولأن الكفار كان قد انتشر عندهم الربا، والبخل وغير ذلك، فأراد الله تمييز المسلمين في سعة الإنفاق والتعاون على البر والتقوى.

وكان عطاؤه لله لا جزاء، ولهذا قال: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى ﴾ قيل هذه الآيات نزلت في شأن أبي بكر الصديق، وعليها الإجماع، أي: أنه يؤتي ماله يتزكى، يزكي نفسه، وكان إنفاقه قربة لله جَلَّ جَلَالُهُ وليس مجازاة على فضل سابق ممن أنفق عليه. وبيانه: أن بعض الناس يعطيك لأنك أحسنت إليه، ابتسمت له، أعتته، جتته إلى غير ذلك، أما هذا ينفق في سبيل الله وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ لَهُ نِعْمَةٌ، وإنما هو تقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ولذلك أنفق أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكثر من أربعين ألف دينار في اعتاق الرقيق، وفي الإنفاق على رسول الله ﷺ، حتى قال النبي ﷺ: « إِنَّ أَمَنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَأَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّةُ، لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ »^(٢).

﴿ إِلَّا أَبْنَاءَهُ وَجِوَرِيَهُ الْأَعْلَى ﴾ أي: أن الذي حمله على هذا الإنفاق أنه يرجو الله، ويخلص لله، ويأمل ثواب الله، ويلتزم أمر الله.

وفي الآية إثبات صفة الوجه لله عَزَّ وَجَلَّ، وهو من الصفات الذاتية فالله عَزَّ وَجَلَّ يقول عن

(١) متفق عليه، البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نفسه: ﴿وَبَعَثْنَا وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٣٧) [الرحمن: ٢٧]، ويقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، ويقول النبي ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١)، ويقول ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَيَّ وَجْهَكَ»^(٢).

﴿٣٨﴾ وفي الآية بيان عظم الإخلاص لله عزَّوجلَّ، فإن الإخلاص ينمي العمل ويجعله مقبولاً، والمخلص قد يُؤجر وهو لا يعمل، قال النبي ﷺ كما في حديث أبي كَبْشَةَ الْأَنْثَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ» - وذكر منهم - «وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْماً وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمَلْتُ بِعَمَلِ فَلَانٍ. فَهُوَ بَيْنَتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ»^(٣).

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أي: أن الله سيُعطيه في الآخرة ويرضيه، وهذا وعد لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ففي «الصحيحين»^(٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ فِي الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ».

مع أن الرافضة يطعنون فيه مخالفين لكتاب الله جَلَّ جَلَالُهُ، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين.

والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه مسلم (١٧٩)، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي (١٢٢٩)، عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٠٣١)، والترمذي (٢٣٢٥).

(٤) البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧)، واللفظ له.

مكية آياتها ١١

سُورَةُ الضُّحَى، مكية، وفيها معاني بليغة، وفوائد بديعة، وقد ذكر بعضهم أنه يستحب عند قراءة الضحى وما بعدها من السور إلى آخر القرآن أن يكبر، فيقول: الله أكبر ولا إله إلا الله والله أكبر، لكن هذه السنة لم تروا إلا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ، وهو من القراء كما ذكر ذلك ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ (١)**، إلا أنه ضعيف في الحديث. وسبب نزول هذه السورة ما جاء عن جندب بن عبد الله **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: احْتَبَسَ جِبْرِيلُ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عَلَى النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ: أَبْطَأَ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ فَنَزَلَتْ: ﴿ **وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)** ﴾ [الضحى: ١-٣] (٢). وقد اختلف العلماء في فترة الوحي، فقيل: عشرة أيام وقيل: خمسة عشر، وقيل: أكثر أو أقل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ **وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)** ﴾

قوله تعالى: ﴿ **وَالضُّحَى** ﴾ أقسم الله **عَزَّجَلَّ** بالنهار، وقيل: بوقت الضحى، الذي هو من طلوع الشمس إلى قبل الزوال، قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (١٨)** ﴾ [الأعراف: ٩٨]. قيل: نهارًا، فسمي النهار ببعض وقته.

﴿ **وَاللَّيْلِ** ﴾ وأقسم بالليل ﴿ **إِذَا سَجَى** ﴾ غطى البسيطة. ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى** ﴾ هذا هو المقسم عليه أن الله ﴿ **مَا وَدَّعَكَ** ﴾ أي: ما تركك ﴿ **وَمَا قَلَى** ﴾ أي: لم يبغضك، ففترة الوحي لم تكن تركًا من الله **عَزَّجَلَّ** لعبده ولا بغضًا له، وإنما لله **عَزَّجَلَّ** الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وكان في فترة الوحي تشوق من النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لما يأت بعد ذلك، وقد ثبت القول بفترة الوحي من حديث جابر في «الصحيحين» (٣)، وأما ما جاء من أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** جعل يصعد على الجبال

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨/٤٢٣).

(٢) متفق عليه، البخاري (١١٢٥)، ومسلم (١٧٩٧).

(٣) البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).

يريد أن يتردى^(١)، فهذا لفظ ضعيف ومنكر، ضعيف؛ لأنه لم يأت من طريق متصل وإنما جاء مرسلًا. ومنكر؛ لأن النبي ﷺ ما كان له أن يتخلق بأخلاق أصحاب الوسوس والأمراض النفسية الذين يعالجون أنفسهم بالانتحار والقتل، ثم إن النبي ﷺ قد أمره الله بالصبر في غير ما موطن، وهو صاحب الخلق النبيل.

ثم بشره بشاره عظيمة: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ وهذا لفظ عام في كل متأخر من أمور الدنيا وفي شأن الآخرة، ليس هو فقط أن الآخرة يا محمد خير لك من الدنيا، بل إن ما يأتي من الليالي والأيام والسنين والأعوام سيكون خيرًا لك من هذا الحال الذي أنت عليه، وفعلاً ما مر يوم على رسول الله ﷺ إلا وفيه من التمكين والعز ما لم يكن في اليوم الذي قبله، وما زال الإسلام يظهر حتى قبض النبي ﷺ وقد أمته الله عزَّجَل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقد خيره الله قبل موته بين زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده، كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢). فمن سلك سبيل النبي ﷺ يرجى له هذا. ﴿وَلِلْآخِرَةِ﴾ الأيام الأخيرة الآتية، والآخرة التي هي دار القرار ﴿خَيْرٌ لَكَ﴾ أيها المستقيم على دين الله وشرعه ﴿مِنَ الْأُولَى﴾ من الحياة الدنيا، ومما سلف من أوائل الأمور.

ثم قال مبشراً له ببشارة أخرى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وهذا أيضاً عامة في شأن الدنيا والآخرة أن الله عزَّجَل سيعطي محمداً ﷺ، ومن سار سيره واقتفى على أثره، في الدنيا، والآخرة حتى يرضى. ومن أعظم شأن الآخرة: أن الله يرضى عن عبده المؤمن رضاء لا غضب عليهم بعده: ﴿بِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تَبَيِّنْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟﴾ - ومن عظيم شأن الآخرة، أن يرى المؤمن ربه - ﴿قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّجَل﴾^(٣)، ومن عظيم ما يرضى الله به المؤمنين في الآخرة، الشرب من الحوض المورود الذي اختص الله به محمداً ﷺ، وهكذا ما يلحقه من الشفاعة، والمروء على الصراط بأمن وأمان.

وفي قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وعد الله لمن حقق التوحيد وأتى بالصلاة

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٢)، وأحمد (٢٥٩٥٩)، وفيه «وَفَتَرَ الْوَحْيَ فَبَدَأَ حَتَّى حَزَنَ النَّبِيُّ ﷺ، فِيمَا بَلَّغْنَا، حُزْنَا غَدًا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَبْرُدَى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ»، وهو من بلاغات الزهري.

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٨١)، عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «مَا سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ: لَا» (١).

ثم أمره الله بعد أن ذكر له منته عليه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ كما كنت فقيراً فأواك فأياك أن تقهر اليتيم بقول أو فعل؛ لأن اليتيم يحتاج إلى مزيد رعاية وعناية ورفق.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ كما كنت فقيراً فأغناك الله وجاءك السائل فأياك أن تنهره بالطرد ونحوه.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: كما أنعم الله عليك حدث بنعمة الله، كساك ترى نعمة الله عليك، وسع عليك في الرزق يرى أثر نعمة الله عليك بالتوسيع على أبنائك وعلى أهلك، وبالإنفاق في أوجه الخير، وبالتحدث بنعمة الله عزَّجَلَّ عليك، وفي حديث مالك بن نضلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلِيَّ أَطْمَارًا، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مَالٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «مَنْ أَيْ الْمَالِ؟» قُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ، قَدْ آتَانِي اللَّهُ عَزَّجَلَّ مِنَ الشَّاءِ، وَالْإِبِلِ، قَالَ: «فَلْتُرِ نِعْمَ اللَّهِ، وَكِرَامَتُهُ عَلَيْكَ» (٢).

والحمد لله رب العالمين.



(١) متفق عليه، البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٨٧)، والنسائي (٩٤٨٥).

مَكِّيَّةٌ ۝ الْجُزْءُ الْبَلَاغِيُّ سُورَةُ الشَّرْحِ ۝ آيَاتُهَا ٨

سُورَةُ الشَّرْحِ، مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ ﴾

يقول الله لمحمد ﷺ: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ أي: قد شرحنا لك صدرك، شرحه بالتوحيد والوحي والعلم والإيمان، وفرزه الطمأنينة والسكينة، وهدوء الحال والمآل، وهذا كقول الله عز وجل: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢]. وانشراح الصدر يتحصل بالتوحيد والإسلام وبطلب العلم وبذكر الله ﴿ أَلَا بِنُكْرٍ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقيل: أن المعنى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ أي: ألم نشق لك صدرك في ليلة الإسراء، فعن أنس رضي الله عنه، «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَلْعَبُ مَعَ الصَّبِيَّانِ، فَأَتَاهُ آتٍ فَأَخَذَهُ فَشَقَّ بَطْنَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً فَرَمَىٰ بِهَا، وَقَالَ: هَذِهِ نَصِيبُ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ مَاءِ رَمَزَمَ، ثُمَّ لَامَهُ فَأَقْبَلَ الصَّبِيَّانِ إِلَىٰ ظَهْرِهِ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَاسْتَقْبَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ انْتَفَعَ لَوْنُهُ» قَالَ أَنَسٌ: «فَلَقَدْ كُنَّا نَرَىٰ أَثَرَ الْمُخِيطِ فِي صَدْرِهِ»^(١)، وقد شُقَّ صدر النبي ﷺ مرتين مرة في صغره وهو يلعب مع الغلمان وشق صدره ليلة المعراج، والصحيح أن المعنى الأول هو الأكمل.

وفي هذا دليل على أن من أعظم النعم انشراح الصدر؛ فإن كثيراً من الناس إذا ضاقت صدورهم ضعف إيمانهم ولحقهم الحرج، وكان من دعاء موسى عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه: ٢٥-٢٨]، فكم من إنسان لم يعرف السنة والتوحيد؛ بسبب ما على صدره من الران الذي يغطي الصدر بكثرة الذنوب والمعاصي نسأل الله السلامة، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين: ١٤]، ويُزيل هذا الران الاستغفار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٢١).

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبُهُ ذَاكَ الرَّأْيَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي الْقُرْآنِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] (١).

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ أي: كفرنا عنك سيئاتك وما لحقك، وهذا كقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢) [الفتح: ١-٢].

﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أن الذنوب والمعاصي كالحمل الشديد على الإنسان، لاسيما يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٣٥) [النحل: ٢٥]. فنب إلى الله أيها المسلم قبل أن تتحمل هذه الأوزار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ؛ لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ؛ لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا نُعَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ؛ لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيْحٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ؛ لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ؛ لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ» (٣).

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ من أن الله لا يذكر إلا وذكر معه محمد ﷺ، لا سيما في الشهادة عند دخول الإسلام، وعند الأذان. فمن رفع ذكر محمد ﷺ أنه يحبه كل مسلم، ويصلي عليه كل مسلم، بل إن كثيرًا من الكفار يعظمونه لما فتح الله جلاله عليه وإنما منعهم من الاستجابة إما الكبر أو الحسد، أو غير ذلك، فهذه فضائل رسول الله ﷺ تتلى عليك أيها المسلم؛ لتعلم حقه، وتؤديه على الوجه الذي شرعه الله عَزَّجَلَّ من غير غلو، فإن النبي ﷺ سمع جارية

(١) أخرجه أحمد (٧٩٥٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).

تقول: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ - أنكر عليها ذلك - وَقَالَ ﷺ: «لَا تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ»^(١)، وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطَرْتُ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»^(٢)، ولما قالوا: يَا سَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدَنَا، وَيَا حَيْرَنَا، وَابْنَ حَيْرِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِينَكُمْ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ، مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللَّهُ»^(٣). فإذا كان هذا حال النبي ﷺ، فكيف بمن يدعو العيدروس، والهادي، والجبرتي، وابن العجيل، وابن علوان، وغير ذلك من القبور التي اتخذت أوثاناً تدعى من دون الله عزَّ وجلَّ، فالله رفع ذكر محمد ﷺ، ومع ذلك أخبر أنه بشر لا ينفع ولا يضر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ثم قال الله عزَّ وجلَّ مبشراً لجميع المؤمنين: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [٥] إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿﴾ ذكر الله عزَّ وجلَّ عسراً وذكر يسرين، فما من عسر إلا ويعقبه يسران، وقد قال النبي ﷺ: «وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(٤)، فمهما ضاقت بك فانتظر فرج الله ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٨٧] ﴿﴾ [يوسف: ٨٧]، وكما قيل:

وَكَرْبٌ نَازِلَةٌ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى * * * ذَرَعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
كَمُلْتَ فَلَمَّا اسْتَحَكَمْتَ حَلَقَائِهَا * * * فُرَجَتْ وَكُنَّ يَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

وقيل:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ * * * يَكُونُ وَرَاءَهُ فَارِجٌ قَرِيبُ

وقيل:

دَعِ الْمَقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَعْتَابِهَا * * * وَلَا تَبْتَئَنَّ إِلَّا خَالِي الْبَالِ
مَا بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهِهَا * * * يُغَيِّرُ اللَّهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [٧] ﴿﴾ أي: إذا فرغت من جميع أعمالك الدنيوية فانصب إلى عبادة ربك،

(١) أخرجه البخاري (٤٠١)، عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ مُعَوِّذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٥٢٩)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والصلاة. فإذا فرغت من عملك فانصب إلى ربك، وقم بين يديه، شاكرًا لنعمه عليك، متضرعًا متذللًا متخشعًا، رزقك، أعطاك، وحفظك، وكساک، وأطعمك، إلى غير ذلك، فإذا فرغت فانصب. وقيل المعنى: فإذا فرغت من عبادة فانصب إلى عبادة أخرى.

﴿وَالِى رِبِكَ فَارْغَبْ﴾ أي: كن راغبًا فيما عند الله عزَّ وجلَّ، فإن الرغبة عبادة جليلة ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. والآية دالة على فضيلة الدعاء، فإن من أعظم طرق الرغبة وإظهار الفقر هو التذلل بين يدي الله بدعائه ورجائه، في تفريج الهموم، وقضاء الديون، وصلاح الأبناء، وحصول الخير العظيم.

والحمد لله رب العالمين.



مكية الجزء الثلاثين سورة التين آياتها ٨

سُورَةُ التِّينِ ، مَكِّيَّةٌ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ ١ ﴿ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴾ ٢ ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ ٣ ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ٤ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ٥ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ٦ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴾ ٧ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ ٨ ﴿

قال تعالى: ﴿ وَاللَّيْنِ ﴾ أقسم الله عَزَّجَلَّ بالتين، وهو الشجرة المعروفة التي تسمى في بعض البلدان: بالبلس التركي، ومن عجيب شأنها أنه لا نوى فيها صلب، ويمكن أن تُدخِر، وهي طعام وعلاج.

﴿ وَالزَّيْتُونِ ﴾ وهو الشجرة المعروفة، وأصل زراعتها في الشام، وهي شجرة مباركة، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَشَجَرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبِغٍ لَلْأَكْلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقال بعض أهل العلم: بأن «التين والزيتون» المراد بها دمشق، وقيل: بيت المقدس، وقيل: جبل يقال له التين والزيتون، والمعنى الأول أصح.

﴿ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴾ جبل الطور الذي أوحى الله فيه إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنبوة والرسالة. والطور: هو كل جبل مغطى بالشجر.

﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ أي: مكة التي حرمها الله عَزَّجَلَّ، وأمنها شرعاً، وفي هذا القسم إقسام من الله عَزَّجَلَّ بثلاثة بلدان، كان في كل بلد منها رسول من أولي العزم من الرسل:

❖ الأول في قوله: ﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴾، إقسام ببلد الشام وبيت المقدس، وهو المكان الذي

بعث فيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❖ الثاني في قوله: ﴿ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴾ إقسام بالجبل الذي أوحى الله فيه إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❖ **الثالث في قوله:** ﴿وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ﴾ هو المكان الذي أوحى الله فيه إلى محمد ﷺ.

وهؤلاء الرسل هم أولوا العزم من الرسل، الذين قال الله عنهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَاؤُا

الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهم: محمد ﷺ، وهو أفضلهم، ويليهِ في الفضل إبراهيم

عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويليها في الفضل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم عيسى ونوح عليهم السلام، والله أعلم.

واستدل العلماء على أنهم المقصودون بالآية بقوله: ﴿وَلِإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ

وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه أن الله عَزَّجَلَّ خلق هذا الإنسان في

أكمل هيئة وأحسن صفة، ولو تأملتم جميع الحيوان لرأيتم أنه يعجز عن تغطية سوءته إلا

الإنسان؛ فإن الله عَزَّجَلَّ أكرمه بتغطية عورته، وأكرمه بلسان يفصح به عما في مكنونه، وأكرمه

أن جعل له السمع والبصر والفؤاد، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا

تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وحملهم في البر والبحر بخلاف غيره ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ﴾

[الإسراء: ٧٠]، وميزه بالعقل دون سواه من الحيوان، وهذه مكرمة عظيمة، إلى غير ذلك من

الميزات التي جعلها الله عَزَّجَلَّ لهذا المخلوق المكلف، فخلقه في أكمل هيئة وصفة.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ فأسفل سافلين الصحيح أنها النار فرده الله إليها، وبئس القرار، ولم

يسلم من العودة إلى أسفل السافلين إلا خالص المؤمنين، ففي حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي

قِصَّةِ الْفَاجِرِ وَالْكَافِرِ «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ

طَرَحًا»^(١)، فبعد أن كان معظمًا في الدنيا مبعجلًا محترمًا صار في أسفل سافلين، عن عبد الله بن

عمر وبن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الدَّرِّ فِي صُورِ

النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُوكْسٌ، فَتَعْلُوهُمْ نَارُ

الْأَنْبِيَاءِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ؛ عَصَاةِ أَهْلِ النَّارِ»^(٢). قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَفَقِّحِينَ فِي الدَّرَكِ

الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، أي: معينًا وظهرًا.

وقيل: ﴿رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: إلى أرذل العمر، لكن هذا القول لا يستقيم؛ لأن كثيرًا

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٧٧).

من المؤمنين يصابون بأرذل العمر، وربما وقع لهم الهرم وعادوا إلى ضعف الحال، ويرميهم الأطفال بالبعر، ويضحك عليهم النساء والولدان.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: استثنى الذين أقرؤا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، واستجابوا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ وأمر رسوله ﷺ.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ اعتقدوا الإيمان وبادروا إلى العمل، وهذا دليل لمذهب أهل الحق في دخول الأعمال في مسمى الإيمان، فالصلاة، والحج، والزكاة، وجميع أنواع البر من الإيمان ﴿لَيْسَ أَلْبَرُ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]، فالمؤمن المبادر بالعمل الصالح حياته طيبة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لهم أجر غير منقطع، مستمر كقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ [الرعد: ٣٥]، وقوله: ﴿لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ ﴿٣٣﴾ [الواقعة: ٣٣]، وقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥]، فأكرم نفسك أيها المؤمن بامثال أمر الله عَزَّوَجَلَّ حتى تكون من هذا الصنف ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [يونس: ٦٢]. ولو كان أجرهم مقطوع لوقع عليهم الخوف والحزن من زوال هذا النعيم، لكن كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٧٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]، وهذا الأجر هو فضل من الله عَزَّوَجَلَّ سببه العمل فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني تقول: أنا مؤمن بلسانك وأنت مفرط في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ومضيع لحقه أو تقول: الإيمان في القلب وأنت مضيع لحق الله عَزَّوَجَلَّ، بل الإيمان في القلب وفي اللسان وفي الجوارح.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ﴾ أي: أيها الإنسان المعرض المكذب باليوم الآخر ما الذي يكذبك

بالجزاء؛ لأن الدين هو الجزاء، وقال بعضهم: أن الخطاب لمحمد، وهذا قول ضعيف جدا؛ فإن النبي ﷺ من المقرين بالبعث والنشور، والمحققين للإيمان بالله وما يتعلق بذلك على أكمل الوجوه، وما نحن إلا متبعون له مقتفون لأثره، ولكن هذا خطاب للمعرضين. وما يحملك على التكذيب بالجزاء والبعث بعد الموت مع أن الله هو الذي خلقك من العدم: ﴿الَّذِي كَفَّكَ مِنْ مِثْيَ يَوْمِئِذٍ ۖ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ ﴿٣٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۗ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۗ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٧-٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۗ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۗ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۗ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ أليس الله هو الحاكم الحكيم، الذي يقضي ويفعل ما يشاء، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، ومن حكمته: أن يعلي درجات المؤمنين الموحدين، وأن يذل المشركين والمنذدين، ومن حكمته: أن يجازي المؤمن بإحسانه، ويضاعف له المثوبة كرماً وفضلاً منه، ويجازي الكافر بأنه يرده إلى أسفل السافلين؛ لأنه رضي بذلك حين أبي أن يكون عبداً لله عزَّوجلَّ وكان عبداً لغير الله عزَّوجلَّ، فرده الله الى السفلى المطلق الذي لا يمكن أن يخرج منه إلى غيره، وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ وَالتَّيْنِ وَالتَّيْتُونَ، فَانْتَهَىٰ إِلَىٰ آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨﴾﴾ [التين: ٨]، فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿١﴾﴾ [القيامة: ١]، فَانْتَهَىٰ إِلَىٰ ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٤٠]، فليقل: بلى، ومن قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ [المرسلات: ١]، فبلغ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات: ٥٠]، فليقل: آمناً بالله، قَالَ إِسْمَاعِيلُ: دَهَبَتْ أُعِيدُ عَلَى الرَّجُلِ الْأَعْرَابِيِّ، وَأَنْظُرْ لَعَلَّهُ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، أَتَظُنُّ أَنِّي لَمْ أَحْفَظْهُ، لَقَدْ حَجَجْتُ سِتِينَ حَجَّةً، مَا مِنْهَا حَجَّةٌ إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُ الْبَعِيرَ الَّذِي حَجَجْتُ عَلَيْهِ (١)، فهو حديث لا يثبت عن النبي ﷺ، لإبهام الراوي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.



مكية الجزء الثلاثون سُورَةُ الْعَلَقِ آياتها ١٩

سُورَةُ الْعَلَقِ ، وَهِيَ **مَكِّيَّةٌ** ، أول ما نزل من القرآن لاسيما الخمس الآيات الأول منها، وكان في ذلك ما أخرجه الشيخان، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** أَنهَا قَالَتْ: **أَوَّلُ مَا بُدِيََ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ**، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبَّ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بَعَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنُّتُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَنْزُودُ لِلذِّكِّ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَنْزُودُ مِثْلَهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: **اقْرَأْ**، قَالَ: **«مَا أَنَا بِقَارِيءٍ»**، قَالَ: **«فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي»**، فَقَالَ: **اقْرَأْ**، قُلْتُ: **«مَا أَنَا بِقَارِيءٍ»**، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: **اقْرَأْ**، فَقُلْتُ: **«مَا أَنَا بِقَارِيءٍ»**، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: **«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)»** [العلق: ١-٣] (١).

وفي هذه الآية دليل على أهمية العلم قبل كل شيء؛ فإن الله **عَزَّجَلَّ** قبل أن ينزل الدعوة إلى التوحيد والأحكام والمعاملات أنزل العلم، وأمر به دلالة على فضله وعلو منزلته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)** ﴾

يقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **اقْرَأْ** ﴾ أي: تعلم ﴿ **بِاسْمِ رَبِّكَ** ﴾ أي: حال كونك مستعين بالله **عَزَّجَلَّ**؛ لأن الله **عَزَّجَلَّ** إذا أعان العبد يسر له من العلوم والفهوم ما يكون مميّزًا به على غيره. ثم إننا بحاجة إلى الاستعانة بالله في جميع شأننا، وكما قيل:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى * * * فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

وذكر اسم الرب دون غيره؛ لأنه اسم بمعناه الخاص يدل على حفظ وعناية وغير ذلك من معاني الربوبية، لاسيما والإضافة هنا إضافة التشریف.

﴿ **الَّذِي خَلَقَ** ﴾ أي: خلقك وخلق غيرك، والخلق هو الإيجاد من العدم، قال الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

وإثبات الخلق يلزم أن يكون عالماً قادراً، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: ١٤]، وكان مبدأ خلق الإنسان من طين، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ هذه الخلقة الأخرى، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

وأوله نطفة: وهو ما يخرج من مني الرجل والمرأة، ثم من علقه: وهو ما يكون كهيئة العلقه، وهي حيوان صغير مركبة من دم، ثم من مضغه: قطعه لحم، ثم يتدرج، فجعله عظاماً ثم يكسو العظام لحماً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْةٍ مِّن طِينٍ﴾ [١٢] ثم جعلناه نطفة في قرار مكين [١٣] ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [المؤمنون: ١٢-١٤].

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ اقرأ وأبشر من الله بالخير هو الأكرم، ومن معاني الكريم: الذي يعطي الكثير مجازاة على القليل، وربما أعطى الكثير دون جزاء، ومن معاني الكريم: أنه شديد الانتقام ممن أعرض عنه، كما قال: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [٦] الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ [٧] فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ [٨] [الانفطار: ٦-٨].

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي: علم الخط والكتابة وذكر القلم دون غيره معاً أن العلم يكون بالقول والحفظ؛ إلا أن القلم يحفظ به العلم إلى أعصر متأخرة؛ ولذلك انتصر الإسلام بالسنان والبنان، وقد تكلم ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على أنواع الأقلام في كتابه «التيان في أقسام القرآن»، فقال: **والأقلام متفاوتة في الرتب:**

١- فاعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق، الذي كتب الله به مقادير الخلائق، كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال يا رب وما أكتب قال أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، واختلف العلماء هل القلم أو المخلوقات أو العرش على قولين: ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني أصحابها أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام عرشه على الماء» فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا، ولا يخلو قوله: «إن أول ما خلق الله القلم» إلى آخره إما أن يكون جملة أو جملتين فإن كان جملة وهو الصحيح كان معناه أنه عند

أول خلقه قال له أكتب كما في لفظ «أول ما خلق الله القلم قال له أكتب» بنصب أول والقلم، فإن كانا جملتين وهو مروى برفع أول والقلم فيتعين حملة على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «لما خلق الله القلم قال له أكتب»، فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذي أقسم الله به.

فصل: القلم الثاني: قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم والعالم خدم لهم وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدم لأقلامهم وقد رفع النبي ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

فصل: والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمفتين وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه فإنه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

فصل: القلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة وترد إليها صحتها المفقودة وتدفع به عنها آفاتا وعوارضها المضادة لصحتها وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة.

فصل: القلم الخامس: التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياس الملك ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام والمشاركون للملوك في تدبير الدول فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

فصل: القلم السادس: قلم الحساب: وهو القلم الذي تضبط به الأموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها وهو قلم الأرزاق وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب ومبناه على الصدق والعدل فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة.

فصل: القلم السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا وتراق به الدماء وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فتزد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص فهذا له النفوذ واللزوم

وذاك له العموم والشمول وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

فصل: القلم الثامن: قلم الشهادة وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق وتصان به عن الإضاعة وتحول بين الفاجر وإنكاره ويصدق الصادق ويكذب الكاذب ويشهد للمحق بحقه وعلى المبطل بباطله وهو الأمين على الدماء والفروج والأموال والأنساب والحقوق ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد وباستقامته يستقيم أمر العالم ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

فصل: القلم التاسع: قلم التعبير وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره وما أريد منه وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي كاشف له وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته وأمانته وتحريه للصدق والطرائق الحميدة والمناهج السديدة مع علم راسخ وصفاء باطن وحس مؤيد بالنور الإلهي ومعرفة بأحوال الخلق وهيأتهم وسيرهم وهو من أطف الأقلام وأعمها جولانا وأوسعها تصرفاً وأشدها تشبهاً بسائر الموجودات علويها وسفليها وبالماضي والحال والمستقبل فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه.

فصل: القلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال وينقشه في النفس حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده فهو قلم المعاد الروحاني وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك.

فصل: القلم الحادي عشر: قلم اللغة وتفصيلها من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها على المعاني وكيفية الدلالة وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعدبها وأسهلها وأوضحها وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

فصل: القلم الثاني عشر: القلم الجامع وهو قلم الرد على المبطلين ورفع سنة المحققين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ودخولهم في الباطل وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام وأصحابه أهل الحججة الناصرون لما جاءت به الرسل المحاربون لأعدائهم وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل وعدو لكل مخالف للرسول فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم ويكفي في جلاله القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به وأن الله سبحانه أقسم به في

كتابه وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا بواسطة القلم^(١). اهـ.
فالله عَزَّجَلَّ علم بالقلم، فحفظ بالقلم القرآن، والسنة، وما زال الناس يستخدمون هذا القلم في طاعة الله عَزَّجَلَّ، ومنهم من يعرض وهم الأكثر.

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٦) أي: من أنواع الهدى والبيان، فعلمه أمور الدين الشرعية، فأنزها وحيا إلى محمد ﷺ، وعلمه كثيرا مما يصلح حاله، من مأكله ومشربه وملبسه ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾^(٥٠) [طه: ٥٠]، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣١) [البقرة: ٣١]، وعلم الدين هو أشرف أنواع العلم، وأما علم المشارب، والمآكل، والملابس، والمناكح، يحسنه كل أحد، لكن علم الكتاب والسنة يختص الله عَزَّجَلَّ به من شاء من عباده قال النبي ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢)، وَعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٣). وقد امتن الله على نبيه ﷺ بهذا المعنى في آية أخرى ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١١٣) [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾^(٧) [الضحى: ٧].

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾^(٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى^(٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ^(٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ^(٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ^(١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ^(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ^(١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ^(١٣) أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ^(١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ^(١٥) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ^(١٦) فليدع ناديه^(١٧) سَنَدَعُ الزَّابِيَةَ^(١٨) كَلَّا لَا نَطَعُهُ وَأَسْجُدُّ وَأَقْرَبُ^(١٩)

ثم قال: ﴿كَلَّا﴾ أي: حقًا ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ أي: جنس الإنسان يقع منه الطغيان، وهو مجاوزة الحد الذي شرعه الله وأمر، والطغيان مأخوذ من المجاوزة ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ﴾^(١١) [الحاقة: ١١]، ويقع منه الطغيان ﴿أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى﴾ أي: إذا رأى نفسه غنيا فإذا منَّ الله عليه بشيء من المال، أو الولد، أو الجاه، ظن أنه في مرتبة عالية، وفي درجة سنية، فيقع منه الإعراض إلا من رحم الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾^(٧٧) [مريم: ٧٧-٧٨] وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ

(١) «التيبان في أقسام القرآن» (٢٠٧).

(٢) متفق عليه، البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٧٣)، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).

صَاحِبُهُ، وَهُوَ بِحَاوِرُهُ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَنَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ [الكهف: ٣٧-٣٨].

فقال تعالى مهتدًا له: ﴿إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ الرَّحْمَنُ﴾ أي: في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١﴾ [السجدة: ١١] فكيف يستغني ويعرض عن الله عَزَّجَلَّ، وعن طاعته وهو راجع ومحشور إلى الله فيجازيه على عمله، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَّفُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ [البقرة: ٢٨١]. وهذا فيه من الوعيد ما الله به عليم، فإن الإنسان إذا علم أنه راجع ومحاسب على عمله كان ذلك من دواعي توبته واستغفاره، والله المستعان.

ثم انتقل إلى معنى آخر رادًا على أبي جهل - لعنه الله - حين زعم أنه يمنع محمدًا ﷺ من الصلاة في جانب البيت، بل لقد عزم على أن يبطأ على عنقه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَطَانٍ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، أَوْ لِأَعْفَرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِحْتُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لِحَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوًّا وَأَجْنَحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْتَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عَضُومًا عَضُومًا» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ - لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَوْ شَيْءٍ بَلَغَهُ -: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ الرَّحْمَنُ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهَدْيِ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾﴾ [العلق: ٧-١٣] - يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ - ﴿الرَّبِّ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبِيَّةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نُطِيعُ﴾ [العلق: ١٤-١٩] (١).

فيقول الله عَزَّجَلَّ منكرًا على هذا الصنف: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ ألا تعجب على حاله كيف ينهى عن الصلاة وعن طاعة الله مع أن الزنا، والقتل، والربا، والشرك موجود، ولم ينكر شيئًا من ذلك ولما رأى المصلي يصلي قام ينكر عليه. وهذا المعنى حاصل فإن كثيرًا من الناس يرى السَّرَّاقَ، والزناة والزواني، وأكلة الربا، وفاعلي الحرام والإجرام، ولا ينكر عليهم، وإذا رأى المستقيم الذي عَفَّ لحيته، وقصر ثوبه، ولزم مسجده، وإذا به

يسخر منه حتى أن بعض السلف قيل له: لماذا لا تنهى فلان عن الصلاة بعد العصر، قال: ما أريد أن أكون من الذي ينهى عبداً إذا صلى، مع أن النصيحة مطلوبة؛ لأن الصلاة بعد العصر منهي عنها إلا لقضاء أو استخارة، أو لذات سبب.

﴿عَبْدًا﴾ أي: لله عَزَّجَلَّ ﴿إِذَا صَلَّى﴾ أقبل عليه بالطاعة والعبادة ﴿أَرَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ أي: هذا المصلي كان على الهدى، كان على العلم والعمل؛ لأن الهدى يطلق على معنيين العلم والعمل، فكيف ينكر على من هذا حاله، بل هذا يثنى عليه، ويدعى له، ويستفاد منه.

﴿أَوْ أَمْرًا بِالْقَوَى﴾ أي: هذا المصلي كان على الهدى وكان يأمر بالتقوى بالإخلاص والتوحيد ويدخل فيها الأمر بفعل المأمور وترك المحذور، ومراقبه الله عَزَّجَلَّ في السر والعلن.

ثم قال الله عَزَّجَلَّ عن هذا الناهي ﴿أَرَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي: أخبرني إذا كان أبو جهل الذي ينهي المصلي عن صلاته: ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ كذب بخبر الله عَزَّجَلَّ وخبر رسوله ﷺ، وتولى عن فعل ما أمر الله به وأمر به رسوله ﷺ، فقال مهدداً له: ﴿الَّذِي يَنْهَى الْمَصْلِيَّ عَنِ الصَّلَاةِ، وَالْمُسْتَقِيمَ عَنِ الْاسْتِقَامَةِ﴾ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ يرى ما يفعل من نهي عن طاعة الله، ومن أمره بمعصية الله، والله عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّلْجِينَ﴾ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠]، والله يراك على كل حال، كما قال: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ آسَمَعُ وَأَرَى﴾ ﴿٤٦﴾ [طه: ٤٦].

والإنسان إذا علم أنه مراقب قل شره وخشي من مراقبته، فهنا يقول: ﴿الَّذِي يَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ يراه في أمره ونهييه، ويراه في فعله، وتركه، فإذا لماذا يتجرأ هذه الجرأة حتى وصل به الحال إلى أن ينكر على المصلين صلاتهم، وعلى المزيكين زكاتهم، وعلى الصائمين صيامهم، وعلى المستقيمين استقامتهم.

﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ لئن لم يترك ما هو فيه من الباطل وينزجر عما هو فيه من الأذى لمحمد ﷺ ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لناخذنه بالناصية وهي مقدمة الرأس، وهذا سبب لهلاكه ونزع حياته، ثم قال: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ كاذب في قوله، وخاطيء في فعله. ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ لأن أبا جهل هدد بدعوة النادي والأتباع الذين كانوا يجلسون في المجلس. والنادي هو المجلس العام الذي يجتمع فيه الناس.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: لنصرته وإعانتته ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي: خزنة النار؛ لتأديبهم ومنعهم

من باطلهم، مع أن الله عَزَّجَلَّ لا يعجزه شيء لكنه يربط الأسباب بمسبباتها، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ولكن أنت يا أبا جهل ومن إليك من الكافرين حين تتكثرون بأتباعكم وأنصاركم فاعلموا أن الله مسلط عليكم الزبانية، إما في الدنيا وإما في الآخرة. وهذا الوعيد لو أنه وقع من أبي جهل لسلط الله عليه الزبانية ولكنه رجع بعد أن رأى هولاً وخندقاً وأجنحة، فقال النبي ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَفْتَهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا».

ثم قال الله عَزَّجَلَّ لنبية وهو أمر لمن سلك هذا السبيل: ﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً، ليس الأمر كما هو عليه أبو جهل ومن معه ﴿لَا تُطْعَمَ﴾ في ترك الصلاة ولا تكن طائعا للمخاضمين المعارضين، في جميع الدين فإن طاعتهم سبب للضلال، قال الله جَلَّجَلَّالَهُ: ﴿وَلَا تُطْعَمَنَّا مِنْ أَعْفَلْنَا قَلْبُهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلَّ حَلَا فِي مَهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، ﴿وَأَسْجَدَ﴾ لله عَزَّجَلَّ ويدخل فيه جميع الصلاة، وإنما ذكر السجود؛ لأنه أشهر أفعال الصلاة ﴿وَأَقْرَبَ﴾ من ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تنال منه الجزاء الأوفى، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»^(١)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَجَدْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ» [الانشقاق: ١]، وَ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]^(٢).

والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٥٧٨).

مكية الجزء الثامن من سورة القدر آياتها ٥

سُورَةُ الْقَدْرِ ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ ، يخبر الله **عَزَّجَلَّ** فيها أنه أنزل القرآن في ليلة القدر، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان: ٣-٥] ، وسميت بليلة القدر؛ لعظيم قدرها، وعلو منزلتها. وقد أكرم الله **عَزَّجَلَّ** بهذه الليلة هذه الأمة إذ قصرت أعمارها، وقلت سنونها، فكان في قيام ليلة واحدة، والمحافظة على الطاعة فيها كأربعة وثمانين سنة، والحال كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٤] ، وهي في العشر الأواخر من رمضان، في الوتر منه كما تواترت بذلك الأدلة، وأرجى ليلة؛ هي ليلة سبعة وعشرين، فقد صح من حديث معاوية بن أبي سفيان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وغيره، أن النبي **ﷺ** قال: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةٌ سَبْعٌ وَعِشْرِينَ»^(١).

وإنزال القرآن يعتبر من النعم العظيمة، والمنن الكريمة من الكريم المنان، إذ أن القرآن كتاب أخرج الله **عَزَّجَلَّ** به الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن البدعة إلى السنة، ومن المعصية إلى الطاعة، قال الله **عَزَّجَلَّ** في شأنه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] . والقرآن منزل من عند الله تكلم به حقيقة، منه بدأ وإليه يعود، قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [فصلت: ٢] ، ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١] ، واعتقاد أن القرآن كلام الله من المهمات، قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة: ٦] ، وأول ما نزل منه خمس آيات، من أول سورة اقرأ كما تقدم، ثم تلاها خمس آيات من أول سورة المدثر: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ ﴿٣﴾ وَبِالْبَيْتِ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر: ١-٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ الْكَلِمَةَ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

يقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ إِنَّا ﴾ بتعظيم نفسه المقدسة، وهو العظيم المتعال، الكبير الواسع

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، ﴿وَتَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝١٣﴾ [الحجر: ٢٣] فيعظم نفسه في الخطاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو من أساليب اللغة، وليس هو على التعدد والتنوع كما يظنه البعض. ﴿أَنْزَلْنَاهُ ۝١﴾ أي: القرآن، ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ أي: ذات الشرف والرفعة، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝١﴾ تعظيم شأنها، أي: أي ليلة هذه تظنونها في الفضل والشرف.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝١﴾ أي: أن هذه الليلة الواحدة في رمضان خير عند الله وأفضل من ألف شهر، والخيرية للعمل الصالح فيها، فيعطى لأهلها مكرمات وهبات، وقد حرص النبي ﷺ بأخبار أمته بليلة القدر فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ مِنْ رَمَضَانَ، يَلْتَمِسُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَبْلَ أَنْ تُبَانَ لَهُ، فَلَمَّا انْقَضَى أَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَقَوَّضَ، ثُمَّ أُبِينَتْ لَهُ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَأَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَأُعِيدَ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا كَانَتْ أُبِينَتْ لِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَإِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرْكُمْ بِهَا، فَجَاءَ رَجُلَانِ يَخْتَفَانِ مَعَهُمَا الشَّيْطَانُ، فَسَيَّئْتُهَا، فَالْتَمِسُوها فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، الْتَمِسُوها فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ» (١).

وكان في هذا نعمة عظيمة بحيث لا يترصد الناس تلك الليلة ويفرطون في بقية العام، لكن من قام رمضان أدرك ليلة القدر، ومن قام العام أدرك ليلة القدر كما قال بعض السلف رضوان الله عليهم. وأفضل ما يتقرب به في هذه الليلة الصلاة، فإن النبي ﷺ صلى ليلة سبعة وعشرين من بعد صلاة العشاء حتى كاد أن يدرك الناس الفلاح، أي: السحور، فعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صُمْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ، فَلَمْ يَقُمْ بِنَا حَتَّى بَقِيَ سَبْعٌ مِنَ الشَّهْرِ، فَقَامَ بِنَا حَتَّى ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ، ثُمَّ لَمْ يَقُمْ بِنَا فِي السَّادِسَةِ، فَقَامَ بِنَا فِي الْخَامِسَةِ حَتَّى ذَهَبَ شَطْرُ اللَّيْلِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ نَفَلْتَنَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِنَا هَذِهِ، قَالَ: «إِنَّهُ مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ قِيَامَ لَيْلَةٍ»، ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ بِنَا وَلَمْ يَقُمْ حَتَّى بَقِيَ ثَلَاثٌ مِنَ الشَّهْرِ، فَقَامَ بِنَا فِي الثَّلَاثَةِ، وَجَمَعَ أَهْلَهُ وَنِسَاءَهُ حَتَّى تَخَوَّفْنَا أَنْ يَمُوتَنَا الْفَلَاحُ، قُلْتُ: وَمَا الْفَلَاحُ؟ قَالَ: السُّحُورُ (٢).

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «قُمْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ لَيْلَةَ ثَلَاثِ وَعِشْرِينَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قُمْنَا مَعَهُ لَيْلَةَ خَمْسِ وَعِشْرِينَ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قُمْنَا مَعَهُ لَيْلَةَ سَبْعِ وَعِشْرِينَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ لَا نُدْرِكَ الْفَلَاحَ»، وَكَأَنَّا يُسَمُّونَهُ السُّحُورَ (٣). ويكثر فيها من

(١) أخرجه مسلم (١١٦٧).

(٢) أخرجه النسائي (١٦٠٥)، أحمد (٢١٤١٩)، ابن ماجه (١٣٢٧)، وأبو داود (١٣٧٥)، والترمذي (٨٠٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٤٠٢)، والنسائي (١٦٠٦)، والحديث في «الصحیح المسند» (١١٦٠) لشيخنا مقبل الوداعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

الدعاء، والذكر، وقراءة القرآن، وغير ذلك من أنواع القربات.

﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ ﴾ أي: من بركتها أنه يكثر تنزل الملائكة إلى الأرض، ومعهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو الروح الأمين، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، وهذا من عطف الخاص على العام، فهو داخل في تنزل الملائكة، ولكن لشرفه، ومنزلته ذكره الله عَزَّجَلَّ على الخصوص. وتنزل الملائكة في تلك الليلة بالبركات، والهبات، والبشارات، وتشارك المؤمنين في ذلك الخير العظيم، فلا يكون تنزههم على المتلفزين، والمدشدشين، والغافلين، والمعرضين، وإنما تنزل إلى أماكن الطاعات، والعبادات، كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ، فَضُلًّا عَنِ كِتَابِ النَّاسِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ، تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَيَّ بُغْيَتِكُمْ، فَيَجِئُونَ، فَيَحْفُوفُونَ بِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» (١).

﴿ فِيهَا ﴾ ويكون تنزههم من غروب شمس يومها وحتى طلوع الفجر في صبيحتها، ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: أن تنزههم بأمر الله جَلَّجَلَّالَهُ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤]، وقال: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحریم: ٦]. فهم خلق مبارك طائع ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ رَبِّهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

﴿ مِنْ كُلِّ أَمٍّ ﴾ أي: سلام هي من كل أمر، وَقَالَ قَتَادَةُ وَعَازَةُ: تُقْضَى فِيهَا الْأُمُورُ، وَتُقَدَّرُ الْأَجَالُ وَالْأَرْزَاقُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [الدخان: ٤] (٢). اهـ.

أما من ذهب إلى أن ليلة النصف من شعبان هي التي تقدر فيها المقادير في العام فقولُه بعيد؛ مبني على أحاديث ضعيفة، لا يثبت منها شيء، فإن القرآن تنزل في رمضان، والأدلة دالة على فضيلة الليلة التي أنزل الله جَلَّجَلَّالَهُ فيها القرآن لا ليلة النصف من شعبان فتخصيصها بصلاة، وقيام، ونهارها بصيام من المحدثات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

﴿ سَلَّمَ هِيَ ﴾ أي: فيها سلامة، وقيل تسلم الملائكة على أهل المساجد المقيمين لها، والمبشرين إلى الطاعات فيها ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ إلى أن يطلع الفجر.

(١) أخرجه أحمد (٧٤٢٤)، عن أبي هريرة، أو عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/٤٤٤).

فاحرص أيها المسلم على الحفاظ على هذه الليلة المباركة، فإن النَّبِيَّ ﷺ يقول: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيَّانَا - بِفَضْلِهَا - وَاحْتِسَابًا - أَيْ: لِأَجْرِهَا -، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

وقد اعتكف النبي ﷺ العشر الأوسط من رمضان، ثم العشر الأواخر من رمضان؛ متحريراً لها فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ الْأَوَّلِ مِنْ رَمَضَانَ وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطَلَّبُ أَمَامَكَ، فَأَعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ، فَأَعْتَكَفْنَا مَعَهُ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطَلَّبُ أَمَامَكَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيئًا صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلْيَرْجِعْ، فَإِنِّي أُرِيتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَإِنِّي نُسِيتُهَا، وَإِنَّمَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَّخِرِ، فِي وَثْرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ» وَكَانَ سَقْفُ الْمَسْجِدِ جَرِيدَ النَّخْلِ، وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ شَيْئًا، فَجَاءَتْ قَرَعَةٌ، فَأَمْطَرْنَا، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ وَالْمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَرْزَبَتْهُ تَصَدِيقَ رُؤْيَاهُ^(٢).

والحمد لله رب العالمين



(١) متفق عليه، البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٨١٣)، ومسلم (١١٦٧).

مدنية

الْبَيْتَةُ الشَّامِيَّةُ

آياتها ٨

سُورَةُ الْبَيْتَةِ، **سُورَةُ مَدِينَةٍ**، حين أنزلها الله على نبيه ووصفيه، ورسوله محمد ﷺ أمره أن يقرأها على أبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة: ١]» قَالَ: وَسَمَانِي؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَبَكَى (١). ولم تكن قراءة النبي ﷺ على أبي إلا فضيلة لأبي، وفيها أهمية عرض القرآن، فإن أبي ابن كعب كان من حملة القرآن وأهله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ (٥)

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾، أي: اليهود والنصارى. ﴿مُنْفَكِينَ﴾ أي: منزجرين مرعوبين عن باطنهم ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

وفي قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ليس معناها أن ﴿مِنْ﴾ للتبويض، وإنما لبيان الجنس، وذكرهم دون غيرهم؛ لأنهم قد وجدوا البشارة بمحمد ﷺ في كتبهم، وذكر صفته، ومبعثه، وموطنه، ومع ذلك حملهم الحسد على عدم الإيمان. وسمو بأهل الكتاب؛ لأن اليهود كتابهم التوراة، والنصارى كتابهم الإنجيل، وأما ما يقوله كثير من الناس الآن: هؤلاء أصحاب كتب سماوية فلا يُسلم لهم فقد غيروا وبدلوا الكتب، فلا يجوز أن يضاف دينهم إلى السماء، فالدين الذي يضاف إلى السماء هو دين الله: الإسلام، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَحْرِفُونَ الْكَلِمَةَ عَنِ

مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة الجليلة، ثم فسر البينة بقوله: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: أن البينة التي أتى بها رسول من الله وهو محمد ﷺ. ﴿يَتْلُوا صُحُفًا﴾ أي: يقرأ مكتوبًا في الصحف وهو القرآن ﴿مُطَهَّرَةً﴾ منزهة عن الأدناس وغيرها.

(١) متفق عليه، البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).



﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ فيها مكتوب قيم واضح جلي، لا اعوجاج فيه، ولا لبس، ولا كذب. ثم قال الله عزَّجَل، مبينا اختلاف أهل الكتاب: ﴿ وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ ﴾ أي: ما حصل التفرق في اليهود، والنصارى، حيث صاروا فرقا وأحزابا، حتى قال الله عزَّجَل: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٣٢) [الروم: ٣١-٣٢]، وقال النبي ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أممي على ثلاث وسبعين فرقة»^(١). وجاء في حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وغيره: «كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»^(٢).

❖ والتفرق مذموم لأمر:

- ❖ **أولا:** أنه مخالف لأمر الله الشرعي.
- ❖ **ثانيا:** أنه سبب للضعف.
- ❖ **ثالثا:** أنه سبب للجدل.
- ❖ **رابعا:** أنه سبب للتنافر، والتشاحن، والتباغض، والتقاطع، والتدابير.
- ❖ **خامسا:** أنه سبب للخوض في آيات الله بالباطل، فلو كان الناس ملتزمين لشرع الله ظاهرا وباطنا ما وقع فيهم التفرق، قال تعالى: ﴿ فَإِن نَنزَعْنَهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].
- وأما قول النبي ﷺ: «وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرَقٌ بَيْنَ النَّاسِ»^(٣)، فمعناه: أنه بيعت محمد ﷺ ظهر التمايز بين الناس؛ مؤمن وكافر، وبر وفاجر، ويحكم على صلاح العبد من فساده بالنظر إلى ملازمته لشرع النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ إلا بعد أن جاءهم الوحي المبين، فأعرضوا عنه؛ لكثرة مسألتهم، واختلافهم على أنبيائهم، كما قال النبي ﷺ: «فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»^(٤)، ولكثرة جدهم، ومن ذلك قصة البقرة، قال تعالى:

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والحديث في «الصحیح المسند» (١٣١٧) لشيخنا مقبل الوداعي رَحِمَهُ اللهُ.
 (٢) أخرجه أحمد (١٦٩٣٧)، وابن ماجه (٣٩٩٣).
 (٣) أخرجه البخاري (٧٢٨١)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
 (٤) متفق عليه، البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧]، يكلمهم رسولهم بأمر الله، فيجادلونه كما يجادل بعضهم بعضًا بقوله: ﴿ أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا ﴾ ثم بعد ذلك يبين لهم أوصافها الوصف بعد الوصف بعد الوصف، وهم يجادلون ويعرضون، وهذا في كثير من أمورهم، وتفرقوا في محمد ﷺ ولم يؤمنوا به، مع ظهور الحجج الدالة على صدقه، ويجدون في كتبهم: بأن الله أشرق من ساعير - أي: بيت المقدس -، وتجلى في الطور - أي: المكان الذي أوحى الله عزَّجَلَّ به إلى موسى -، ويظهر في فاران - وجبال فاران: هي جبال مكة -، والمراد به وحي الله يتلونه في كتبهم ومع ذلك أبوا الإيمان به.

وقد ذكر عبد الله الكاتب وهو أحد النصارى الذين أسلموا: أنه كان ملازم لراهب من رهبان النصارى، وأحبه وتلمذ عليه سنين عديدة، وأعوام مديدة، وفي يوم من الأيام مرض هذا القسيس أو الراهب، فتذاكر الطلاب شيئًا مما في الإنجيل فوجدوا وصف محمد ﷺ، فما دروا بالمعنى، فدخل عبد الله الكاتب على هذا القسيس، فقال له: لقد وقع بيننا اليوم اختلاف في مسألة كذا وكذا، فقال: له وماذا قالوا؟ قال: فلان قال كذا، وفلان كذا، قال: وأنت؟ قال: أنا انتظر الجواب منك، فقال: له أعذرني، قال له: يا سيدي تعلم حبي لك، وأنا قد تركت الأهل، والمال، والولد؛ رغبة في مجاورتك، وأخذ العلم منك، وقد أعطيتني شيئًا كثيرًا ألا تعلمني هذه - وما زال يستحلفه - حتى قال: أخبرك لكن بشرط أن لا تحدث عني؟ قال: نعم، قال: هذا وصف محمد ﷺ مبشر به في الإنجيل، قال: يا سيدي ولماذا لم تؤمن به إن كان كذلك؟ قال: يا بني إن المسلمين إذا أسلمت وأنا شيخ كبير لا يزيدون على أن يقولون: جزاك الله خيرًا أخرجت نفسك من النار، وتسببت في إسعادها، وأنا لا أستطيع أن أعمل فبقيت على هذا الحال عند هؤلاء يأتوني بالمال، والأرزاق، قال: هذا الرجل فأخذت نفسي وركبت إلى تونس، فاستقبلني النصارى، وعظموا شأنِي، ورفعوا قدرِي؛ لعلمهم بمنزلتي، ولتلمذِي على هذا الشيخ، ثم قال: دعاني ملك المسلمين فأخبرته بخبري، وأخبرته أي قد دخلت في الإسلام، ولكن مع ذلك طلبت منه أن يجمع النصارى؛ حتى يعرف منزلتي عندهم، فجمعهم وقال: ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: هذا خيرنا تلمذ على خيرنا، وهو من أعرف الناس بكتابتنا، فقال: لهم أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله، قالوا: إنما فعلت هذا لما أعطاك هذا الملك من الأموال.

وهكذا حصل لعبد الله بن سلام، فإن اليهود زعموا أنه خيرهم وابن خيرهم، فلما شهد

أن لا إله إلا الله قالوا: شرنا وابن شرنا فعن أنس رضي الله عنه، قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة فأتاه، فقال: إني سأئلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خبرني بهن أنفاً جبريل» قال: فقال عبد الله ذلك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد: فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبها ماؤه كان الشبه له، وإذا سب ماؤها كان الشبه لها» قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أي رجل فيكم عبد الله بن سلام» قالوا أعلمنا، وابن أعلمنا، وأخيرنا، وابن أخيرنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أقرأيتم إن أسلم عبد الله» قالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا، وابن شرنا، ووقعوا فيه ^(١).

وهرق، علم وصف محمد صلى الله عليه وآله، وقال لأبي سفيان: إن يك ما تقول فيه حقاً، فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أك أظنه منكم، ولو أي أعلم أي أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليلغن ملكه ما تحت قدمي، وعرض على الروم الإسلام، فلما ثاروا عليه أثار الملك على الإسلام ^(٢)، والنجاشي آمن بمحمد صلى الله عليه وآله؛ لعلمه بأوصافه ^(٣)، والمقوقس حين جاءه رسول محمد صلى الله عليه وآله أهدى له جاريتين، وعبداً، وبغلة، وغير ذلك من الهدايا.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ أي: اليهود والنصارى، وجميع المكلفين ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ليوحدوا ويخلصوا له العمل، فدعوة الرسل كلها دعوة إلى إفراد الله بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ^(١٥) [الأنبياء: ٢٥].

﴿ مُخْلِصِينَ ﴾ حال كونهم مخلصين في عبادتهم له، لا يشركون معه ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا، فإن الله لا يرضى ذلك، قال تعالى: ﴿ وَأَنْ أَلْمَسَ جِدَ اللَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ^(١٨)

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، عن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٤٠)، عن أم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وآله.

[الجن: ١٨]، وقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٣]، وقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(١)، وقال النبي ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشْرَكَهُ»^(٢).

﴿وفي هذه الآية معنى لا إله إلا الله، فقد جمعت بين النفي والاثبات، وشروطها ثمانية:﴾

﴿١﴾ فالأول: العلم، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

﴿٢﴾ ثانيها: اليقين، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿٣﴾ ثالثها: الإخلاص، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٢].

﴿٤﴾ رابعها: الصدق، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

﴿٥﴾ خامسها: المحبة، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ رِبْدٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿٦﴾ سادسها: الاتقياء، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

﴿٧﴾ سابعها: القبول، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا رَرِيكَ لِيُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحْكَمُوا لَكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

﴿٨﴾ ثامنها: الكفر بالطاغوت، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(١) متفق عليه، البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهدي القرآن إلى هذه الشروط على أكمل وجه وأتم بيان حتى لم يدع لمحتج حجةً ولأحدٍ لبسٍ إذ أن تحقيق هذه الكلمة يعني تجرد العبد لله عزَّ وجلَّ.

وكم ساق من الأدلة والشواهد الموضحة لمعناها وسائرها على مبناها من تضمن النفي والإثبات. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۗ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [المتحنة: ٤]، وغير ذلك مما في بابه.

هذه الكلمة العظيمة دعا إليها القرآن فقال الله تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾، قَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾، في موضعين [البقرة: ٢٥٥] و [آل عمران: ٢]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿٢﴾﴾ [محمد: ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَحْدٌ ﴿٧٣﴾﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِكُفْرَتِمْ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَعَ عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾ [الكافرون: ١-٥].

﴿حُفَاءً﴾ أي: مألين عن الشرك إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ ۗ أَحْبَبَهُ ۗ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾﴾ [النحل: ١٢١]، فلا بد من الجمع بين النفي والإثبات لتحقيق معنى لا إله إلا الله.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ هذا من التفصيل بعد الإجمال، والصلاة والزكاة قد دخلتا في الدين

الذي أمر الله عَزَّجَلَّ به، ولكن ذكرهما تفصيلاً؛ لفضلهما، وعلو منزلتهما. ﴿وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ والمراد بها الصلاة المفروضة، وهي خمس صلوات في اليوم الليلة. ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي الزكاة المفروضة، والمكتوبة، وتكون ربع العشر في المال الصامت، والعُشْرُ فيما يخرج من الأرض إذا كان سقيه بهاء المطر، ونصف العُشْرُ إذا كان سقي بالسانية، ويكون في هيمة الأنعام الغنم والبقر والإبل على تفصيل مذكور في موطنه.

﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾ أي: ما تقدم من أفراد الله بالعبادة، والتقرب إليه بجميع أنواع الطاعات، والبعد عن الشراكيات، والبدع، والحرفات، هو الدين القويم الذي ارتضاه رب العالمين للناس أجمعين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾
 ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

ثم قال عَزَّجَلَّ مخبراً بحال الناس مع هذا الدين: من أنهم انقسموا إلى قسمين لا ثالث لهما ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ من اليهود والنصارى، ومن إليهم من عباد الأوثان والأصنام ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خلود لا خروج بعده، كما قال تعالى: ﴿لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وقد جاء مبيناً في غير هذا الموطن ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وما جاء أن النار تفتنى فقول ضعيف، فالنار لا تفتنى ولا تبيد، واللجنة لا تفتنى ولا تبيد، خلقها الله عَزَّجَلَّ للبقاء لا للفناء، وهذا هو معتقد أهل السنة قاطبة من أن الجنة والنار موجودتان الآن وأنها لا يفتيان ولا يبيدان.

﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: اليهود والنصارى ومن إليهم من المشركين شر البرية، أشر من القروء، والخنازير، والكلاب، ومن كل شر، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ

كَالَّذِينَ بَلَّوْا نَبِيَّ هُمْ أَضَلُّ أَوْلِيَّكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٧﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فلا تغتر أخي المسلم بيهودي، أو نصراني، أو مجوسي، أو عابد وثن أو صنم مهما علت رفعته، مهما كثرة أمواله، مهما تنوعت صناعاته ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧]، وليكن فرحك بالمسلم وإن قل ماله، وحصل منه ما حصل، فإن الإسلام دين العزة، والمكنة، والرفعة، فعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: رَجُلٌ مِّنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنِ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِّنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنِ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِائَةِ أَرْضٍ مِّثْلَ هَذَا»^(١).

فلما ذكر حال الكافرين في الدنيا والآخرة ذكر حال أهل الإيمان فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٨﴾ أَي: إن الذين آمنوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وأقروا بذلك ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٨﴾ أَي: لازموا الأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا.

﴿أَوْلِيَّكَ هُمُ حَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ خير الخلقية الذين برئهم الله، فهو البرئ الخالق المتصرف في هذا العالم. ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ ثوابهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ جمعت لكثرة منازلها، جنات عظيما فيها من كل خير، وقد وصفها الله في مواطن من كتابه، ومن أجل الآيات في وصفها آيات سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِفِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَلْصِرَاتُ الْطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْهُنَّ إِتْسَاقُ قِبْلَتُهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَمَاتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ

﴿٧٠﴾ فَيَأْتِيءُ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُرِّمَتْ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَيَأْتِيءُ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ قُلُوبَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِيءُ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ [الرحمن: ٤٦-٧٦] وهكذا في أوائل سورة الواقعة، قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ

﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصُدُّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفِيكَهْفَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَمْ يَطْمِئِنَّ قُلُوبُهُمْ وَلَا يَشْتَهَوْنَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيْمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِيكَهْفَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَهُمْ أَجْنَاكًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾

[الواقعة: ١٧-٣٨]، وفي سورة الصافات، قال تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزِفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ [الصافات: ٤٤-٤٩] وفي غير ذلك من السور.

﴿تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تجري فيها الأنهار؛ لأن أنهار الجنة ليس لها أحاديد، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥] إلى غير ذلك مما أمتن الله به على المسلمين.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: أنه من دخل الجنة ينعم ولا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يبلى شبابه. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَتَّعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» (١).

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: سبب هذا الجزاء العظيم؛ أن الله رضي عنهم وعن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الزمر: ٧]. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: بما أكرمهم به، ورضوا به في الدنيا حيث قدموا طاعته على كل طاعة، وقدموا أمره على كل مأمور به، وأجلى من وصف بهذا الوصف هم الصحابة ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وقد ذكرهم في مواطن من كتابه؛ وذلك؛ لشرفهم،

ومنزلتهم، وعلو قدرهم، خلافاً لما تزعمه الرافضة فيهم؛ بأنهم خانوا أمر النبي ﷺ، أو أنهم ضيعوا وصية النبي ﷺ، فقول الرافضة مبني على الخرس، والكذب، فإن الصحابة قاموا بأمر رسول الله ﷺ على خير قيام، وأحسن حال، ولذلك قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: هذا الجزاء الذي تقدم لمن خشي ربه، والخشية تصدر من العلماء، ومن استفاد منهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وهي الخوف مع التعظيم. ففي هذا بيان أن الجنة جزاء من خشي الله، وخافه وعظمه، وجرته هذه الخشية إلى فعل الطاعات، والابتعاد عن المعاصي والسيئات، ولذلك كان في الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ» (١).

والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَكِّيَّةٌ لِلْبَلَاءِ فِي سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ آيَاتُهَا ٨

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ، **مَكِّيَّةٌ**، وقد ذهب بعضهم إلى أنها مدنية، وقد أخبر الله **عَزَّجَلَّ** فيها عن بعض شأن يوم القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧ ﴾

يقول **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أي: اهتزت من تحتها وترزلت جبالها وما فيها ولو تأملنا ما يقع من الزلازل، وما هو إلا مثل مما سيكون يوم القيامة لعلنا شدة الحال الذي سيصير إليه الناس، فلو وقعت زلزلة ستة بمقياس رختر الذي وضعوه لمقياس الزلازل، لدمرت البنيان وقطعت الطرق، وسقطت الصخور، فكيف بزلزلة يوم القيامة التي تتناثر معها الجبال، وتُذكَ ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٧].

﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ أخرجت ما فيها من الكنوز، وما فيها من المدفونين، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ④ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣-٤٤]، ولا يضيع شيء مما استودع في الأرض، وينبت الإنسان من عجب الذنب، فعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ**: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَيْبُتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَيْبُتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَيْبُتُ، «ثُمَّ يُنَزَّلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ» قَالَ: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَنْبُتُ، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ يتعجب من هذه الزلزلة، وهذا الخروج، ما شأن هذا الحادث الذي حصل للإنسان، وقد يكون قوهم بلسان الحال، ولسان المقال، كما قال **عَزَّجَلَّ** مخبراً عنهم: ﴿ قَالُوا بَلَوْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ [يس: ٥٢].

(١) متفق عليه، البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

﴿ **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا** ﴾ تُخبر بها وقع فيها من خيرٍ أو شرٍ، وتشهد عليك أيها الإنسان، وهي من جملتِ الشهود ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (٢٤) وهذه والله مُصيبةٌ، كم من إنسان يتعاطى معصيةً في ليلةٍ ظلماء، وفي مكانٍ ففرٍ لا يراه أحد، وإذا به يوم القيامة يُفصح على الأَشهاد، وتشهد عليهم تلك البقع التي استتر واختفى فيها، زد على ذلك: أن الله عزَّ وجلَّ يُبلي سريرته، فلا يبقى شيء من أمره إلا وتحدثت به، مع أنه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عليهم بذات الصدور، ولا تخفى عليه خافية. وعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا** ﴾ [الزلزلة: ٤]، قَالَ: «تَذَرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنْ أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلْتَ عَلَى كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا»، قَالَ: «فَهُوَ أَخْبَارُهَا» (١).

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَوْحَىٰ لَهَا** ﴾ هذا الحديث الذي صدر منها؛ لسببٍ أمر الله لها بالشهادة والكلام، فالأرض خلق الله، تفعل ما أمر الله، فهي حجارةٌ صماء، فإذا أذن الله لها بالكلام تكلمت ونطقت، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وليس المراد بالإيحاء هنا إيحاء الوحي، وإنما المراد به الإذن والأمر. ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾ أي: في ذلك اليوم يوم القيامة حين تزلزل الأرض ﴿ **يَصُدِّرُ النَّاسَ** ﴾ أي: يخرج الناس من قبورهم ﴿ **أَشْنَانًا** ﴾ متفرقين وجماعات، ولكلٍ منهم عملةٌ وفعله، وسبب خروجهم؛ ﴿ **لِيُرَوَّا أَعْمَلَهُمْ** ﴾ لينظروا ويجدوا جزاء تلك الأعمال التي تعاطوها في الدنيا.

ثم أخبر بحال الناس مع هذه الأعمال: ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** ﴾ وهذا في حق المؤمنين والموحدين، يجد ذلك أمام عينه، ويفرح به، وإن كان في وزن الذرة.

﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ وإن كانت في الحقارة مثقال ذرة ولم يغفرها الله عزَّ وجلَّ فهي ثقيلة على الإنسان ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا** ﴾ وَيُحْذِرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ يَرَهُ** ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فكم عندنا من ما مثاقيل الذر ومما هو فوق ذلك من المعاصي والتقصير والذنوب إذا لم يتجاوز الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

(١) أخرجه أحمد (٨٨٦٧)، والنسائي (١١٦٢٩)، والترمذي (٢٤٢٩).

والله لو أن كل واحد منا يحاسب نفسه لرأى الهلكة إلا أن يشاء الله، ما هي الطاعات التي نتقرب به إلى الله **عَزَّوَجَلَّ**؟ ما هي العبادات التي تبذل لأجل الله **عَزَّوَجَلَّ**؟ وما هو التقصير الذي يحصل منا في جناب الله **عَزَّوَجَلَّ**؟!

وقد ذكر النبي ﷺ الزكاة، والفضيلة في البقر والغنم والإبل والحيل، وسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْحُمْرِ، فَقَالَ: «مَا أَنْزَلَ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَادَةُ»: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة: ٧-٨] (١).

وجاء عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، عَمَّ الْفَرَزْدَقِ، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة: ٧-٨]، قَالَ: حَسْبِي، لَا أَبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا (٢).

وهذه الآية دالة على عدل الله **جَلَّ جَلَالُهُ**، وهو القائل: ﴿وَلَا يَظَلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤١) [الكهف: ٤٩]، وقد ثبت أن النبي ﷺ صلى بسورة الزلزلة في ركعتي الفجر، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ رَجُلًا، مِنْ جُهَيْنَةَ أَخْبَرَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ كِلْتَيْهِمَا (٣).

وأما ما جاء من أنها تعدل ربع القرآن، من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ: حَدَّثَنِي سَلْمَةُ بْنُ وَرْدَانَ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) [الكافرون: ١]، رُبُعُ الْقُرْآنِ، وَ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ [الزلزلة: ١]، رُبُعُ الْقُرْآنِ، وَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر: ١]، رُبُعُ الْقُرْآنِ» (٤)، فإسناده ضعيف؛ لضعف سلمة بن وردان، ولا يثبت في ذلك شيء، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.



(١) متفق عليه، البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٥٩٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٨١٦)، والحديث في «الصحيح المسند» (١٥٠٠) لشيخنا مقبل الوداعي **رَحِمَهُ اللَّهُ**.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٤٨٨).

مَكِّيَّة

سُورَةُ الْعنَادِيَةِ

آيَاتُهَا ١١

سُورَةُ الْعنَادِيَةِ ، مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعنَادِيَةِ صَبْحًا ١ ﴾ فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ٢ ﴿ فَالْمُعْرِتِ صَبْحًا ٣ ﴾ فَاتْرُنَ بِهِ نَقْعًا ٤ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ٥ ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦ ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧ ﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨ ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ ٩ ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ١٠ ﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ١١ ﴾

يقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالخيال في أشد قوته، فيقول: ﴿ وَالْعنَادِيَةِ ﴾ أي: الجاريات ﴿ صَبْحًا ﴾ فيصدر منها صوتٌ حين جريها وعدوها.

﴿ فَالْمُورِيَّتِ ﴾ أي: المشعلات ﴿ قَدْحًا ﴾ حين تضرب أرجلها في الحجارة، فلصلاية الحجر، وصلابة الرجل تنقح من الحجارة مثل الشرر، وذلك أن الخيل يوضع في رجله حدوة من حديد؛ لتقيه ضرب الحجارة ونحو ذلك، فتجتمع صلابة ما في رجل الخيل مع صلابة الحجر مع سرعة العدو، فيخرج منها قرح مثل النار.

﴿ فَالْمُعْرِتِ ﴾ أي: الخيل التي تغير على الأعداء ﴿ صَبْحًا ﴾ وهذا على الغالب، فإن النبي ﷺ كان يبيت الناس، ثم يغير عليهم في الصباح، فإن سمع الأذان أمسك وإلا أغار، وربما تقع الغارة في غير هذا الوقت.

﴿ فَاتْرُنَ ﴾ أي: من الإثارة لكثرة جريهن ﴿ نَقْعًا ﴾ أي: الغبار.

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ أي: تتوسط بالمقاتلين وجموع الأعداء، وهذا من عجب شأن الخيل، فإنه يهجم مع مقاتله حتى في حال المسابقة، ربما تجد المبارز يبارز والخيال يقدم معه، لاسيما الخيل العربية الأصيلة، ولذلك يستخدم الناس البراذين والخيول الأوربية وما في بابها؛ للعدو والسباق، ويستخدمون الخيل العربية للقتال ونحوه، فإنه يبقى مع صاحبه في أشد اللحظات وأحلك الأوقات.

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ ﴾ هذا هو المقسم عليه، أقسم الله بالخيال وصفاته لهذا الأمر ﴿ إِنَّ

الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ أي: إن جنس الإنسان لجحود لنعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وقد يجحدها

بلسانه، أو بفعاله. والواجب على الإنسان أن يكون شاكراً لأنعم الله عليه، لكن الوقوع أن كثيراً من الناس كفروا بالله ووجدوا نعمته. ﴿لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ إشعار بأن الله هو الذي يرزقه ويحوطه ويعطيه، ومع ذلك يكفر النعمة ولا يشكرها ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ لها معنيان:

❖ **الأول:** بأن الله شهيدٌ على كنود الإنسان، وعلى بخله، ووجدوده، والله مطلع على كل شيء، ويكون هذا على التهديد.

❖ **الثاني:** أن الإنسان على كنوده لشهيد، إما بلسان حاله وإما بلسان مقاله، يشهد أنه جحودٌ، وأنه مفرط في حق الله عزَّجَلَّ، وهذا يكون في يوم القيامة.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي: أن الإنسان لحب المال لشديد، وهذا هو السبب الذي أوردته الموارد، فإنه يأخذ المال من حله ومن حرامه، ويعادي ويوالي؛ من أجله، فإذا زادت حبة المال في الإنسان أهلكته، وكما قيل:

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ ❖ ❖ ❖ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَأَمَّا لَكَ

فكثير من الناس بسبب محبتهم للمال يقعون في الهلكة، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟» قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ غَيْرَ ذَٰلِكَ، تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغُضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَٰلِكَ، ثُمَّ تَنْظَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ رِقَابِ بَعْضٍ» (١).

والمعنى الثاني: أن الإنسان بخيل بما أوجب الله عزَّجَلَّ عليه، فيعاقب على ذلك، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ، وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا؛ إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِي عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَكْوَى بِهَا جَنْبَهُ، وَجَبِينَهُ، وَظَهْرَهُ» (٢)، قيل يكوى جبينه؛ لأن السائل حين يأتيه يتمعر وجهه، ويكوى جنبه؛ لأن السائل حين يلح عليه يعرض عنه ويوليه جنبه، ويكوى ظهره؛ لأنه إذا أتاه في الثالثة قد يوليه ظهره ويمشي، فيكون الجزء من جنس الصنيع في الدنيا. فحب المال، إن كان لا يؤدي إلى ترك الواجبات وفعل المحرمات، فهو رزقٌ من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَمْرُو، نَعِمًا بِالْمَالِ

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (٩٨٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(١)، وأما إذا كان يؤدي إلى غير ذلك فهذه هلكة، نسأل الله السلامة،

فكثير من الناس من حبههم للمال يمنعون المسكين حقه، قال تعالى: ﴿مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَنِيسٍ

﴿١٣﴾ [القلم: ١٢]، بل لا يحضوا على طعام المسكين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامٍ

المسكين﴾^(٢) [الماعون: ٣]، إذا كان يعاقب على عدم الحض على طعام المسكين، فكيف بمن

لا يطعم المسكين، وبعضهم يقطع أرحامه، ويهجر جيرانه؛ من أجل المال، وقد قال رسول

الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ»^(٣).

ثم قال عز وجل مهتدا لما سيقع للإنسان في يوم القيامة: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي: هلا يعلم هذا

الإنسان ﴿إِذَا بُعِثَ﴾ أثير وأخرج ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ من المدفونين والمقبورين.

﴿وَحَصَلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: وجمع ما في صدورهم وأظهر للعيان، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى

السَّرَائِرُ﴾^(٤) [الطارق: ٩]. وذكر الصدور دون غيرها؛ لأنه إذا جمع عليك ما في صدرك فمن

باب أولى جمع الظاهر الواضح. وفي هذا دليل على خطر النيات، فإن كانت صالحة يرجى

لصاحبها الخير وإن كانت غير ذلك يخشى على صاحبها الشر والضرير.

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ﴾ خالقهم ورازقهم ﴿بِهِمْ﴾ وبأعمالهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ القيامة ﴿لَخَبِيرٌ﴾ مطلع على

كل ما فعلوا وتركوا. وذكر يوم القيامة على التهديد، والوعيد، ومعنى خبير: أي: عليم

ببواطن الأمور، هذا إذا اجتمع مع العلم، وأما إذا افترق عن العلم: فالخبير بمعنى العليم

بظواهر الأمور وبواطنها، والله المستعان.

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤٧١)، والترمذي (٢٣٣٦)، عَنْ كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث في «الصحیح المسند»

(١٠٩٣) لشيخنا مقبل الوداعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

مكية الجزء الثلاثين سورة القارعة آياتها ١١

سُورَةُ الْقَارِعَةِ، مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ ٢ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ ٣ ﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَّاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿ ٤ ﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿ ٥ ﴾ فَأَمَّا مَنْ
ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿ ٦ ﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿ ٧ ﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿ ٨ ﴾ فَأُمُّهُ
هَاوِيَةٌ ﴿ ٩ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿ ١٠ ﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿ ١١ ﴾

يقول الله عزَّجَلَّ: ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ من أسماء القيامة كالصاخة، والحاقة، والوقعة، وغير ذلك. وسميت بالقارعة؛ لأنها تفرع الأذان والأسماع من شدة أهوالها وعظيم شأنها.

﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ تكرر للسؤال عن معناها؛ من أجل أن يكون زاجراً ورادعاً لمن يسمع هذا الوعيد العظيم، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ تعظيم لشأنها؛ لأن القارعة شأنها عظيم جداً، فبعدها إما سعادة أبدية أو شقاوة أبدية، ولو جمعت هذه الآيات مع وصف الله عزَّجَلَّ لها بالواقعة ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١ ﴾ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ﴿ ٢ ﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿ ٣ ﴾ إِذَا رَحَّتِ الْأَرْضُ رَحًا ﴿ ٤ ﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿ ٥ ﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿ ٦ ﴾ [الواقعة: ١-٦]، وقوله: ﴿ الْحَاقَّةُ ١ ﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿ ٢ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿ ٣ ﴾ [الحاقة: ١-٣]، وغير ذلك من الأسماء ﴿ إِذَا جَاءَتِ الصَّخَّةُ ٣٣ ﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿ ٣٤ ﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿ ٣٥ ﴾ وَصَخِيئِهِ وَبَنِيهِ ﴿ ٣٦ ﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿ ٣٧ ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧]، ﴿ إِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ٣٤ ﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿ ٣٥ ﴾ وَتُرِزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ بَرَى ﴿ ٣٦ ﴾ [النازعات: ٣٤-٣٦].

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أي: يكون الناس في يوم القارعة كالفراش، والفراش كائن صغير ينتشر في الليل أكثر منه في النهار لاسيما إذا رأى ضوءاً، فيخرج لا يدري إلى أين يتجه، وإذا وجد نارا تقاعد فيها وسقط؛ لأنه لا يتحكم بنفسه، ولا يملك عقلاً يتقي فيه شر ذلك، ففي يوم القيامة يكون الناس كالفرش المبعوث؛ من شدة الأهوال التي يرونها ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿ ١ ﴾ يَوْمَ

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ [الحج: ١-٢]، يوماً مهولاً يخرج الناس حفاة عراة غرلاً، لا ينظر الرجال إلى النساء، ولا النساء إلى الرجال؛ لشدة الحال، فعن عَنِّ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرُلًا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ النَّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»^(١)، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَيْتَكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْحَيْرُ فِي يَدَيْكَ، يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثِ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعَثِ النَّارِ؟، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ [الحج: ٢]»^(٢).

فيكون الناس من شدة هذه الأهوال كالفراش المبتثر المتشتر هاهنا وهاهنا، لا يلوي بعضهم على بعض، ولا ينظر بعضهم لبعض، ولا يستقر لأحدهم قرار؛ لأنهم لا يعلمون ما الذي يجري لهم، وما الذي سيكونون فيه، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ﴾ العظيمة الشاهقة الثابتة ﴿كَأَلِهِنَّ﴾ كالصوف ﴿الْمَنْفُوشِ﴾ الذي يتبدد في الهواء، وتسوقه الرياح، هذه الجبال العظيمة، إذا أنت تريد الآن أن تكسر حجرة صغيرة من الجبل، تأتي بالآلات شديدة، وتعالجها علاجاً شديداً من أجل أن تكسرها، فهذه الجبال تصير كالصوف المنفوش المتطاير من شدة ذلك اليوم، حيث تنسف الجبال، وتبقى الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَٰكِنَ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ لِّمَنْ نَفَعَهُ لَوَدَّ عَلِيمٌ غَافِلٌ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨].

ثم يقول مخبراً عن حال الناس في ذلك اليوم أنهم ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: بالأعمال الصالحة، وفيها إثبات الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة، خلافاً لما ذهب إليه المعتزلة، فهو ميزان حقيقي له كفتان ولسان، توضع فيه أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)، واللفظ له.

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

موزينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ [المؤمنون ١٠٢-١٠٣]، والموازن تثقل بالطاعات والحسنات وتخف بالسيئات، ولعظم شأن التوحيد يكون أثقل شيء، ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، يقول: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كِتَابِي الْحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عَذْرُ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتَخْرُجُ بَطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: أَحْضِرْ وَزَنِّكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظَلِّمُ. قَالَ: فَتَوَضَّعَ السَّجَلَاتُ فِي كَفِّهِ، وَالْبَطَاقَةُ فِي كَفِّهِ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ، فَلَا يَنْقَلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْئًا» (١).

❖ **ويوزن في ذلك اليوم العمل**، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَسْبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ» (٢).

❖ **ويوزن العامل**، فعن ابن مسعود رضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكَ مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرَّيْحُ تَكْفُوهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، هَلُمَّ أَنْتَقِلْ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ» (٣).

❖ **وتوزن الصحف**، كما تقدم حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. وجمعت الموازين؛ لكثرة الموزونات وإلا هو ميزان واحد، وما منا إلا وله أعمال كثيرة، إما صالحة، وإما طالحة، وإلا من مجموعها.

❖ **فهو في عيشة راضية** ﴿ فهو في جنة يحبى ويعيش عيشة هنية يرضى بها؛ وذلك بسبب رضى الله عز وجل عنه. ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، ﴿ لكثرة المعاصي والسيئات، ومن أشدها الشرك.

❖ **فأئمه هكاوية** ﴿ لها معنيان:

﴿ **المعنى الأول:** أنه يسقط على رأسه في النار، وهذه مصيبة عظيمة، أن الإنسان يهوي على

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، والحديث في «الصحیح المسند» (٧٨٧) لشيخنا مقبل الوداعي رحمه الله.

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٦٨٢)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣٩٩١)، والحديث في «الصحیح المسند» (٨٣٧) لشيخنا مقبل الوداعي رحمه الله.

رأسه في النار، ومعلوم أن النبي ﷺ سَمِعَ وَجِبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا» (١).

وهو والمعنى الثاني: ﴿فَأْتَمَّهُ هَكَوِيَةً﴾ أي: صارت له النار كالأم إذ لا مأوى له غيرها.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا حَضَرَ الْمُؤْمِنُ أَتَمَّهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكَ إِلَى رَوْحِ اللَّهِ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانَ فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحٍ مَسْكٍ حَتَّى إِنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَأْتُوا بِهِ بَابَ يَعْنِي السَّمَاءَ فَيَقُولُونَ: مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرَّيْحَ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرْحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَايِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ فَيَسْأَلُونَهُ مَا فَعَلَ فَلَانَ مَا فَعَلَ فَلَانٌ؟، فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا فِإِذَا قَالَ أَمَا أَتَاكُمْ؟، قَالُوا: ذَهَبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَآوِيَةِ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَ أَتَمَّهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمَسْحٍ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي سَاحِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ فَتَخْرُجُ كَأَتْنِ رِيحٍ جِيْفَةٍ حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الْأَرْضِ فَيَقُولُونَ: مَا أَتْنَنَ هَذِهِ الرَّيْحَ حَتَّى يَأْتُوا بِهِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ» (٢).

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ أي: الهاوية، وهذا لتعظيم شأنها ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ نار شديدة الحرارة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ قَالَ: «فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةِ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا» (٣)، وانظروا إلى شدة حرارتها وعظيم خطرها، ولو عذب الناس بها لكفتهم وأحرقتهم، وأوجعتهم، ولكن مع ذلك هذه النار ليست بشيء أمام تلك النار، شديدة الحرارة، مظلمة الحال، وكل ما فيها حار: كالزقوم، والحميم، وغير ذلك مما يقع فيه الناس. ففي هذه السور من الوعد والوعيد ما يكون دافعا للإنسان إلى التوبة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والاستغفار مما بدر منه، وملازمة الطاعة حتى يلقي الله عَزَّ وَجَلَّ.

والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي (١٩٧٢)، والحديث في «الصحیح المسند» (١٣١٥) لشيخنا مقبل الوداعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٦٥).

مكية

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

آياتها ٨

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ، **مكية**، وفيها إخبار من الله **عَزَّجَلَّ** أن الناس ألهاهم التكاثر في الأموال، والأولاد، والضيعات عن كثير من أمور دينهم، وهذه السورة وإن كان يدخل فيها دخولاً أولياً الكفار، إلا أنها عامة فتشمل كل من أضرع حظه من الآخرة بحظ من الدنيا زائل، وفيها تحقير الدنيا إذ أنها تشغل عن الآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ **أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ** ١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ٨ ﴾

يقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **أَلْهَكُمُ** ﴾ أي: شغلكم ﴿ **التَّكَاثُرُ** ﴾ بجمع شؤون الدنيا، أي: عن الآخرة التي هي دار البقاء والقرار، والسعادة فيها لا تكون إلا بعمارة الدنيا بتوحيد الله **عَزَّجَلَّ**، وطاعته، وهذا كقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **سَخَّطْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا** ﴾ [الفتح: ١١]. وكم من إنسان أفسده التكاثر، هذا يُفسد عن طريق الحق بسبب مالٍ، وآخر بسبب ولد، وثالث بسبب زوجة، وآخر بسبب أصحابه، فما لم يكن مبلغاً لك إلى سعادة الدارين فكن زاهداً فيه.

﴿ **حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ** ﴾ أي: زيارة الموت لا الزيارة المعهودة من الذهاب إلى المقبرة والنظر إليها، فكم من إنسان يأتي المقبرة وهو غافل، وهو لاهٍ عن حالها، مع أن زيارة القبور سبب لتذكر الموت، فعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ **ﷺ** قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبَكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَعْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**» (١)، ومما يدل على ما ذكرت حديث عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: أَنَّ النَّبِيَّ **ﷺ** دَخَلَ عَلَى أَعْرَابٍ يُعْوَدُهُ، قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ **ﷺ** إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يُعْوَدُهُ قَالَ: «**لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**» فَقَالَ لَهُ: «**لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**» قَالَ: قُلْتَ: طَهُورٌ؟ كَلَّا، بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ، أَوْ تَشُورُ، عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ الْقُبُورَ، فَقَالَ النَّبِيُّ **ﷺ**: «**فَنَعَمْ إِذَا**» (٢).

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٦).

والشاهد: قوله: «تَزِيرُهُ الْقُبُورَ» فالزيارة التي يعرف الإنسان أنه كان مفرطاً قبلها هي زيارة الموت، ﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْفُسُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ١٠].

فأنت الآن في فسحة تستطيع العمل، فلا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم تمنيت الرجوع، بل إن المؤمن إذا بلغت الحلقوم تعجل المضي فيها هو فيه. فإن النبي ﷺ حين كان في سكرات الموت جعل يرفع إصبعة ويقول: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى» (١)، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكْرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَكَلَّمْنَا نَكَرَهُ الْمَوْتُ، فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» (٢)، من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، وسبب محبة المسلم للقاء الله؛ أنه يبشر بروح وريحان، ورب راض غير غضبان، وسبب كراهية الكافر للموت عند ذلك؛ أنه يبشر بسخط من الله وغضب.

﴿الْمَقَابِرِ﴾ والمقابر: جمع مقبرة وهي ما يوارى فيها الناس عند موتهم.

❦ واستدل بهذه الآية ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (١) على عذاب القبر، وفيها ما جاء عند الترمذي، قال: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا حَكَّامُ بْنُ سَلَمٍ الرَّازِيُّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ الْحَجَّاجِ، عَنْ الْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «مَا زِلْنَا نَسُكُ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]» قال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ» (٣)، والأدلة على إثبات عذاب القبر متواترة في القرآن والسنة الصحيحة، فمن القرآن:

❦ قال الله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِئَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥-٤٦]. قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَحَاقَ بِئَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وَهُوَ: الْغَرَقُ فِي الْيَمِّ، ثُمَّ النَّقْلَةُ مِنْهُ إِلَى

(١) أخرجه البخاري (٤٤٣٧)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٤).

(٣) برقم (٣٣٥٥)، ضعيف الإسناد، وسيأتي بيان علته.

الْجَحِيمِ. فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ فِي النَّارِ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] أَي: أَشَدَّهُ أَلَمًا وَأَعْظَمَهُ نَكَالًا. وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلُ كَبِيرٍ فِي اسْتِدْلَالِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى عَذَابِ الْبَرْزَخِ فِي الْقُبُورِ (١). اهـ.

قال الحافظ ابن حجر **رَحِمَهُ اللَّهُ**: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ الْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْعَرْضُ يَكُونُ فِي الْبَرْزَخِ وَهُوَ حُجَّةٌ فِي تَثْبِيهِ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَقَالَ غَيْرُهُ وَقَعَ ذِكْرُ عَذَابِ الدَّارَيْنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُفَسِّرًا مُبَيِّنًا لَكِنَّهُ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ عَذَابَ الْقَبْرِ مُطْلَقًا (٢). اهـ.

وقال تعالى: ﴿فَدَرَّهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ (٥٥) **يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** (٤٦) **وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (٤٧) [الطور: ٤٥-٤٧]، قال

ابن أبي العز **رَحِمَهُ اللَّهُ**: وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ فِي الْبَرْزَخِ، وَهُوَ أَظْهَرُ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَاتَ وَلَمْ يُعَذَّبْ فِي الدُّنْيَا، أَوِ الْمُرَادُ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ (٣). اهـ.

وقد بوب البخاري في «صحيحه»: بَابُ مَا جَاءَ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ

تَرَكَتُمْ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: الْهُونُ: هُوَ الْهُوَانُ، وَالْهُونُ: الرَّفْقُ وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿سَنَعَدِبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّوْنَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ (٥٥) **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

قال الحافظ **رَحِمَهُ اللَّهُ** في شرح الآية الأولى: وَهَذَا وَإِنْ كَانَ قَبْلَ الدَّفْنِ فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْعَذَابِ الْوَاقِعِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ الْعَذَابُ إِلَى الْقَبْرِ لِكَوْنِ مُعْظَمِهِ يَقَعُ فِيهِ، وَلِكَوْنِ الْغَالِبِ عَلَى الْمَوْتَى أَنْ يُقْبَرُوا. وَإِلَّا فَالْكَافِرُ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعْذِيْبُهُ مِنَ الْعُصَاةِ يُعَذَّبُ بَعْدَ مَوْتِهِ وَلَوْ لَمْ يُدْفَنْ؛ وَلَكِنَّ ذَلِكَ مُحْجُوبٌ عَنِ الْخَلْقِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ. قَوْلُهُ: وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿سَنَعَدِبُهُمْ

مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١] وروى الطَّبْرِيُّ، وابن أبي حَاتِمٍ، وَالتَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» أَيضًا: مِنْ طَرِيقِ السُّدِّيِّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ، عَنْ بِنِ عَبَّاسٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**، قَالَ: حَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ

(١) «تفسير القرآن» (١٤٦/٧).

(٢) «فتح الباري» (٢٣٣/٣).

(٣) «شرح الطحاوية» (٣٩١).

الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: «أَخْرُجْ يَا فَلَانُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ» فَذَكَرَ الْحَدِيثَ. وَفِيهِ فَفَضَحَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ، فَهَذَا الْعَذَابُ الْأَوَّلُ، وَالْعَذَابُ الثَّانِي عَذَابُ الْقَبْرِ. وَرَوَى أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ نَحْوَهُ، وَمِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الْحُسَيْنِ: ﴿سُئِلَ عَنْهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١] عَذَابُ الدُّنْيَا، وَعَذَابُ الْقَبْرِ.

وقال الحافظ رحمه الله: وَقَالَ الطَّبْرِيُّ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اخْتِلَافًا عَنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ: وَالْأَعْلَبُ أَنَّ إِحْدَى الْمَرَّتَيْنِ عَذَابُ الْقَبْرِ، وَالْأُخْرَى تَحْتَمِلُ أَحَدًا مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْجُوعِ، أَوِ السَّبْيِ، أَوِ الْقَتْلِ، أَوِ الْإِذْلَالِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ (١). اهـ.

﴿٢٥﴾ وقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، قال الإمام البخاري رحمه الله: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عُندَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ بِهِذَا - وَزَادَ - ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [إبراهيم: ٢٧] نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ (٢).

﴿٢٦﴾ وقال ابن رجب رحمه الله تعالى: وَأَمَّا نَعِيمِ الْقَبْرِ، فَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ (٨٨) ﴿فَرُوحٌ وَرِجَانٌ وَحَنْتٌ نَعِيمٌ﴾ (٨٩) [الواقعة: ٨٨-٨٩] (٣). اهـ. وأقول: وعذاب القبر يدل عليه في هذه الآية أيضًا: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الصَّالِينَ﴾ (٩٢) ﴿فَرُلٌّ مِنَ جَمِيمٍ﴾ (٩٣) وَنَصْلِيَّةٌ جَمِيمٌ (٩٤) [الواقعة: ٩٢-٩٤].

﴿٢٧﴾ واستدل كذلك ابن القيم رحمه الله في كتابه «الروح» على النعيم والعذاب في القبر، فقال: وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦١) [السجدة: ٢١]، وَقَدْ اِحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ.

وقال رحمه الله: وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيَنَّهَا نَفْسُ الْمُطْمَئِنِّةِ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُرْضِيَةً﴾ (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبْدِي (٢٩) وَأَدْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)، وَقَدْ اِحْتَلَفَ السَّلَفُ مَتَى يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يُقَالُ لَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَظَاهِرُ اللَّفْظِ مَعَ هَؤُلَاءِ؛ فَانْهَ خَطَابُ النَّفْسِ الَّتِي قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنِ الْبَدَنِ وَخَرَجَتْ مِنْهُ، وَقَدْ فَسَّرَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ وَغَيْرِهِ: «يُقَالُ لَهَا: أَخْرِجِي رَاضِيَةً مُرْضِيًا عَنْكَ» وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبْدِي﴾ (٢٩) [الفجر: ٢٩] مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى»، وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ أَحَادِيثَ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ وَجَدْتَهَا تَفْصِيلًا وَتَفْسِيرًا لِمَا دَلَّ

(١) (٢٣٣/٣).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١)، عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) «أحوال القبور» (٦١).

عَلَيْهِ الْقُرْآنَ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ (١). اهـ.

﴿ وقد استدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ (٢) ﴾

[التكاثر: ١-٢]، لكن من باب الفائدة الحديث الذي أخرجه الترمذي، من طريق الحجاج - بن أرطاة -، عَنِ الْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا زِلْنَا نَشْكُ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] (٢)، والحديث ضعيف، حجاج بن أرطاة الراجح ضعفه، والمنهال بن عمرو لم يسمع من زر كما في «التهذيب»، والحديث قد تقدم.

﴿ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]، استدلت بها

على عذاب القبر.

﴿ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ وِرَائِهِمْ بَرَزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٠) ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] قال ابن كثير

رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكر الآية: تَهْدِيدٌ لِهَوْلِ الْأَمْرِ الْمُحْتَضِرِينَ مِنَ الظُّلْمَةِ بِعَذَابِ الْبَرَزَخِ (٣). اهـ.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: حقاً سوف تعلمون إذا زرتهم المقابر زيارة الموت أنكم كنتم في

غفلة عن طاعة الله. ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تأكيد لعلمهم للحال الواقع، ولكنه علم لا يستفيدون منه؛ لأنه كما يقال: علم جاءهم في الوقت الضائع، في الوقت الذي لا يستطيعون الرجوع فيه. وأما أهل الإيمان فهذا عندهم مذكور في كتاب ربهم وفي سنة نبيهم ﷺ، وأجمع عليه السلف، فهم يؤمنون بالقبر وما فيه من النعيم والعذاب، ويؤمنون بالبعث والنشور؛ ولذلك يبادرون بالطاعات والقربات، ويمثلون شرع الله، وتوحيده، بخلاف الكافر، قال

تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيكَ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَوْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ

عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنُرْثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا

(٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكُفْرِينَ تَوْزُهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آذَى (٨٥) وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا (٨٦) ﴾ [مریم: ٧٧-٨٦].

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ علماء يقيناً وأن هذا واقع، وذلك حين رؤية الجحيم.

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ أي: يقع لكم علم اليقين حين رؤية الجحيم، لكن هذا كقول الله

عَزَّجَلَّ: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ

(١) «كتاب الروح» (٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٥٥).

(٣) «تفسير القرآن» (٤٩٥/٥).

فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ [الأعراف: ٥٣]، وسميت بالجحيم؛ لأنها توقد بالجمر ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، نسأل الله السلامة.

﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ وهذه هي أكبر أنواع الرؤى، أن الكافر يرى النار رؤية عين يقين، فيتيقن وجودها، ويتيقن عذابه فيها.

﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ وهذه آية عامة في حق المؤمن والكافر، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ - أَوْ لَيْلَةٍ - فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالَ: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا أَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قَوْمُوا»، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرَحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ؟» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعِذُّ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِدْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَمَثْرٌ وَرَطْبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدِّيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ، وَالْحُلُوبَ»، فَذَبَحَ هُنَّ، فَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِدْقِ وَشَرَبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمُ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمُ هَذَا النَّعِيمُ»^(١).

وانظر إلى هذه الآية المشعرة لمعنى حديث أبي برة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ»^(٢).

فجلوسنا في هذا المسجد يعتبر من النعيم، وأكلنا وشربنا من النعيم، والجلوس تحت المراوح والمكيفات من النعيم، فكل هذا مسؤول عنه، والله المستعان.

والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٧).

مكية الجزء الثامن: سُورَةُ الْعَصْرِ آياتها ٢

سُورَةُ الْعَصْرِ ، **سُورَةُ مَكِّيَّةٌ**، والمؤمنون جميعاً رجالهم، ونساءهم، وشبابهم، وشيوخهم، وجنّهم، وانسهم، يجب عليهم ويتحتم أن يعملوا بهذه السورة العظيمة؛ وذلك لأن الدين قائمٌ على ما دلت عليه، ولأن سلامة العبد المؤمن من العطب، ومن الخسارة الدنيوية والأخروية، لاحقٌ لذلك والله **عَزَّجَلَّ** كما تعلمون وتعتقدون أنه أحسن قِيلاً وأصدق حديثاً، وقد أقسم قسماً بمخلوق من مخلوقاته وله ذلك ﴿ **لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ** ﴾ (٢٣) [الأنبياء: ٢٣]، يقسم بها شاء تعظيماً لذلك المخلوق، ولا يجوز للمخلوق أن يحلف بغير الله تعالى، **وملخص ما يقسم به يعود إلى قسمين:**

١- الأول: الحلف بأسماء الله وصفاته وهذا هو الذي لا ينعقد إلا هو.

٢- الثاني: الحلف بغير الله **عَزَّجَلَّ**، والحلف به محرم وصاحبه بين عظيمتين: أحدها: الشرك الأكبر إن قرنه تعظيماً للمحلوف به والآخر: شرك أصغر.

وأما الحلف في القرآن بغير الله **عَزَّجَلَّ** فالجواب عليه ما قال ابن الملقن **رَحِمَهُ اللهُ**: عنه جوابان:

١- أحدهما: أنه على حذف مضاف كما سلف في الحديث، - يشير: إلى تقدير ورب الشمس ورب مواقع النجوم -.

٢- ثانيهما: أن الله تعالى يقسم بها شاء للتنبيه على شرفه؛ فإنه المتصرف في ملكه كيف يشاء ونحن لا نتصرف إلا كما أذن لنا وقد أبلغنا نبيه **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**، فقال: **«مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»** (١). اهـ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ **وَالْعَصْرِ ١** ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ **حَسِيرٌ ٢** ﴿ **إِلَّا الَّذِيْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ وَتَوَاصَوْا ٣** ﴾ **بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٢** ﴾

قوله تعالى: ﴿ **وَالْعَصْرِ** ﴾ **العصر:** الزَّمَانُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ حَرَكَاتُ بَنِي آدَمَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُوَ الْعَيْشِيُّ، وَالْمَشْهُورُ الْأَوَّلُ (٢). اهـ.

(١) «الإعلام بفوائد عمدة الأحكام» (٢٥٨/٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤٨٠/٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ أكد خسارة الإنسان بحرف التوكيد إن وباللام الداخلة في خبره كما أكده بالقسم، وهذه التوكيدات الثلاث تدل على دلالة واضحة على أهمية هذا الأمر الذي فيه صلاحك، وصلاح معادك، وصلاح حياتك ومماتك، والمراد بالإنسان جنس الإنسان فكل إنسان في خسارة وضياع إلا من استثناه الدليل على ما يأتي.

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ استثنى الله عز وجل طائفة واحدة من هذه الخسارة، والناس يتفاوتون منهم من يخسر بشهوته، ومنهم من يخسر بشبهته، ومنهم من يخسر بها جميعا ويتبع هواه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍو وَخَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ. وَقَلْبِهِ. وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؕ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٦١﴾﴾ [ص: ٢٦]، وإنما ينسى يوم الحساب أهل الخسارة، أهل البعد والإعراض، أهل الجحود، أهل الكفر والعناد، فالسالمون من الخسارة الدنيوية والأخروية صنف واحد، وكلُّ يقول: أنا هو.

وَكُلُّ يَدْعِي وَضَلًّا لِلَّيْلِ * * * * * وَكُلِّي لَا تُفْرُهُمْ بِذَاتَا

فالدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات أصحابها أديعاء، والنبى ﷺ يقول كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَاءَهُمْ، وَلَكِنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ» (١).

فما هي الصفات التي يوصف ويتميز بها أهل السلامة من الخسارة؟

قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هذا بيان لمن استثناه الله تعالى من صنف الخسارة في الدارين.

﴿ فالشرط الأول: الإيمان: ﴾ ويشمل أركان الإيمان الستة، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

﴿ الإيمان بالله: ﴾ يتضمن الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسائه وصفاته.

﴿ الإيمان برسول الله ﷺ: ﴾ يتضمن الإيمان بما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

﴿ الإيمان برسول الله عليهم الصلاة والسلام: ﴾ يستلزم الإيمان بما أخبر من الرسل فنؤمن بمن عرفنا

(١) حديث حسن رواه البيهقي (٢١٢٠١) وغيره هكذا، وبعضه في «الصحيحين».

من أساءهم ونؤمن بمن لم نعرف، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقُصِّصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] ونؤمن ونقر ونعترف ونعتقد أن محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء، ودينه ناسخٌ لجميع الشرائع والأديان، فمن زعم أنه يسعه الخروج من شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى فقد كفر.

ونؤمن أن من لم يؤمن بمحمد ﷺ من اليهود والنصارى وغيرهم فهو كافر، لحديث النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِأَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» (١).

دع الإيمان بكتب الله: فنؤمن بأن الله عزَّ وجلَّ أنزل التوراة والإنجيل وأنزل صحفًا على إبراهيم وصحفًا على موسى وأنزل على داود الزبور وأنزل كتبًا غير ذلك، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] فنؤمن بها إجمالاً على أنها من عند الله، وأنها قد حُرفت وبُدلت وغيَّرت بخبر الله الحق إلا القرآن.

ثم نؤمن أن هذا القرآن ناسخ لجميع الكتب، قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، مهيمنٌ على جميعها وناسخ لها وأنه محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فنعمل بمحكمه ونؤمن به وما أشكل وأشتبه علينا منه نرده إلى أهل العلم لعلمهم به وإن لم نجد فنقول كما قال تعالى: ﴿ ءَأَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧]

دع الإيمان بالملائكة: فنؤمن بملائكة الله وبمن سمي منهم ومن لم يسم وبأنهم خلق ولهم صفات، خلقهم الله من نور كما خلق الجن من نار وخلق الإنسان من طين كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» (٢).

وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأن لهم وظائف منهم ملك الجبال، وجبريل، وميكائيل، وحملة العرش، وإسرافيل، وغير ذلك مما هذا ليس موطن بسطه.

(١) أخرجه مسلم (١٥٣)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

﴿ الإيمان باليوم الآخر: ﴾ فنؤمن باليوم الآخر وما فيه من الصراط، والميزان، والحوض، وتطائر الصحف، ويدخل فيه عذاب القبر ونعيمة، والضمة والفتنة، وغير ذلك. والنظر إلى وجه الله **عَزَّجَلَّ**، ونؤمن بالجنة والنار، وأنها مخلوقتان لا تبيدان.

ونؤمن بما أخبر الله **عَزَّجَلَّ** من المغيبات فنؤمن بخبر الله **عَزَّجَلَّ**، ونؤمن بخبر رسول الله **ﷺ**.

﴿ وتؤمن بالقدر خيره وشره، ﴾ وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك جف القلم بما هو كائن.

ومراتب القدر أربعة:

العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق دل عليها أدلة الكتاب والسنة، والقدر سر الله **عَزَّجَلَّ** وعلمه، وأعظم الناس جهلاً به من تعمق في الخوض فيه، وأعظم الناس علماً به من آمنوا به وجمعوا بين الآيات بعيداً عن أفكار المجبرة من الجهمية والأشاعرة وأفكار النفاة من المعتزلة. فالإيمان بالله والإيمان بما ذكر يُنمي في الإنسان محبة الخير ويدعوه إلى نشر الخير، ويحذره من الشر والضير، لأنه يعلم أنه عبد مخلوق مربوب، وبأن الله **عَزَّجَلَّ** أمره ونهاه، وبأن الله **عَزَّجَلَّ** أرسل إليه ملائكة حافظين، وأرسل إليه رسلاً يعلمونه ما جهل، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥ ﴾ [الإسراء: ١٥].

والإيمان بالقدر فيها الاستسلام والانقياد لله **عَزَّجَلَّ** والرضا بقضاء الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر فيه الحث على ملازمة الطاعات والقربات فإن العمر قصير وما تقدم عليه عسير. قوله: ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي لازموا فعل الطاعات والقربات فكل ما أمر الله تعالى به فهو من الصالحات.

﴿ فالشرط الثاني للسلامة من الخسارة: ﴾ ملازمة العمل الصالح: فمدعي الإيمان كثير؛ لكن ينبغي أن يقرن القول بالعمل، ولهذا قرن الله **عَزَّجَلَّ** بين الإيمان والعمل في ستة وخمسين موضعاً من القرآن، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝٩٦ ﴾ [مريم: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ ﴾ [الكهف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ ﴾ [الكهف: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]،

في آيات طيبات مباركات كثيرة.

ويعرف الإيـمان عند أهل السنة والجماعة بأنه قول باللسان وعمل بالجوارح واعتقاد بالقلب، وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَبْدِ بْنِ عَدِيِّ: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ، وَشَرَائِعَ، وَحُدُودًا، وَسُنَنًا، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الْإِيمَانَ، فَإِنْ أَحْسَ فَسَأَبِيئُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أُمَّتْ فَمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ»^(١).

والأعمال داخلية في مسمى الإيـمان وليست بخارجة عنه كما زعم المرجئة الذين يزعمون أن الذي لا يعمل والذي يعمل سواء حتى قال قائلهم والإيـمان أهله في أصله سواء أو كما قال الطحاوي، وقال قائلهم لما رأى امرأة ترقص هذه على إيـمان امرأت عمران، وقال الآخر أنا على إيـمان جبريل وميكائيل.

فالصلاة والحج والزكاة والجهاد وصلة الرحم وغيرها من الطاعات كلها من الإيـمان، والإيـمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات والقربات وينقص بالمعاصي والسيئات والبدع والشركيات وأدلة زيادة الإيـمان ونقصانه ليس هذا موطن بسطها، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَزِدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدُوا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ أَحْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُونَهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَرِّدَادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَمَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيْمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَأَخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيْمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي أن دينهم قام على النصيحة.

مع الشرط الثالث من شروط السلامة: التواصي بالحق، فالله عَزَّوَجَلَّ حق ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَكْذُوبُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(١٢) [الحج: ٦٢]، والقران حق كما اخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿سَرِّبْهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، والنبي ﷺ حق، كما قال ﷺ في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَلَكَّ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ﴾^(٢) الحديث.

(١) ذكره البخاري (١٠/١) في كتاب الإيـمان.

(٢) متفق عليه، البخاري (١١٢٠) ومسلم (٧٦٩).

فمن هذا كله ونتواصى بالحق الذي هو القرآن والسنة؛ لأنه جاء من عند الحق سبحانه وتعالى؛ ولأن الذي جاء به الداعي إلى الحق محمد ﷺ؛ ولأن ما يضاد القرآن والسنة باطل وإذا تزاحم الباطل مع الحق ذهب الباطل، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١ ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال الله عزَّجَل: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ٢٩ ﴾ [الكهف: ٢٩]، وهذا ليس بالتخيير وإنما هو بالتهديد قال الله عزَّجَل: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْهُمُ سُورَاتُهَا ٢٩ ﴾ [الكهف: ٢٩]، أي من تخلف عن الحق وعن أصحابه وأهله ولازم سبيل المجرمين: ﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُوا يَعَاثُوا بِمَاءٍ كَأَمْهَلِ يَشْوِي الْوُجُوهُ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ٢٩ ﴾ [الكهف: ٢٩]. لما كانوا ليسوا بأصحاب حق اغيثوا بنظير ما كانوا فيه يزيدهم شدة إلى شدتهم، وعناء إلى عناءهم، وعذاب إلى عذابهم.

فالله عزَّجَل أقسم أنه الحق وبالحق يقول، قال عزَّجَل: ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ٨٤ ﴾ [ص: ٨٤] فالله بالتواصي بالحق والدعوة إلى الحق والحق هو الكتاب والسنة فادع إليهما تفلح، وتربح، وتنجح، ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وطريقة النبي ﷺ الدعوة إلى الحق، ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨] أي على علم ومعرفة بالحق ومعرفة بالباطل الذي يحذر منه، والذي ما عنده معرفة بالحق ومعرفة بالباطل يدخل على الناس ما ليس من الحق ويدخل على الناس الباطل؛ ولهذا قال الله عزَّجَل: ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨] أي على حق ومعرفة وبيان أنا ومن اتبعني، كلنا ندعو إلى الله على بصيرة وحق نعرفه ونعتقده وندين به. فالحق الحق لازمه على نفسك، لازمه على غيرك، لازمة بحضرك، لازمه بسفرك، واحذر من تلبيسات الشيطان أن يعظم نفسك إليك فلا تظن أن الحق إلا فيه أو أن يعظم بعض الناس إليك لا تظن أن الحق إلا فيه.

فالحق هو الكتاب والسنة، والناس يصيبون ويخطئون، ويعلمون ويجهلون، فالواجب على المسلم أن يكون ذهابه وإيابه وقيامه وقعوده على طريقة الكتاب والسنة ففيها السلامة من العطب وفيها طريق الوصول، قال النبي ﷺ كما في حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ تَقْلَيْنِ أَوْهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ ... ثُمَّ قَالَ وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي» (١).

فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به فهو حبل الله المتين من تمسك به نجا، ومن تركه ضل وغوى، انصر الحق الذي هو سنة رسول الله ﷺ وامش به وادع به وهذا يحتاج إلى علم وإلى عمل، والدليل هو أن الله عز وجل إنما أمر بالتواصي بالحق لما ذكر قبل ذلك الإيمان والعمل.

فالإنسان العامل ربما تكون دعوته الفعلية أبلغ بكثير من دعوته القولية، والإنسان غير العامل ضرره كثير وكبير، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ خَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٌّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخْنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخْنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدًى، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُمْ جَمَاعَةً وَلَا إِمَامًا؟ قَالَ: «فَاعْتَرِزْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْصُ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ» (١).

فعلماء السوء وقفوا على أبواب الجنة يدعون الناس بأقوالهم ويصدونهم عنها بأفعالهم إلا أن تكون عالماً عاملاً فلازم الخير مع صديقك وعدوك، ومع موافقك ومخالفك، لتكن إرادة الخير منك للمسلمين حاصلة، هذا دين الله، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» (٢).

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بَيْنَ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ» (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سَعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا لَظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبْتَهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ سِئَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاصَتْ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٣) متفق عليه، البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣) واللفظ له.

عَيْنَاهُ^(١)، فالشاهد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه من أجل الحق وفي الحق وبالحق، إذا لم يكن هذا هو ديدنك وهذه طريقتك، والرسول ﷺ كان يجب للناس الخير وملازمة الحق حتى اشتد ذلك عليه فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

والحق ثقيل على الأنفس لأن أعداء الحق كثير ومنهم أهل الباطل بأنواعهم، والهوى، والنفس الأمارة، والشيطان، إذا أعداء الحق كثير فإن لم تجاهد نفسك من أجل العمل بالحق ومحبة الحق ومحبة الخير للمسلمين فانت صيد لما تقدم من الأعداء.

ولهذا أهل السنة أرحم الناس بالناس، لماذا؟ لأنهم يدعونهم إلى الحق اعتقادًا وعلماً وعملاً وإلى دار الحق التي هي إلى الجنة، وإلى إرضاء الحق الذي هو الله عَزَّجَلَّ، والابتعاد عما يسبب لهم العطب والنار الذي هي حق وعذاب القبر الذي هو حق. ومن أسباب انتشار الدعوة بين الناس محبته الله تعالى لما هو حق، ومحبته هداية الناس للحق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور من ظلمات الشر وظلمات البدع من ظلمات المعاصي من ظلمات الأهواء إلى النور الذي قال الله عَزَّجَلَّ عنه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أي يخرجهم من الباطل إلى الحق ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي يخرجهم الشيطان من الحق الواضح الجلي البين الظاهر إلى الباطل الصرف.

فليكن حالك الدعوة إلى الحق، والترغيب فيه، والبيان للحق، الحق يحتاج إلى بيان لأن صورة الحق تُشوهه بسبب كثرة المخالفين، وداعي الحق يُشوهه بسبب كثرة الأعداء؛ فلهذا الحق يحتاج إلى بيان بالصبر والرفق واللطف بالعباد وعدم الانتقام للنفس، لو أن الإنسان ينتقم لنفسه ما خرج ولا تكلم ولا ألف ولا صنف ولا أمر ولا نهى، كم من الناس تنصح له وهو يتتبع زلة منك وهفوة وكلمة ليطير بها فرحاً وما يحرص على سماع الحق والاستفادة من الحق وعلى ملازمة الحق، وإنما قد فرخ الشيطان في رأسه فيحاول دائماً في أذية الحق في طريقة أو بأخرى بينما الذي يجب على المسلم أن يصبر ويتصبر من أجل هذا الحق، قال الله عَزَّجَلَّ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ركز معي صاحب حق أرسله الحق لماذا؟

﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [٥٩]

(١) متفق عليه، البخاري (٦٦٠) واللفظ له، ومسلم (١٠٣١).

[الأعراف: ٥٩]، دعاهم إلى عبادة الحق سبحانه وتعالى ف ﴿ قَالَ أَلَمَّا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [٦٠] [الأعراف: ٦٠]، لكن لما كان هذا القول منهم باطل، ولما كان نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنده همة عالية في الدعوة إلى الحق حتى صبر عليهم ألف سنة إلا خمسين عاما قال: ﴿ يَقَوْمَ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٦١] [الأعراف: ٦١]، يا ليت نستطيع أن نسلك مثل هذا السلوك العظيم يقولون له أنت ضال، أنت منحرف، فلم يعنّف ولم يشتد حتى ينفذ، وإنما قال: ﴿ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ ﴾ [الأعراف: ٦١]، هذا الاتهام الذي اتهمتموني به ليس بصحيح، لست من أهل الباطل، ولست من أهل الخنا، ولست من دعاة الزور، ولست من دعاة الفجور ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٦١] أُبَلِّغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٦٢-٦١] [الأعراف: ٦٢-٦١]، انظر إلى هذا الخير العظيم حرص على الهداية مع أنه إذا قال لهم أنتم المعرضون، أنتم المبتلون، أنتم الضالون، أنتم المخالفون، ما أنكر عليه لكنه حريص على بث الخير، وهكذا ثمود قالوا لنبي الله هود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [٦٦] [الأعراف: ٦٦] فإذ كان يرد عليهم بنفس الرد اللطيف: ﴿ قَالَ يَقَوْمَ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٦٧] أُبَلِّغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [٦٨] [الأعراف: ٦٧-٦٨].

والنبي ﷺ يسبونه ويشتمونه ويكسرون المغفر على رأسه وتكسر البيضة وتكسر رباعيته وهو يقول: ﴿ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)؛ لأن صاحب الحق مراده رد الناس إلى الحق لا التشفي والتلهي والصد وإنما مراده الخير والبر، ولهذا لما دعا عليهم عاتبه الله عَزَّجَلَّ بقوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [١٢٨] [آل عمران: ١٢٨]، فالأمر كله لله عَزَّجَلَّ، فإذا عباد الله، الواجب علينا أن نتواصى بالحق بعد علمنا وعمَلنا، نوصي غيرنا ونوصي أنفسنا لأن الوصية من أعظم الوسائل لنشر الحق ونشر الخير ونشر البر. قوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

﴿ ثم الشرط الرابع: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ وهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا تواصي بالحق، وهل النصيحة التي قال عنها النبي ﷺ: ﴿ الدِّينُ النَّصِيحَةُ ﴾ (٢)، إلا تواصي بالحق، وهل

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٥) عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الخطابة والتصنيف والتأليف إلا تواصي بالحق، وهل التدريس إلا تواصي بالحق، كل ذلك من الحق الذي يتواصى به أهل السنة أهل الحق أهل الاستقامة، وأيضاً التواصي بالصبر فالحق كما تقدم ثقيل والشيء الثقيل يحتاج إلى صبر.

والحق أيضاً له أعداء والأعداء يؤذون، يؤذون بالأقوال، يؤذون بالأفعال، يؤذون بالباطل

الذي هم عليه، فتحتاج إلى صبر عليه، ولهذا قال موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقومه: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

لأنهم بلغوا في التحمل مبلغاً من حيث أذية فرعون وقومه لهم؛ ولهذا دلهم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على طريق يوصلهم إلى انتشار الحق الذي يدعون إليه، وإلى ثباتهم على الحق

الذي يدلون عليه ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وأخبرهم أن الأرض لله

يورثها أهل الحق من عباده ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٢٨] العاقبة لأهل الحق

أهل التقى أهل الصلاح، والتواصي بالصبر أمر مطلوب ومرغب فيه ومحبوب لأن الله عَزَّجَلَّ

يجب الصابرين على ملازمة الحق، والصابرين عن البعد عن الباطل، والصابرين الذين يصبرون على أذية أهل الباطل، فالله يحب الصابرين بأصنافهم الثلاثة.

فالمطلوب منا إيمان وعمل، ومن تمام الإيمان والعمل التواصي بالحق والتواصي بالصبر،

وهذه الدعوة المباركة دعوة أهل السنة والجماعة إنما انتشرت بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ما قالوا: نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

ولا قالوا: منهجنا واسع أفيح يسع الأمة ويسع أهل السنة، ولا قالوا: لا نجعل خلافتنا في غيرنا

بسبب الخلاف بيننا، ولا قالوا: نصحح ولا نهدم، وإنما قالوا: نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر.

إننا في زمن كثر شره وقل خيره، كثر باطله وقل حقه، وإننا بحاجة إلى المراجعة لأنفسنا

لعودتنا إلى كتاب ربنا وإلى سنة نبينا ﷺ وملازمة ذلك في جميع أوقاتنا ولحظاتها، وحركاتنا

وسكناتنا، ولتتحاب فيما بيننا، ولتتناصح فيما بيننا، ولندعو لبعضنا، ولنرحم بعضنا، فإن الشر

كثير وأنت غريب فإذا لم يقع بيننا ذلك فمن الذي سيقوم بنا ومن الذي سيرحمنا ونحن غرباء،

والغرباء يتعاطفون ويتزاورن ويتراحمون ويتناصحون، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»،

فَقِيلَ: مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أُنَاسٌ صَالِحُونَ، فِي أُنَاسٍ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ

مَنْ يُطِيعُهُمْ» (١).

(١) أخرجه أحمد (٦٦٥٠)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالغريب يلزم الدعوة إلى الحق والذين يعصونه كثير، والغريب يقبل على الله، ويقبل على الخير، ويقبل على البر.

﴿ والسلفية ليست قميص يتقمص فيه من شاء وينزعه من شاء. ﴾

﴿ السلفية ليست ادعاء. ﴾

﴿ السلفية علمٌ وعملٌ واعتقادٌ ونيةٌ. ﴾

﴿ السلفية هي دين الله الحق الذي انزله على محمد ﷺ. ﴾

﴿ السلفية هي دعوة النبي ﷺ بفهم أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير

وسعد، وسعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وغيرهم من الرعيل الأول ومن تبعهم بإحسان.

لنكن كلنا أدوات بناء لهذه الدعوة، لنبنها بالطاعات، بالقرابات، لبث الخير والعلم،

والبعد عن كل ما يناقض الكتاب والسنة، والبعد عن كل ما يخالف الكتاب السنة.

الإنصاف مع أنفسنا ومع خصومنا، فعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مِّنْ

اسْتِكْمَالِهِنَّ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ بِهِنَّ الْإِيمَانَ: إِنْصَافٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ، وَبَدَلُ السَّلَامِ

لِلْعَالَمِ»^(١). لا تنصف لنفسك وتجور على غيرك، انصف لغيرك وانصف لنفسك، فإن هذا من

أسباب انتصار وظهور الدعوة السلفية.

هذه السورة العظيمة التي تكلمنا عن بعض فوائدها والتقضي يطول، والعمل بالصالحات

التي دلت عليها مطلوب منا جميعاً فالله الله في الخير وملازمته، والدعوة إليه، وعدم

الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فلنقبل على العلم والتعليم والدعوة، وليكن

قائدنا وإسوتنا ودليلنا في ذلك هو الكتاب والسنة، نعم المتمثلة في فهم سلف الأمة رضوان

الله عليهم أجمعين عباد الله، وكما قيل: «هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ»^(٢)،

قال تعالى: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوكَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فالعمل بهاء جاءنا في كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ

هو من أعظم أسباب الرفعة في الدنيا والآخرة ومن أسباب الفلاح.

اعْمَلْ بِعِلْمِكَ تَغْنَمْ أَيُّهَا الرَّجُلُ ❁ ❁ ❁ لَا يَنْفَعُ الْعِلْمُ إِنْ لَمْ يَحْسُنِ الْعَمَلُ

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٧١٣).

(٢) أخرجه ابن عساکر في «ذم من لا يعمل بعلمه» (١٤)، والخطيب في «اقتضاء العلم بالعمل» (٤٠)، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي

طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فاستفد من الذي يثبتك على الحق، ويدلك عليه، وإياك من تتبع العثرات والزلات والكلمات خصوصاً السني السلفي، الخطأ مردود ممن قاله، ومن عمله، لكن تحضر عند رجل عند شيخ عند مدرس وأنت لا تريد الإصغاء والاستفادة وإنما تريد مما يخرج من فيه فإذا ما خرج طرت مشرقاً ومغرباً، سبحان الله! ليكن حالنا إذا خرج الخير نشرناه، وإذا وقع من الإنسان الذي هو معروف بسلامة المعتقد وحسن المقصد ما نظنه يخالف الخير نصحنه وبيناه إذا علم أنه إنما هي كلمة خرجت أو كذا النصيحة للمسلمين، «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» (١).

وإن علم أنه خطأ فادح في العقيدة حذر من الخطأ، ولا يسابق العلماء، ولا يستعجل بالأحكام، بل يلازم العلماء: ﴿فَسَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢) [النحل: ٤٣]، فما أمر الله بسؤالهم والعودة إليهم إلا لفضلهم ومنزلتهم وتعقلهم وتفهمهم ووضعهم للأمر في موطنها، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣) [العنكبوت: ٤٣].

فالله الله بالتفقه وطلب العلم استغلوا أوقاتكم واستغلوا لحظاتكم في ذلك، فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ قِيلَ لَهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: مَا تَشْتَهِي؟ قَالَ: «بَيْتٌ خَالِي، وَإِسْنَادٌ عَلِيٌّ» (٢). وفي حديث عائشة أم المؤمنين، وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ عند موته جعل يمسح عن وجهه، ويضع الحُمرة على وجهه فإذا اغتم كشفها - وهو بيث العلم ويدعو إليه - وهو يقول: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» (٣). وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «يَا خَالُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَقَالَ: أَخَالَ أَمْ عَمُّ؟ فَقَالَ: «لَا، بَلْ خَالُ»، قَالَ: فَخَيْرٌ لِي أَنْ أَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَعَمْ» (٤).

ولما جاء إلى ذلك اليهودي الغلام كما في حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ»، فَظَنَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطَعِ أَبَا الْقَاسِمِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ» (٥).

(١) أخرجه مسلم (٥٥) عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن الصلاح في «مقدمته» (٢٥٦).

(٣) متفق عليه، البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).

(٤) أخرجه أحمد (١٢٥٤٣).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ شَابًّا يُشْنِي عَلَيَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ طُعِنَ وَالنَّاسُ يُشْنُونَ عَلَيْهِ - فَلَمَّا أَدْبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَسُّ الْأَرْضَ، فَقَالَ: «يَا ابْنَ أَخِي، ازْفَعْ إِزَارَكَ فَإِنَّهُ أَتَقَى لِرَبِّكَ وَأَنْتَقَى لِثَوْبِكَ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: يَرْحَمُ اللَّهُ عُمَرَ لَمْ يَمْنَعَهُ مَا كَانَ فِيهِ أَنَّهُ رَأَى حَقًّا لِلَّهِ يَتَكَلَّمُ فِيهِ ^(١).

فنحن مطالبون جميعًا بالعلم والعمل والدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ونسأل الله ذلك، نسأل الله الهداية والتوفيق والسداد، نحن في الله وباللله فإذا خالفنا ذلك فإن العطب مصيرنا ومآلنا.

وسبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/٩٣٥).

مكية

سُورَةُ الْبَلَاغِ سُورَةُ الْهُمَزِ

آياتها ٩

سُورَةُ الْهُمَزِ ، سُورَةُ مَكِّيَّةٌ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزٍ لَمَزَةٌ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخُطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾

يقول الله عزَّجَلَّ: ﴿وَبِئْسَ﴾ عذاب موجع، وقيل وادي في جهنم، ولا يثبت في ذلك شيء.
﴿لِكُلِّ هُمْزٍ لَمَزَةٌ﴾ الهمز يكون بالفعال: كغمزة العين، وإشارة اليد، ونحو ذلك، واللمز يكون باللسان: كالتقصص، والتنازب بالألقاب، والشتيم، ونحو ذلك، وقد ذكر بعضهم عند هذه الآية أن الله عزَّجَلَّ توعد صنفين مما يتعلق بتعامل الإنسان مع غيره فقد حرم الله أكل مال الناس بالباطل، كما حرم الهمز، واللمز، والاحتقار للغير:

❖ الأول: الذي يلمز الناس بالقول والفعل.

❖ الثاني: الذي يأكل أموال الناس بالباطل ﴿وَبِئْسَ لِلْمُطَفِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ

يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾﴾ [المطففين: ١-٢].

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي: هذا اللمزة الذي يسخر من الناس جمع مالا كثيرا وعدده، لكن هذا المال لم يغن عنه شيئا؛ لأنه جمعه من غير حله، واستخدمه في غير حله، والمال كثرته وبال إن كان قد أخذ من الحرام، فإن الإنسان يسأل عنه، ويحاسب عليه، وقد قال بعضهم: حلاله حساب وحرامه عقاب. وفي هذا دليل أن كثيرا من الناس ييطرون إذا رزقهم الله مالا، وولدا، وإذا افتقر ربا تواضع، فإذا أعطاك الله مالا فهو منته منه وفضل، فاشكره عليه وأد حق الله تعالى فيه.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي: هذا الهماز اللماز جماع الأموال ﴿يَحْسَبُ﴾ يظن، أي: يظن أنه سبب في خلوده، وما هو إلا وبال عليه.

﴿كَلَّا﴾ أي: حقا ليس ماله بمخلد له ولا بنافع له.

﴿لِيُبَدَّلَ فِي الْخَطْمَةِ﴾ أي: أنه سيلقى في النار، وسميت حطمة؛ لأنها تحطم من يلقي فيها؛ لشدة حرارتها، وحالها.

ثم قال معظمًا لشأنها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ﴾ أي: ما تدري ما هذه النار التي تسمى بالخطمة إنها ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ أضافها إلى نفسه إضافة ملك وتصرف، ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ التي تتقد ولا تنطفئ ولا تحمد، ومن صفاتها أنها: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ وهذا وصف يبين شدة هذه النار، حيث تصل إلى أفئدتهم، وتحرق الأفئدة والأجسام حية، فيتألم الإنسان ظاهرًا وباطنًا، بخلاف نار الدنيا، فإنها لاتصل إلى الفؤاد إلا وقد أحرقت البدن، وربما لحقه الهلاك، بينما هذه النار تصل إلى الفؤاد من الداخل، وما زال الجسم متألمًا من الخارج، والله المستعان.

وهذا تعلم أن شأن نار الآخرة غير شأن نار الدنيا، فنار الدنيا من أحرقت فيها مات، ونار الدنيا تبدأ بأحراق الظاهر قبل الباطن، بينما نار الآخرة من دخلها لا يموت فيها لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة المنعمين، وهذا في حق المخلدين فيها.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ أي: مع شدة حرارتها، وعظيم شأنها توصلت على أصحابها، مع أنهم لو تركوا ما فروا.

أَيْنَ الْمَقْرُ؟ وَالْإِلَهَ الطَّالِبُ وَالْأَشْرُمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرُ الْعَالِبِ

﴿فِي عَمْدٍ مُّمدَّدةٍ﴾ قيل في سلاسل، وقيل في أبواب تغلق عليهم، وقيل بأنهم يوضعون في مثل الصهاريج وتكون ممددة، فهذا وصف عظيم لذلك العذاب، فلو كان في النار يجري جريًا لكان عذابه شديدًا، فكيف وهو مع ذلك مقيد، ومصفد، ومضيق عليه، نسأل الله السلامة والعافية من هذه النار وبأس القرار.

والحمد لله رب العالمين.



مكية

الجزء الثلاثون سورة الفيل

آياتها ٥

سُورَةُ الْفِيلِ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا مَتَهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

هَذِهِ مِنَ النَّعْمِ الَّتِي أَمْتَنَ اللَّهُ بِهَا عَلَى قُرَيْشٍ، فِيمَا صَرَفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى هَدْمِ الْكَعْبَةِ وَخَوِّ أَثَرِهَا مِنَ الْوُجُودِ، فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ، وَأَرْغَمَ أَنَا فُهُمْ، وَخَيَّبَ سَعْيَهُمْ، وَأَصَلَ عَمَلَهُمْ، وَرَدَّهُمْ بَشْرَ خَيْبَةٍ. وَكَانُوا قَوْمًا نَصَارَى، وَكَانَ دِينُهُمْ إِذْ ذَاكَ أَقْرَبَ حَالًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ. وَلَكِنْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِرْهَاصِ وَالتَّوْطِئَةِ لِمَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وُلِدَ عَلَى أَشْهَرِ الْأَقْوَالِ، وَلِسَانُ حَالِ الْقَدْرِ يَقُولُ: لَمْ نُنْصُرْكُمْ - يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - عَلَى الْحَبْشَةِ لِحَيْرِيَّتِكُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ صِيَانَةٌ لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ الَّذِي سَنَشْرَفُهُ وَنُعَظِّمُهُ وَنُوقِرُهُ بِبِعْتَةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَهَذِهِ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ عَلَى وَجْهِ الْإِيْجَازِ وَالْإِخْتِصَارِ وَالتَّقْرِيبِ، قَدْ تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ أَنَّ ذَا نُوَّاسَ - وَكَانَ آخِرَ مُلُوكِ حِمَيْرٍ، وَكَانَ مُشْرِكًا - هُوَ الَّذِي قَتَلَ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ، وَكَانُوا نَصَارَى، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، فَلَمَّ يُفْلِتُ مِنْهُمْ إِلَّا دَوْسٌ ذُو ثُعْلَبَانٍ، فَذَهَبَ فَاسْتَعَاثَ بِقَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ - وَكَانَ نَصْرَانِيًّا - فَكَتَبَ لَهُ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبْشَةِ، لِكُونِهِ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ مَعَهُ أَمِيرَيْنِ: أَرِيَاطَ وَأَبْرَهَةَ بَنِي الصَّبَاحِ أَبَا يَكْسُومَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَدَخَلُوا الْيَمَنَ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَاسْتَلْبَوْا الْمُلْكَ مِنْ حِمَيْرٍ، وَهَلَكَ ذُو نُوَّاسَ غَرِيبًا فِي الْبَحْرِ. وَاسْتَقَلَّ الْحَبْشَةُ بِمُلْكِ الْيَمَنِ وَعَلَيْهِمْ هَذَانِ الْأَمِيرَانِ: أَرِيَاطَ وَأَبْرَهَةُ، فَاخْتَلَفَا فِي أَمْرِهِمَا وَتَصَاوَلَا وَتَقَاتَلَا وَتَصَافَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى اضْطِدَامِ الْجَيْشَيْنِ بَيْنَنَا، وَلَكِنْ ابْرُزْ إِلَيَّ وَأَبْرُزْ إِلَيْكَ، فَأَيُّنَا قَتَلَ الْآخَرَ، اسْتَقَلَّ بَعْدَهُ بِالْمُلْكِ. فَاجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ فَتَبَارَزَا، وَخَلَفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَنَاءً، فَحَمَلَ أَرِيَاطُ عَلَى أَبْرَهَةَ فَضْرَبَهُ بِالسَّيْفِ، فَشَرَمَ أَنْفَهُ وَفَمَهُ وَشَقَّ وَجْهَهُ، وَحَمَلَ عَتُودَةَ مَوْلَى أَبْرَهَةَ عَلَى أَرِيَاطَ فَقَتَلَهُ، وَرَجَعَ أَبْرَهَةُ جَرِيحًا، فَدَاوَى جُرْحَهُ فَبَرَأَ، وَاسْتَقَلَّ بِتَدْيِيرِ جَيْشِ الْحَبْشَةِ بِالْيَمَنِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ

يَوْمُهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَتَوَعَّدَهُ وَيَخْلِفُ لِبَطَانٍ بِلَادَهُ وَيَجِزَنَّا نَاصِيَتَهُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبْرَهَةَ يَتَرَقَّقُ لَهُ وَيُصَابِعُهُ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِهِ بَهْدَايَا وَتَحْفِيفٍ، وَبِحِرَابٍ فِيهَا مِنْ تُرَابِ الْيَمَنِ، وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ فَأَرْسَلَهَا مَعَهُ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ: لِيَطَّأَ الْمَلِكُ عَلَى هَذَا الْجِرَابِ فَيَبُرُّ قَسَمَهُ، وَهَذِهِ نَاصِيَتِي قَدْ بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ. فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِ أَعْجَبَهُ مِنْهُ، وَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَقْرَهُ عَلَى عَمَلِهِ. وَأَرْسَلَ أَبْرَهَةَ يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ: إِنِّي سَأَبِي لَكَ كَنِيْسَةً بِأَرْضِ الْيَمَنِ لَمْ يَبْنِ قَبْلَهَا مِثْلَهَا. فَشَرَعَ فِي بِنَاءِ كَنِيْسَةٍ هَائِلَةٍ بِصَنْعَاءَ، رَفِيْعَةَ الْبِنَاءِ، عَالِيَةَ الْفِنَاءِ، مُزَخْرَفَةَ الْأَرْجَاءِ. سَمَّيْتُهَا الْعَرَبُ الْقُلَيْسِ؛ لِارْتِفَاعِهَا؛ لِأَنَّ النَّاطِرَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسْقُطُ قُلُوسُوتُهُ عَنْ رَأْسِهِ مِنْ ارْتِفَاعِ بِنَائِهَا. وَعَزَمَ أَبْرَهَةَ الْأَشْرَمَ عَلَى أَنْ يَصْرِفَ حَجَّ الْعَرَبِ إِلَيْهَا كَمَا يُحْجِجُ إِلَى الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ، وَنَادَى بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ، فَكَرِهَتِ الْعَرَبُ الْعَدَنَائِيَّةَ وَالْفَحْطَانِيَّةَ ذَلِكَ، وَعَظِبَتِ قُرَيْشٌ لَذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى قَصَدَهَا بَعْضُهُمْ، وَتَوَصَّلَ إِلَى أَنْ دَخَلَهَا لَيْلًا. فَأَحْدَثَ فِيهَا وَكْرًا رَاجِعًا. فَلَمَّا رَأَى السَّدَنَةَ ذَلِكَ الْوَقْتِ، رَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى مَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا بَعْضُ قُرَيْشٍ غَضَبًا لِبَيْتِهِمُ الَّذِي ضَاهَيْتَ هَذَا بِهِ، فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةَ لِيَسِيرَنَّ إِلَى بَيْتِ مَكَّةَ، وَلِيُخْرِبَنَّهُ حَجْرًا حَجْرًا. وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَنَّ فِتْنَةً مِنْ قُرَيْشٍ دَخَلُوهَا فَأَجَجُوا فِيهَا نَارًا، وَكَانَ يَوْمًا فِيهِ هَوَاءٌ شَدِيدٌ فَأَحْرَقَتْهُ، وَسَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ.

فَتَأَهَّبَ أَبْرَهَةَ لِذَلِكَ، وَصَارَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَرْمَرَمٍ؛ لَيْلًا يَصُدُّهُ أَحَدٌ عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ فَيْلًا عَظِيمًا كَبِيرَ الْجُنَّةِ لَمْ يَرِ مِثْلَهُ، يُقَالُ لَهُ: مُحَمَّدٌ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ لِذَلِكَ. وَيُقَالُ: كَانَ مَعَهُ أَيْضًا ثَمَانِيَّةُ أَفْيَالٍ. وَقِيلَ: اثْنَا عَشَرَ فَيْلًا. وَقِيلَ غَيْرُهُ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ. يَعْنِي لِيَهْدِمَ بِهِ الْكَعْبَةَ، بَأَنَّ يَجْعَلُ السَّلَاسِلَ فِي الْأَرْكَانِ، وَتُوَضَّعُ فِي عُنُقِ الْفَيْلِ، ثُمَّ يُزَجَرُ لِيُلْقِيَ الْحَائِطَ جُمْلَةً وَاحِدَةً. فَلَمَّا سَمِعَتِ الْعَرَبُ بِمَسِيرِهِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ جِدًّا، وَرَأَوْا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِمُ الْمُحَاجَبَةُ دُونَ الْبَيْتِ، وَرَدَّ مِنْ أَرَادَهُ بِكَيْدٍ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ، يُقَالُ لَهُ «ذُو نَفَرٍ» فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَى حَرْبِ أَبْرَهَةَ، وَجِهَادِهِ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ، وَمَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ وَخَرَابِهِ. فَأَجَابُوهُ وَقَاتَلُوا أَبْرَهَةَ، فَهَزَمَهُمْ لَمَّا يُرِيدُهُ اللَّهُ، **عَرَجَلٌ**، مِنْ كَرَامَةِ الْبَيْتِ وَتَعْظِيمِهِ، وَأَسِرَ «ذُو نَفَرٍ» فَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ. ثُمَّ مَضَى لَوَجْهِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَرْضِ حَنْعَمٍ، عَرَضَ لَهُ نُقَيْلُ بْنُ حَبِيبِ الْحِشْعَمِيِّ فِي قَوْمِهِ: شَهْرَانُ وَنَاهِسُ، فَقَاتَلُوهُ، فَهَزَمَهُمْ أَبْرَهَةَ، وَأَسِرَ نُقَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ، فَأَرَادَ قَتْلَهُ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ لِيَدُلَّهُ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ. فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ، خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا ثَقِيفٌ وَصَانَعُوهُ حَيْفَةً عَلَى بَيْتِهِمْ، الَّذِي عِنْدَهُمْ، الَّذِي يُسَمُّونَهُ اللَّاتِ. فَأَكْرَمَهُمْ وَبَعَثُوا مَعَهُ أَبَا رِغَالٍ دَلِيلًا. فَلَمَّا انْتَهَى أَبْرَهَةَ إِلَى

وَارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ. ثُمَّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الْفَيْلُ. وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشْتَدُ حَتَّى أَصْعَدَ فِي الْجَبَلِ. وَصَرَبُوا الْفَيْلَ لِيَقُومَ فَأَبَى. فَصَرَبُوا فِي رَأْسِهِ بِالطَّبْرَزِينِ وَأَدْخَلُوا مَحَاجِنَ هُمْ فِي مَرَاقِهِ فَبَزَعُوهُ بِهَا لِيَقُومَ، فَأَبَى؛ فَوَجَّهَهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَامَ يَهْرُولُ. وَوَجَّهَهُ إِلَى الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ. وَوَجَّهَهُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ وَوَجَّهَهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ. وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ الْخَطَّاطِيفِ وَالْبَلْسَانِ.

مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مَنْقَارِهِ، وَحَجْرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، أَمْثَالُ الْخُمْصِ وَالْعَدَسِ، لَا تُصِيبُ مِنْهُمُ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ. وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَتْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلٍ لِيَدْتَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ هَذَا. وَنُفَيْلٌ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ مَعَ قُرَيْشٍ وَعَرَبِ الْحِجَازِ، يَنْظُرُونَ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَصْحَابِ الْفَيْلِ مِنَ النَّقْمَةِ، وَجَعَلَ نُفَيْلٌ يَقُولُ:

أَيْنَ الْمَفْرُ؟ وَالِإِلَهَ الطَّالِبِ ❀ ❀ ❀ وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرُ الْعَالِبِ

لَا يَغْلِبُنَّ صَالِيَهُمْ ❀ ❀ ❀ وَمَحَالُهُمْ غَدَاً مِحَالِكَ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ نُفَيْلٌ فِي ذَلِكَ أَيُّضًا:

أَلَا حُمِيَّتْ عَنَا يَا رُدَيْنَا ❀ ❀ ❀ نَعْمَنَا كُمْ مَعَ الْأَصْبَاحِ عَيْنَا

رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ وَلَا تَرِيهِ ❀ ❀ ❀ لَدَى جَنْبِ الْمُحْصَبِ مَا رَأَيْنَا

إِذَا لَعَذَرْتَنِي وَحَمَدْتَ أَمْرِي ❀ ❀ ❀ وَلَمْ تَأْسِنِي عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَنَا

حَمَدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا ❀ ❀ ❀ وَخَفْتُ حَجَارَةَ تَلَقَى عَلَيْنَا

فَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلِ ❀ ❀ ❀ كَأَنَّ عَلِيَّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا!

وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ بِأَسَانِيدِهِ أَنَّهُمْ لَمَّا تَعَبُوا لِدُخُولِ الْحَرَمِ وَهَيَّئُوا الْفَيْلَ، جَعَلُوا لَا يَصْرِفُونَهُ إِلَى جِهَةٍ مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ إِلَّا ذَهَبَ فِيهَا فَإِذَا وَجَّهَهُ إِلَى الْحَرَمِ رَبَضَ وَصَاحَ. وَجَعَلَ أَبْرَهُهُ يُحْمَلُ عَلَى سَائِسِ الْفَيْلِ وَيَنْهَرُهُ وَيَضْرِبُهُ، لِيَقْهَرَ الْفَيْلَ عَلَى دُخُولِ الْحَرَمِ. وَطَالَ الْفُضْلُ فِي ذَلِكَ. هَذَا وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ مَكَّةَ، مِنْهُمْ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيِّ، وَعَمْرُو بْنُ عَائِدِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْرُومٍ، وَمَسْعُودُ بْنُ عَمْرِو التَّقْفِيِّ، عَلَى حِرَاءٍ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا الْحَبْشَةُ يَصْنَعُونَ، وَمَاذَا يَلْقَوْنَ مِنْ أَمْرِ الْفَيْلِ، وَهُوَ الْعَجَبُ الْعُجَابُ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، أَيَّ قَطْعًا قَطْعًا صُفْرًا دُونَ الْحَمَامِ، وَأَرْجُلُهَا حُمْرٌ، وَمَعَ كُلِّ طَائِرٍ ثَلَاثُ أَحْجَارٍ، وَجَاءَتْ فَحَلَقَتْ عَلَيْهِمْ، وَأَرْسَلَتْ تِلْكَ الْأَحْجَارَ عَلَيْهِمْ فَهَلَكُوا.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: جَاءُوا بِفَيْلَيْنِ فَأَمَّا مُحَمَّدُ فَرَبَضَ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَشَجِعَ فَحُصِبَ.

وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مُنْبَهٍ: كَانَ مَعَهُمْ فَيْلَةٌ، فَأَمَّا مُحَمَّدٌ - وَهُوَ فَيْلُ الْمَلِكِ - فَرَبَصَ، لِيَقْتَدِيَ بِهِ بَقِيَّةَ الْفَيْلَةِ، وَكَانَ فِيهَا فَيْلٌ تَشَجَّعَ فَحَصِبَ، فَهَرَبَتْ بَقِيَّةُ الْفَيْلَةِ.

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ، وَغَيْرُهُ: لَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَهُ الْعَذَابُ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ يَتَسَاقَطُ عَضْوًا عَضْوًا وَهُمْ هَارِبُونَ، وَكَانَ أَبْرَهُهُ مِمَّنْ يَتَسَاقَطُ عَضْوًا عَضْوًا، حَتَّى مَاتَ بِيَلَادِ خَنْعَمٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَيَهْلِكُونَ عَلَى كُلِّ مَنْهَلٍ وَأُصِيبَ أَبْرَهُهُ فِي جَسَدِهِ، وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ يَسْقُطُ أَنْمَلَةٌ أَنْمَلَةٌ، حَتَّى قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ، فَمَا مَاتَ حَتَّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ فِيمَا يَزْعُمُونَ.

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: أَنَّ قُرَيْشًا أَصَابُوا مَا لَا جَزِيْلًا مِنْ أَسْلَابِهِمْ، وَمَا كَانَ مَعَهُمْ، وَأَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ أَصَابَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الذَّهَبِ مَا مَلَأَ حُفْرَةَ (١). اهـ.

قد يقول قائل: كيف دافع الله عَزَّجَلَّ عن الكعبة من أبرهة، ولم يدافع عن الكعبة في آخر الزمان من ذي السويقتين الذي يهدمها حجرًا حجرًا؟ قال أهل العلم: دافع عن الكعبة في مبدئها توطئة لمبعث النبي ﷺ؛ ولأنها ستكون قبلة المسلمين وستعظم، وأما آخر الزمان فإن أهلها يضيعونها ويتهكونها، فيسلط الله عليها ذو السويقتين.

فيقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ أي: أصحاب أبرهة، أهلكتهم وبددهم، سمو بأصحاب الفيل؛ للفيل العظيم الذي حملوه معهم لقصد هدم الكعبة.

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴾ أي: أنه تعالى جعل كيدهم في ذهاب ولم يفلحوا أبدًا، والحال: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) ﴾، وقد أحسن من قال:

يَا رَبِّ إِنَّ الْمُرءَ يَمْنَعُ * * * رَحْلَهُ فَمَنْعَ حَلَالِكَ

لَا يَغْلِبَنَّ صُلَيْبُهُمْ * * * وَمَحَالُهُمْ عَدُوًّا مَحَالِكَ

إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقَبْلَتْنَا * * * فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ

وَلَكِنَّ فَعَلْتَ فَإِنَّهُ * * * أَمْرٌ يَتَمُّ بِهِ فَعَالِكَ

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ أرسل عليهم طيرًا كثيرًا أتى على شكل جماعات ﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ ﴾ أي: أسقط عليهم حجارة من السماء ﴿ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ من طين قد ييس، وهي حجارة كالحمص.

﴿ جَعَلَهُمْ ﴾ أي: أهلكتهم، حتى كانوا: ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ كالعلف الذي تأكله الدواب وتناثره هاهنا وهاهنا؛ لكثرة من هلك في هذه الواقعة، والله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

والحمد لله رب العالمين.



مَكِّيَّةٌ

الجزء الثلاثون سُورَةُ قُرَيْشٍ

آياتها ٤

سُورَةُ قُرَيْشٍ، **سُورَةُ مَكِّيَّةٌ**، بعد أن ذكر الله **عَزَّجَلَّ** قصة الفيل وبين النعمة التي أنعم بها على قريش، كأنه يقول: فعلنا ذلك **﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾** من أجل اجتماع قريش، ومن أجل النعمة التي أنعم الله بها عليهم من رحلتهم في الشتاء والصيف، وهذا قول لبعض أهل العلم؛ حيث جعل سورة الفيل وسورة قريش كالسورة الواحدة.

والمعنى الثاني: أن الله **عَزَّجَلَّ** امتنَّ على قريش بما أنعم عليهم من النعم ومزيد المنن حيث خصَّهم بحرم آمن، وبطريق لرحلتهم آمن، فكانوا يرحلون إلى اليمن في الشتاء، ويرحلون إلى الشام في الصيف؛ للتجارة ونحوها، وكانت لا تعترضهم قبيلة من قبائل العرب؛ لاعتقاد فضلهم؛ لأنهم سكان البيت الحرام، بل إن من دخل في حلفهم صار آمناً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ ١ **إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾** ٢ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾** ٣ **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾** ٤

فيقول الله **عَزَّجَلَّ**: **﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾** ثم بين هذا الإيلاف **﴿إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾** أي: أن هذا الاجتماع وهذا الإيلاف هو رحلة الشتاء ورحلة الصيف.

وكانوا يجمعون ما لديهم من الأموال ثم يؤمنون عليها رجالاً منهم كالمضاربة، فإذا ذهبوا إلى اليمن اشتروا من لباسها وسلاحها وأنواع ما فيها من الحبوب وغيرها، وإذا ذهبوا إلى الشام اشتروا من حللها ومجوهراتها، ونحو ذلك مما يحتاجونه لأكلهم ولبسهم وتجارتهم، ولذلك لما خرج النبي **ﷺ** لالتقاء العير في بدر، خرجوا بحدهم وحديدتهم حتى وقعت المعركة المشهورة.

وبما أن الله امتنَّ عليهم بهذا الإيلاف والأمن والنعمة، فالواجب عليهم شكر الله **﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾** أن يوحداوا الله **عَزَّجَلَّ** بأقوالهم، وأفعالهم، ومعتقداتهم، ولكن الواقع أنهم عبدوا الحجارة الصماء، والأصنام البكماء، فعبدوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ونصبوا حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنماً، حجارة نقصها ظاهر فيها، ومع ذلك تسلط عليهم الشيطان فعبدوها، وتركوا عبادة الله **جَلَّ جَلَالُهُ**.

﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أمر لأهل مكة ولجميع الناس ﴿رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ صاحب هذا البيت، والمراد به البيت العتيق، الكعبة المشرفة، أضيف إلى الله عَزَّجَلَّ لعظيم منزلته، ولجليل رفعته، وهو أول بيت وضع للناس، وهو قبلة المسلمين، وفيه من الآيات البيئات والمقامات العظيمة ما يعرف قدرها كل مسلم وموحد، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقيل المراد بمقام إبراهيم: المكان الذي يُصلى فيه عند البيت، وقيل: جميع مقامات إبراهيم ويدخل فيها الصفا والمروة ومنى ومزدلفة وعرفات، وهذا معنى مقارب ومقبول.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ﴾ أي: رب هذا البيت هو الذي أطعمهم، وذكر الطعام تنبيهاً إلى غيره وهو الشراب، ولا قيام للإنسان إلا بطعام وشراب، فالله عَزَّجَلَّ هو الذي يطعم الناس جميعاً ولا يُطعم؛ لكمال غناه *سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى*، وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]. ولم يطعمهم فقط الطعام الذي تقوم به الأبدان، بل وسع لهم في غير ذلك، وكانت تأتيهم الفواكه وكل ما لذ وطاب، وكان من عجيب قدرة الله أن جعل الطائف التي هي بلد زراعي ومناخه لطيف قريب من مكة، يبعد عنها بمقدار مرحلتين، فكانت تأتي مكة من الطائف جميع أنواع الفاكهة، من أعنابها ورماتها ونحوها، ولو تأملنا البيت العتيق في هذه الأيام لرأينا تحقيق هذا الأمر، فإن الله عَزَّجَلَّ سخر جبي جميع الثمرات إلى البيت، فتجد كل ما لذ وطاب من المأكول والمشروب والملبوس.

﴿مِنْ جُوعٍ﴾ لأن الجوع شديد، وإذا تسلط على الإنسان أضعف قواه، وأسهر ليله، ولحقه الضرر، ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أمَّنهم من أعدائهم، فلم تغزى مكة ومن غزاها هلك، فقد جاءها أبرهة الأشرم بجيش لا يدان لأحد بقتاله، فسلط الله عليه الطير الأبايل التي ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول.

وأباح الله لمحمد ﷺ مكة ساعة من النهار، حتى كفروا وتمردوا على دين الله جَلَّ جَلَالُهُ، قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحِلَّ لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ، لَا يُفَرُّ صَيْدُهَا، وَلَا يُعْصَدُ شَوْكُهَا، وَلَا يُحْتَلَى خَلَاهَا، وَلَا تَحِلُّ لِقَطْعَتِهَا إِلَّا لِنَسِيدٍ» (١).

فمن أراد دوام نعمة الله عليه فليشكر ربه عليها، ومن أعظم شكر الله أن يوحد ويفرد بحقه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» (٢).

ونجد أن المجتمعات الإسلامية تأن من الحروب والويلات والفقر والدمار، ولو تأملنا إلى سبب ذلك لوجدناه البعد عن الدين، وإلا فوعد الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، وتجد كثيراً من بلاد الإسلام تعج بالقبور والقباب والسحرة والمشعوذين والكهان والعرافين، ثم بعد ذلك يطلبون الأمن والأمان، أتى يكون له الأمن ولم يحصل منهم الإيمان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، هكذا جعل الله عَزَّجَلَّ الأمن للمؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَالْأَخْوَفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣]. وهذه قریش التي كانت منيعة حصينة سلبت الله عليها أهل الإسلام حين أبوا إلا الكفر والعناد والإجرام، فقتل النبي ﷺ منهم في بدر سبعين وأسر سبعين، ثم غزا مكة وفتحها في السابع عشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه البخاري (٤٣١٣، ١١٢)، ومسلم (١٣٥٥).

(٢) متفق عليه، البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

مكية الجزء الثلاثون سُورَةُ الْمَاعُونِ آياتها ٧

سُورَةُ الْمَاعُونِ ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحِضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴾ أي: أخبرني عن الذي يكذب بيوم الجزاء والبعث والنشور، وهذا حاصل في كفار قريش وغيرهم ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجناتية: ٢٤]، وكانوا يستبعدون البعث بعد الإماتة ﴿ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا أَوَدَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصفات: ١٦].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ جُدَعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمَسْكِينِ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» (١)، وَعَنْ حَبَابٍ قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَاتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، قَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. فَقُلْتُ: لَا أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللَّهُ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ وَأُبْعَثَ فَسَأَوْتَنِي مَا لَأَ وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَ. فَتَزَلْتُ: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ﴿٧﴾ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [مريم: ٧٧-٧٨] (٢).

وقد جعل الله لهم من الدلائل الظاهرة، والآيات القاهرة ما تدل على أن الله لا يعجزه أن يعيد الإنسان بعد الإماتة كما أنه لم يعجز عن البداية، كما قال تعالى: ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْشَكُمُ إِلَّا كَفَيْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ﴿٢٨﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٨١﴾ [يس: ٨١].

(١) أخرجه مسلم (٢١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥).

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ أي: أن الذي يكذب بالدين والبعث والنشور هو

الذي يدفع اليتيم وينهره، ويظلمه، ويقهره، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝١ ﴾ [الضحى: ٩]، وَعَنْ سَهْلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا ». وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا^(١). واليتيم هو الذي مات أبوه، فيحتاج إلى رعاية وعناية؛ فإنه يعيش مكسور القلب، فقير البدن، بينما هذا المجرم يدفعه ويطرده.

﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ ومن صفات هذا المكذب بالدين أنه لا يحض على طعام

المسكين، لا يأمر بالصدقة على الفقراء والمحتاجين، وإذا كان لا يأمر بذلك فهو لا يعطيهم من باب أولى، فيا أيها المسلم حض على طعام المسكين، وابدل في أوجه الخير تلقاه عند الله عزَّ وجلَّ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَضَعُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرِيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرِي أَحَدَكُمْ فُلُوهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ »^(٢).

ويقول الله عزَّ وجلَّ في معنى هذه الآية ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ ﴾ [الفجر: ١٧]، حقًا

إنكم لا تكرمون اليتيم يا معاشر الكفار ﴿ وَلَا تَحْضُوا عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝١٨ ﴾ [الفجر: ١٨] ولا تأمرون بالإففاق على المسكين.

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ إخبار بعذاب أليم لصنف من المصلين، الذي يصلون ولا يأتون

بالصلاة على وجهها؛ إما بعدم إحسان ركوعها وخشوعها ووضوئها، وإما بعدم الصلاة في وقتها، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ۝١٠٣ ﴾ [النساء: ١٠٣] وإما بالمراعاة فيها. فالناس في باب الصلاة أصناف:

﴿ الأول: أهل الإيمان الذين وصفهم الله جَلَّ جَلَالُهُ بقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ

فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ ﴾ [المؤمنون: ١-٥] الآيات، ويصلون كما صلى رسول الله

ﷺ، ويأتون بها على الوجه الذي يرضي الله جَلَّ جَلَالُهُ وحالهم كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ إِن تَصَلُّوا أَنْتُمْ تَكْرُمُونَ ۝٤٥ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿ الثاني: من قال الله عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٠).

يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢] وهؤلاء هم المنافقون الخالص، قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَقَدْ رَأَيْتَنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومٌ النَّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ» (١).

﴿ الثالث: ﴾ من يصلي ولكن لا يحسن، كما رأى حُذَيْفَةُ رَجُلًا لَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، قَالَ: «مَا صَلَّيْتُ وَلَوْ مَتَّ مَتَّ عَلَى غَيْرِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَيْهَا» (٢). وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ أَحْسَنَ وَضَوْءُهُنَّ وَصَلَاةُنَّ لَوْ قَتِهِنَّ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ» (٣).

﴿ الرابع: ﴾ لا يصلي بالكلية، قال تعالى: ﴿ خَلَفَ مِنْ بَدَلِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ [مريم: ٥٩]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» (٤)، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ» (٥).

ومن قبيح الاستدلال قول بعضهم حين تقول له: صل!، يقول لك: قال الله: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ وهذا وقف قبيح، وإنما: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ (٤) الَّذِينَ هُمْ ﴾ أي: من صفتهم أنهم ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾. قال بعض السلف: الحمد لله أنه لم يقل في صلاتهم ساهون. فإن السهو في الصلاة يقع، وقد وقع من النبي ﷺ، ويقع من غير النبي ﷺ، ويجبره سجدة السهو، ولكن السهو عن الصلاة هو المذموم؛ لأن الساهي عنها هو المفرط والمضيع لها. وإذا تأملت حال الأمة تجدون أن أغلب الناس في هذا الحال، يصلي متى أراد ويترك متى أراد، ويصلي بالهيئة التي أراد، بينما العبد مأمور أن يصلي في أوقات معلومة ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣].

ومأمور بالمدائمة عليها، وعدم الانقطاع عنها: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج: ٢٣] ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج: ٣٤]، ومأمور أن يصلي كما صلى

(١) أخرجه مسلم (٦٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٩١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٠٤).

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٩٣٧)، والترمذي (٢٦٢١)، عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم (٨٢)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

النبي ﷺ «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» (١).

﴿الَّذِينَ هُمْ بِرِأَءُون﴾ أي: في صلاتهم وفي جميع أعمالهم، والرياء ذنبه عظيم؛ لأنه شرك بالله عَزَّجَلَّ، والناس فيه منقسمون إلى قسمين:

١- منهم من يكون شركه شركاً أكبر يخرج من الملة، ومنهم من يكون شركه شركاً أصغر يحبط العمل الذي دخله. والفرق بينهما: أن صاحب الرياء الأكبر أصلاً لا يصلي ولا يصوم ولا يحج ولا يعتمر، وإن وقع منه هذا إلا من أجل الناس لا يريد الله، ولو كان وحده ما صلى ولا صام ولا حج ولا اعتمر، لكن لمصالح دنيوية ربما صلى وحج واعتمر وصام، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُحْصُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

٢- وأما النوع الثاني: وهو الشرك الأصغر، فيدخل الرجل في الصلاة لله عَزَّجَلَّ، ويتصدق ويحج لله، لكن إذا رأى الناس ينظرون إليه أظهر لهم ذلك وأحبه، فتدخل المشاركة في العبادة، فإن كانت العبادة متصلة ولم يحارب الرياء بطلت العبادة، وإن دافع الرياء لعبادته صحيحة، وإن كانت العبادة منفصلة بحيث صلى ركعتين لله عَزَّجَلَّ وراعى في ركعتين تبطل التي راعى فيها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشْرَكَهُ» (٢)، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ» (٣). والرياء شأنه خطر، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتُ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ

(١) أخرجه البخاري (٦٣١)، عن أبي سُلَيْمَانَ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٣) متفق عليه، البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٦).

فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْفِيَ فِي النَّارِ»^(١).

وليس من الرياء أن المسلم يعمل العمل الصالح ثم يُشكر عليه، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»^(٢)، وإنما يجب الله المؤمن إلى المؤمنين، فيثنون عليه بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(١٦) [مريم: ٩٦].

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي: ومع مراعاتهم بالأعمال يمنعون الماعون وقد جاء أنه الزكاة الواجبة، وجاء في معناه أنه القدر، والمسحة، والملعقة، ومثل هذه العاريات التي تقع بين الناس، وذهب عكرمة إلى تفسير الماعون بالزكاة والقدر وما في بابه، وهو تفسير جمع بين الواجب والمستحب، فلا بأس به، وهو اختيار ابن كثير.

فتضمنت هذه الآية الإخبار عن أمرين، أي: أن المكذبين الذين ضيعوا حق الله وحق

الناس، فقد أوجب الله عليك حقين:

- ١- حق له، وهو إفراده بالعبادة.
- ٢- وحق لغيره، وهو الحقوق التي بين العباد: من حق الوالدين، والأرحام، والجيران، والفقراء، والمساكين، فينبغي لك أن تؤدي الحق الذي عليك لله عَزَّوَجَلَّ، والحق الذي عليك لغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ حتى يستقيم حالك الديني والدنيوي، والله المستعان.

والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤٢).

مكية

الجزء الثلاثون سُورَةُ الْكَوْثَرِ

آياتها ٢

سُورَةُ الْكَوْثَرِ ، سُورَةُ مَكِّيَّةٌ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ وقد امتن الله عَزَّوَجَلَّ على نبيه الكريم وصفيه الأمين أنه أعطاه الكوثر، وهو الخير الكثير، ويدخل فيه الحوض العظيم الذي أخبر عنه النبي ﷺ في وصفه، فقال: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيْرَانُهُ كَنْجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا»^(١)، يأتيه الناس بعد أن يخرجوا من قبورهم عطاشًا، فيمنع منه الكافرون والمبتدعون، ويشرب منه المؤمنون فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ»^(٢)، وقال النبي ﷺ: «وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أَلَا يُدَادِنَنَّ رَجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُدَادُ الْبَعِيرُ الضَّالَّ، أَنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ؟ فَيَقَالُ: إِيَّاهُمْ قَدْ بَدَلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا»^(٣)، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهَرِنَا إِذْ أَعْفَى إِعْفَاءً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أُنزِلْتُ عَلَيَّ أَيْضًا سُورَةٌ، فَقَرَأْتُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ [الكوثر: ١-٣]. ثُمَّ قَالَ: «أَتَذَرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرْدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤).

فالكوثر نهر في الجنة يمد منه الحوض الذي هو في عرصات القيامة، والحوض خاص بالنبي ﷺ مع أن العلماء قد اختلفوا في هذه المسألة إلى قولين، والصحيح الذي عليه التحقيق أن الحوض خاص بمحمد ﷺ؛ ولذلك تجد أن العلماء يقولون: صاحب الحوض والشفاعة، فيذكرونها له على سبيل الخصوصية.

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥٧٥)، ومسلم (٢٢٩٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٤٠٠).

وأما ما أخرجه الترمذي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِيَّاهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةٌ، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً»^(١)، فهو حديث مرسل لا تقوم بمثله حجة، والله أعلم.

وقد أنكر الحوض بعض المبتدعة: كالحوارج، والرافضة، ومن إليهم، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ زِيَادٍ، وَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ الْحَوْضَ، فَلَمَّا رَأَوْنِي طَلَعَتْ عَلَيْهِمْ، قَالُوا: قَدْ جَاءَكُمْ أَنَسُ فَقَالُوا: يَا أَنَسُ مَا تَقُولُ فِي الْحَوْضِ؟ فَقُلْتُ: «وَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ أَنِّي أَعِيشُ حَتَّى أَرَى أَفْئَالَكُمْ تَشْكُونَ فِي الْحَوْضِ، لَقَدْ تَرَكْتُ عَجَائِزَ بِالْمَدِينَةِ، مَا تَصَلِّي وَاحِدَةً مِنْهُنَّ صَلَاةً إِلَّا سَأَلْتُ رَبَّهَا **عَزَّجَلَّ** أَنْ يُورِدَهَا حَوْضَ مُحَمَّدٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**» قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ **رَحْمَةُ اللَّهِ** يَتَعَجَّبُ مِمَّنْ يَشْكُ فِي الْحَوْضِ إِذْ كَانَ عِنْدَهُ أَنَّ الْحَوْضَ مِمَّا يُؤْمِنُ بِهِ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ حَتَّى إِنَّ الْعَجَائِزَ يَسْأَلْنَ اللَّهَ **عَزَّجَلَّ** أَنْ يَسْتَقِيَهُنَّ مِنْ حَوْضِهِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْحَوْضِ، وَيُكَذِّبُ بِهِ، وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ التَّصْدِيقِ بِالْحَوْضِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ **عَزَّجَلَّ** نَبِينَا مُحَمَّدًا **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** كِفَايَةً عَنِ الْإِكْثَارِ^(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةٍ مِنْ عَدَنٍ هُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَا يَبِيئُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ وَإِنِّي لَأَصْدُ النَّاسِ عَنْهُ، كَمَا يَصْدُ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ تَرُدُّونَ عَلَيَّ غُرًّا، مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ»^(٣)، والمراد بهم: أهل التوحيد، والمتابعة للنبي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الحوض موجود الآن، قال النبي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ»^(٤)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي»^(٥).

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ﴾ أَي: شكرًا لله **جَلَّ جَلَالُهُ** على هذه العطية، وهذه المنحة الرفيعة.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ والصلاة هي المعروفة بشروطها وأركانها، وقيل صلاة العيد، وقال:

﴿ لِرَبِّكَ ﴾ ولم يقل: لله؛ ليبين أن الله **عَزَّجَلَّ** قد أحاط به ورعاه، وحفظه من كل ما يؤذيه،

(١) برقم (٢٤٤٣).

(٢) «الشرعية للأجري» (٨٣٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٧).

(٤) متفق عليه، البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦)، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

(٥) متفق عليه، البخاري (١١٩٦)، ومسلم (١٣٩١).

فالرب هو الحافظ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وهو المستحق للعبادة.

﴿ **وَأَنْحَرْ** ﴾ أي: تقرب إليه بأنواع النحر: كالهدي، والأضحية، والعقيقة، والوفاء بالذور وغير ذلك، ويكون من بهيمة الأنعام، فلا يتقرب إلى الله **عَزَّوَجَلَّ** بالنحر إلا بما كان من بهيمة الأنعام: البقر، والغنم، والإبل، وما سوى ذلك لا يصح لا في عقيقة، ولا هدي، ولا أضحية، حتى لو كان غزلاً أو أيلًا، أو غير ذلك مما أباح الله وأحل، وقد قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿ **لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُورُ مِنْكُمْ** ﴾ [الحج: ٣٧].

ومن أعظم العبادات النحر؛ ولذلك قال النبي **ﷺ**: «**لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ**»^(١)، وقال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿ **قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾^(١٢) **لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾^(١٣) [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، فالذين ينحرون على عتبات القبور متقربين إلى أرباب تلك القبور مخالفين لهذه الآية؛ لأنهم ذبحوا ونحروا لغير الله، وكذلك السحرة الذين يذبحون ولا يسمون الله على ذبائحهم متقربين بها إلى الجن والشياطين، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة يُخلد صاحبه في نار جهنم إن مات عليه، قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ** ﴾^(١٤) [المائدة: ٧٢]. ويدخل في ذلك الهجر، الذبيحة المشهورة في البلاد اليمنية التي يذبحونها للإصلاح بين الناس؛ ويسمونها بالهجر أو القصد فإن هذا دائر بين البدعة والشرك، فينبغي للناس أن يتقوا الله **عَزَّوَجَلَّ**، في اجتناب ما يسخط الله **جَلَّ جَلَالُهُ** عليهم، وقيل النحر هو ضم اليدين إلى الصدر، والأول أولى.

﴿ **إِنَّكَ شَانِئُكَ** ﴾ أي: إن مبغضك يا محمد ﴿ **هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾، المقطوع، وقد جاء في سبب نزول هذه الآية حديث لا يثبت، أنهم قالوا فيه: محمد الأبتَر، أي: المقطوع، لا وارث له، ولا معين، فأخبر الله **عَزَّوَجَلَّ** أن الأبتَر هو شأنى النبي **ﷺ**^(٢).

وفي هذه السورة وعد ووعد، فالتمسك بالسنة غير مقطوع وإن قل ناصره وكثر معادوه، والمخالف لسنة النبي **ﷺ** هو المقطوع كائنًا من كان، وإن كثرت ماله وتابعوه، وعظم شأنه، فانظروا! من الذي عادى النبي **ﷺ** في أول البعثة؟ إنهم سادات قريش، وسادات العرب، ومحمد **ﷺ** كان يسمى عندهم: بالمذمم، وباليتيم، وغير ذلك من التسميات التي يتنقصونه بها، فقطعوا جميعًا بالقتل، والهلكة، والعذاب المهين في الدنيا والآخرة، وسلم

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨)، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٥٠٤/٨).

والحمد لله رب العالمين.



مَكِّيَّةٌ
سُورَةُ الْبَالَةِ سُورَةُ الْكَافُرِينَ
آيَاتُهَا ٦

سُورَةُ الْكَافُرِينَ ، سُورَةُ مَكِّيَّةٌ، هذه السورة العظيمة تسمى بسورة الإخلاص لما فيها من الدعوة إلى إخلاص العبادة لله تعالى، والعبادة هي رحي الدين وأسه وأساسه، قال شيخ الإسلام **رَحْمَةُ اللَّهِ**: **الْعِبَادَةُ**: هِيَ اسْمُ جَامِعٍ لِكُلِّ مَا يُجِبُهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ. فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ وَصَدَقَ الْحَدِيثُ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ وَبِرُّ الْوَالِدِينَ وَصَلَّةُ الْأَرْحَامِ وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادُ لِلْكَفَّارِ وَالْمُتَأَقِّبِينَ وَالْإِحْسَانُ لِلْجَارِ وَالْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْمَمْلُوكِ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ وَالذُّعَاءَ وَالذِّكْرَ وَالْقِرَاءَةَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ.

وَكَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَخَشْيَةُ اللَّهِ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ وَالشُّكْرُ لِنِعْمِهِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْفُ مِنْ عَذَابِهِ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ هِيَ مِنَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ هِيَ الْغَايَةُ الْمَحْبُوبَةُ لَهُ وَالْمَرْضِيَّةُ لَهُ الَّتِي خَلَقَ الْخَلْقَ لَهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَبِهَا أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ، وَصَالِحٌ، وَشُعَيْبٌ، وَغَيْرُهُمْ لِقَوْمِهِمْ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٥٥] [الأنبياء: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [١٢] [الأنبياء: ٩٢]، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [٥١] وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [٥٢] [المؤمنون: ٥٢]، وَجَعَلَ ذَلِكَ لَازِمًا لِرَسُولِهِ إِلَى الْمَوْتِ كَمَا قَالَ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [١١] [الحجر: ٩٩] (١). اهـ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ ﴾ يقول الله عزَّ وجلَّ لِنبيه ﷺ: قل يا محمد ﴿ يَتَّيِبُهَا

الْكَافِرُونَ ﴾، دعاهم بحرف النداء للبعيد لأنهم بعيدون عن الإسلام وعن الاستقامة

وعن الخير، وذكر العلماء في سبب ذلك أحاديث وأثار منها ما أخرجه الطبري، قال: حدثني

مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الْحَرْشِيُّ، قَالَ: ثنا أَبُو خَلْفٍ، قَالَ: ثنا دَاوُدُ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّ

قُرَيْشًا وَعَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعْطُوهُ مَالًا، فَيَكُونَ أَعْنَى رَجُلٍ بِمَكَّةَ، وَيَرْوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ

النِّسَاءِ، وَيَطَّوُّوا عَقِبَهُ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا لَكَ عِنْدَنَا يَا مُحَمَّدُ، وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا، فَلَا تَذْكَرْهَا

بِسُوءٍ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً، فَهِيَ لَكَ وَلَنَا فِيهَا صَلَاحٌ. قَالَ: «مَا

هِيَ؟» قَالُوا: تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً: اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً، قَالَ: «حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِي مِنْ

عِنْدِ رَبِّي» فَجَاءَ الْوَحْيُ مِنْ اللَّوْحِ الْمُحْفَوظِ: ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ١ [الكافرون: ١]

السُّورَةَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ بِأَعْبَادِهَا الَّذِينَ هَلُمُّوا ﴾ ٦٤ [الزمر: ٦٤] إِلَى قَوْلِهِ:

﴿ فَأَعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ٦٦ [الزمر: ٦٦]. وهذا حديث ضعيف لا يثبت في سننه

مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الْحَرْشِيُّ وَأَبُو خَلْفٍ وَكِلَاهُمَا ضَعِيفٌ.

قوله تعالى: ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فيه البراءة من الشرك وأهله قال تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ

إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ

حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ٢٢ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

وَيُطِيعُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ٧١ [التوبة: ٧١]، وقال

تعالى في المنافقين: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ

أَلْفَسِقُونَ ﴿١٧﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٨﴾ [المتحنة: ١].

فالنبي ﷺ يقول للكافرين: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي الذي تعبدونه من الأصنام والأوثان؛ لأنكم تعبدون الباطل تعبدون الأحجار والأشجار وتفعلون الظلم العظيم الذي لا يغفره الله عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣﴾ [لقمان: ١٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ [الكافرون: ٣]، يَفْتَضِي تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ مَوْصُوفٍ بِأَنَّهُ مَعْبُودُهُمْ. لِأَنَّ كُلَّ مَا عَبَدَهُ الْكَافِرُ وَجَبَتْ الْبِرَاءَةُ مِنْهُ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ كَافِرًا لَا يَكُونُ مَعْبُودَهُ الْإِلَٰهَ الَّذِي يَعْبُدُهُ الْمُؤْمِنُ. إِذْ لَوْ كَانَ هُوَ مَعْبُودَهُ لَكَانَ مُؤْمِنًا لَا كَافِرًا. وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ أُمُورًا:

أَحَدُهَا: أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ بِرَاءَتَهُ مِنْ أَعْيَانِ مَنْ يَعْبُدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

الثَّانِي: أَنَّهُمْ إِذَا عَبَدُوا اللَّهَ وَغَيْرَهُ فَمَعْبُودُهُمُ الْمُجْمُوعُ وَهُوَ لَا يَعْبُدُ الْمُجْمُوعَ لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ. فَيَعْبُدُهُ عَلَى وَجْهِ إِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ لَا عَلَى وَجْهِ الشِّرْكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ.

وبهذا يظهر الفرقُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِ الْخَلِيلِ: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ [الزخرف: ٢٧]، وَقَوْلُهُ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ

الْأَفْئِدُونَ ﴿٦٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، بِأَنَّ يُقَالُ: هُنَا نَفِي عِبَادَةِ الْمُجْمُوعِ وَذَلِكَ لَا يَنْفِي عِبَادَةَ الْوَاحِدِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ. وَالْخَلِيلُ تَبَرَّأَ مِنَ الْمُجْمُوعِ وَذَلِكَ يَفْتَضِي الْبِرَاءَةَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ فَاسْتَشْنَى. أَوْ يُقَالُ: الْخَلِيلُ تَبَرَّأَ مِنْ جَمِيعِ الْمُعْبُودِينَ مِنَ الْجَمِيعِ فَوَجَبَ أَنْ يُسْتَشْنَى رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَهَذَا لَمَّا وَقَعَ مُسْتَشْنَى فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المتحنة: ٤]، لَمْ يَخْتَجِ إِلَى اسْتِثْنَاءِ آخَرَ. وَأَمَّا هَذِهِ السُّورَةُ فَإِنَّ فِيهَا التَّبَرِّيَّ مِنْ عِبَادَةِ مَا يَعْبُدُونَ لَا مِنْ نَفْسِ مَا يَعْبُدُونَ. وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ وَمِمَّا يَعْبُدُونَ. فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ بَاطِلٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ اللَّهُ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ كُلُّهُ لِلَّذِي أَشْرَكَ». فَعِبَادَةُ الشُّرْكِ كُلُّهَا بَاطِلَةٌ لَا يُقَالُ: نَصِيبُ اللَّهِ

مِنْهَا حَقٌّ وَالْبَاقِي بَاطِلٌ بِخِلَافِ مَعْبُودِهِمْ. فَإِنَّ اللَّهَ إِلَهٌ حَقٌّ وَمَا سِوَاهُ إِلَهَةٌ بَاطِلَةٌ. فَلَمَّا تَبَرَّأَ الْخَلِيلُ مِنَ الْمُعْبُودِينَ احتَاجَ إِلَى اسْتِثْنَاءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَمَّا كَانَ فِي هَذِهِ تَبَرُّوهُ مِنْ أَنْ يَعْبُدَ مَا يَعْبُدُونَ فَكَانَ الْمُنْفِيُّ هُوَ الْعِبَادَةُ تَبَرُّاً مِنْ عِبَادَةِ الْمُجْمُوعِ الَّذِينَ يَعْبُدُهُمُ الْكَافِرُونَ.

الثَّالِثُ: إِنْ كَانَ النَّفْيُ عَنِ الْمَوْصُوفِ بِأَنَّهُ مَعْبُودُهُمْ لَا عَنِّهِ فَهَوَ لَا يَعْبُدُ شَيْئاً مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُمْ. لِأَنَّهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُمْ هُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ فَوَجَبَتِ الْبِرَاءَةُ مِنْ عِبَادَتِهِ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ. وَلَوْ قَالَ: «مَنْ تَعْبُدُونَ» لَكَانَ يُقَالُ: «إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ» لِأَنَّ النَّفْيَ وَقَعَ عَلَى عَيْنِ الْمُعْبُودِ. وَلَيْسَ إِذَا لَمْ يَعْبُدْ مَا يَعْبُدُونَ مُتَبَرِّئاً مِنْهُ وَمُعَادِيّاً لَهُ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى الْاسْتِثْنَاءِ. بَلْ هُوَ تَارِكٌ لِعِبَادَةِ مَا يَعْبُدُونَ. وَهَذَا يَتَبَيَّنُ.

بِالْوَجْهِ الرَّابِعِ: وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]، نَفَى عَنْهُمْ عِبَادَةَ مَعْبُودِهِ. فَهُمْ إِذَا عَبَدُوا اللَّهَ مُشْرِكِينَ بِهِ لَمْ يَكُونُوا عَابِدِينَ مَعْبُودَهُ. وَكَذَلِكَ هُوَ إِذَا عَبَدَهُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ لَمْ يَكُنْ عَابِداً مَعْبُودَهُمْ.

الْوَجْهُ الْخَامِسُ: أَنَّهُمْ لَوْ عَيَّنُوا اللَّهَ بِمَا لَيْسَ هُوَ اللَّهُ وَقَصَدُوا عِبَادَةَ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ أَنَّ هَذَا هُوَ اللَّهُ كَالَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ وَالَّذِينَ عَبَدُوا الْمَسِيحَ وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ الدَّجَالَ وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَهَوَاهُمْ وَمَنْ عَبَدَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَهُمْ عِنْدَ نُفُوسِهِمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ لَكِنَّ هَذَا الْمُعْبُودَ الَّذِي هُمْ لَيْسَ هُوَ اللَّهُ. فَإِذَا قَالَ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢] كَانَ مُتَبَرِّئاً مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُعْبُودِينَ وَإِنْ كَانَ مَقْصُودُ الْعَابِدِينَ هُوَ اللَّهُ.

الْوَجْهُ السَّادِسُ: أَنَّهُمْ إِذَا وَصَفُوا اللَّهَ بِمَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ كَالصَّاحِبَةِ وَالْوَالِدِ وَالشَّرِيكِ وَأَنَّهُ فَقِيرٌ أَوْ بَخِيلٌ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ وَعَبَدُوهُ كَذَلِكَ. فَهُوَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُعْبُودِ الَّذِي هَؤُلَاءِ. فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ اللَّهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ يَصْرَفُ اللَّهُ عَنِّي سَبَّ قُرَيْشٍ؟ يَسُبُّونَ مُدْمَمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ». فَهُمْ وَإِنْ قَصَدُوا عَيْنَهُ لَكِنَّ لَمَّا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ مُدْمَمٌ كَانَ سَبَّهُمْ وَقِيعاً عَلَى مَنْ هُوَ مُدْمَمٌ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ. وَذَلِكَ لَيْسَ هُوَ اللَّهُ. فَالْمُؤْمِنُونَ بَرَاءٌ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ.

الْوَجْهُ السَّابِعُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِمَا وَصَفَ بِهِ الرَّسُولُ رَبَّهُ فَهَوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَعْبُدْ مَا عَبَدَهُ الرَّسُولُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ. وَقَسَّ عَلَى هَذَا فَلْتَمَّأَمَلْ هَذِهِ الْمَعَانِي وَتَلَخَّصْ وَتَهَدَّبْ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ (١). اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ثم أخبر عنهم بقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ﴾ لإلهي الذي أعبد، ما دتم على شرككم فأنا أعبد الله الواحد القهار وأنتم تعبدون

المخلوقات المربوبات. وقد قال العلماء: كيف هذا؟ وبعضهم قد أسلم بعد ذلك فيقال: لعله أراد ذلك الحين، وقال بعضهم أيضًا: لعله أراد من لم يسلم منهم، المهم أن هذه الآية فيها وجوب إخلاص العبادة لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فمعناه **﴿لَا أَعْبُدُ﴾** أنا ومن معي من الموحدين **﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾** أي: الذي أنتم تعبدونه من باطلكم وألهتكم التي تضاهون بها الله **عَزَّوَجَلَّ**.

وقوله تعالى: **﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾** أي: وفي هذا الحال الذي أنتم عليه ومن كان منكم سيموت على الكفر لم يقع منه إفراد العبادة لله تعالى وإنما وقع منهم نقيض ذلك وهو الشرك الذي لا يغفره الله تعالى، قال تعالى: **﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾** [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾** [٤٠] **﴿هُم مِّنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ عَوَاشٍ﴾** **﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾** [الأعراف: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: **﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾** [الحج: ٣١].

وقوله تعالى: **﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾** فيه توكيد أنه **ﷻ** هو ومن معه على الإخلاص والتوحيد وإفراد الله **عَزَّوَجَلَّ** بما يجب له في هذا الباب من دعاء ونذر وخوف ورجاء وتوكل وإنابة على ما تقدم بيانه، وفيه بيان لما عليه أهل الحق من سلوك سبل الثبات على دين الله تعالى، وعدم التأثر بالمغريات والتزحزح عن الكتاب والسنة مهما عظمت الخطوب.

وقوله تعالى: **﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾** على ما تقدم وأنه لا يمكن الجمع بين الحق والباطل والهدى والضلال.

وقوله تعالى: **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينٌ﴾** أي لكم باطلكم الذي أنتم فيه ولي الحق الذي أدعو إليه وأنصره والذي ابتليت من أجله ولكم دينكم الباطل الذي ارتضيتموه.

وهذه الآية العظيمة **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينٌ﴾**، فيها البراءة من دين الكفار من اليهود والنصارى والمشركين؛ لكن العجب أن دعاة حوار الأديان ووحده قد اتخذوها شبهة لهم فأصبحوا يمجدون الباطل ويرضون بالباطل وإذا ما أنكرت عليهم قالوا: **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينٌ﴾**، على أن هذا إقرار من النبي **ﷺ** لهم، وهذا غير صحيح وقد أجيب عنه بوجهين:

وجه الوجه الأول: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف وهي قوله تعالى: **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا**

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [التوبة: ٢٩].

وجه والوجه الثاني: أن الآية ليس فيها تقرير وإنما هي مثل قول الله عزَّجَلَّ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

فقوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ليس فيه إباحة الكفر؟ ولكن فيه أن الله عزَّجَلَّ بين طريق الحق والهدى وبين طريق الباطل والردى فمن استجاب فله الجنة ومن أعرض فله النار كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [٢٩] إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ [الإنسان: ٤].

فقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ليس فيها شبهة لا للقرضاوي ومن إليه من دعاة الحوار والتقارب مع اليهود والنصارى وإنما فيها البراءة والتهديد من الله عزَّجَلَّ كقول الله عزَّجَلَّ ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، فليس فيه إباحة الزور والفجور والكفر والعصيان، فينبغي للمسلم إذا أراد أن يتعلم دينه أن يرجع إلى تفسير السلف وطريقتهم وفهمهم للقرآن والسنة.

وجه ثم إن أحسن الطرق لتفسير القرآن:

- ١- تفسير القرآن بالقرآن.
- ٢- تفسير القرآن بالسنة.
- ٣- تفسير القرآن بآثار الصحابة والسلف رضوان الله عليهم.
- ٤- تفسير القرآن باللغة العربية التي لم تحرف وتولد.

أما أن يفسر القرآن بما يسمون به (التفسير العصري) فهذا والعياذ بالله من الباطل الذي يؤدي إلى زحزحة الأقوال والمعاني الشرعية التي نزل بها القرآن وإلى الأخذ بالفجور والباطل الذي استخدمه المشركون ومن إليهم من العقلانيين والمبطلين. نسأل الله عزَّجَلَّ أن يجعلنا وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ونسأله السداد في القول والعمل.

والحمد لله رب العالمين.



مدنية

الجزء الثلاثون سُورَةُ النَّصْرِ

آياتها ٢

سُورَةُ النَّصْرِ ، **سُورَةُ مَدِينَةٍ** ، وقيل بأنها آخر ما أنزل من القرآن، وهي أجل النبي ﷺ، أعلمه الله إياه كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُئِيْتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ [النصر: ١-٢]؟ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ، وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفَتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكْذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَتُح مَكَّةَ فَذَاكَ عَلَامَةٌ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]، قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ^(١).

فأمره الله **عَزَّجَلَّ** بكثرة الاستغفار والتوبة قبل موته، وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون مستغفرًا تائبًا أيًّا لله **عَزَّجَلَّ**؛ لأنه لا يدري متى يوافيه الأجل.
وكان النبي ﷺ بعد أن أنزلت عليه هذه السورة يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يتأوَّل القرآن^(٢)، وغير ذلك من الأدعية تأولًا لقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ [النصر: ٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا

﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

فيقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أي: فتح مكة، وفتح اليمن كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿١﴾ [النصر: ١] إِلَى

(١) أخرجه البخاري (٤٢٩٤).

(٢) متفق عليه، البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤)، عن عائشة رضي الله عنها.

أخِرِ السُّورَةِ، قَالَ: نُعِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَفْسُهُ حِينَ أُنزِلَتْ، فَأَخَذَ فِي أَشَدِّ مَا كَانَ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ: «جَاءَ الْفَتْحُ، وَجَاءَ نَصْرُ اللَّهِ، وَجَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا أَهْلُ الْيَمَنِ؟ قَالَ: «قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ، كَيْتَةٌ قُلُوبُهُمْ، الْإِيْمَانُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ، وَالْفَقْهُ يَمَانٌ»^(١)، ففتح الله ﷻ على المسلمين حين دخل اليمنيون في دين الله أفواجًا بغير قتال، وإنما كانت دعوة النبي ﷺ بإرسال الرسل والبعوث، فأرسل أبا عبيدة بن الجراح إلى نجران، وأرسل معاذ بن جبل إلى الجند، وأرسل أبا موسى الأشعري إلى زبيد وما إليها، ثم أرسل علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وولاه جهة نجران وما إليها، وقد جاء إلى النبي ﷺ في حجة الوداع بشيء من النعم والهدى، وأرسل إلى النبي ﷺ بترية مذهبة.

فتح وفتح فتحان:

❖ **الأول: هو صلح الحديبية**، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]؛ لأن قريشًا اعترفوا بالنبي ﷺ وصالحوه، وإن كانت شروطهم مجحفة، إلا أنها في الأصل دليل على ضعفهم وهزيمتهم، ورضوخهم للأمر الواقع، وهو وجود القوة المسلمة والاعتراف بهم، وكان هذا الفتح في السنة السادسة من الهجرة.

❖ **الفتح الثاني: فتح مكة**، وكان في السنة الثامنة من الهجرة.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾ أي: يكثر دخولهم، فكان في أول الإسلام يسلم الواحد، وربما جاء الاثنان وفي وضع سري، ثم بعد ذلك بدأوا يظهرن، ثم بعد ذلك كانت تدخل القبائل في دين الله ﷻ، وهذا نصر عظيم للإسلام، وهكذا كل ما لم يرد به الله إلى نقص وزوال، وقد قال أبو البقاء الرندي:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ ❖ ❖ ❖ فَلَا يُغَرِّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُمَا دَوْلُ ❖ ❖ ❖ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْمَانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ ❖ ❖ ❖ وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ

﴿فَسِيحٌ﴾ أي: أكثر من التسيح، وهو تنزيه الله ﷻ عن كل نقيصة وعيب ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: بذكر المحامد التي يتصف الله ﷻ بها، والله موصوف بكل كمال، فعند أن تقول: سُبْحَانَ اللَّهِ، أنت تنزه الله عن كل نقيصة، وتثبت له كل كمال، وعند أن تقول:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، أَنْتَ تَثْبِتُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ كُلَّ كِهَالٍ، وَتَنْفِي عَنْهُ كُلَّ نَقِيصَةٍ.

﴿رَبِّكَ﴾ أَيُّ: الَّذِي يَرْزُقُكَ وَيَحْفَظُكَ وَيَكْلُوكَ ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ من ذنوبك وسيئاتك. وإذا كان النبي ﷺ قد أمر بالاستغفار مع أن الله عَزَّجَلَّ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فمن باب أولى غيره الذين تكاثرت ذنوبهم وخطاياهم، فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: إِنَّ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ» مِائَةً وَعَنْ الْأَعْرَبِيِّ بْنِ يَسَارِ الْمُرَبِّيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةٌ، مَرَّةً» (٢)، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا» (٣)، وَالاسْتِغْفَارُ يَكُونُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

١- الأول: من التقصير في الأمور، فإن كثيراً من الناس يأتي بالمأمور لا على الوجه المطلوب، ولذلك يحتاج أن يستغفر، وقد أمر الله وشرع الاستغفار بعد الصلاة، وبعد الحج، وفي المجلس، إلى غير ذلك مما هو ثابت عن النبي ﷺ، فعن ثُوبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (٤).

٢- الثاني: الاستغفار من ارتكاب المحذور الذي نهى الله عنه بالتوبة والإجابة، لحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ حَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» (٥).

٣- الثالث: الاستغفار من عدم الصبر على المقدور، فنحن مأمورون بالاستغفار، والصبر، وقد بعث الله أنبياءه بالاستغفار، قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْكُمْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَجَعَلَ لَكُمُ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وقال تعالى عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

(١) أخرجه أحمد (٤٧٢٦)، وأبو داود (١٥١٦)، وابن ماجه (٣٨١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٨١٨).

(٤) أخرجه مسلم (٥٩١).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠).

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أي: استغفروا الله فهو يقبل توبة التائبين ويجازيهم بمغفرة سيئاتهم، بل وتبديلها حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٧٠-٧١]، فمن أساء الله التواب، الذي يتوب على عباده، ويقبل التوبة منهم، كما قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

والتوبة واجبة من جميع الذنوب بشروطها المعروفة:

١- أولاً: توبة العبد فيما بينه وبين الله: وشروطها خمسة:

- ❖ الأول: الإخلاص.
 - ❖ الثاني: أن تكون في زمن يقبل فيه التوبة، فتكون قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها.
 - ❖ الثالث: الإقلاع عن الذنب.
 - ❖ الرابع: الندم على فعل الذنب.
 - ❖ الخامس: العزم على عدم العود إلى الذنب.
- ٢- ثانياً: توبة العبد في حقوق الآخرين:** ويزاد إلى الشروط الخمسة التحلل من الذنب على تفصيل يذكره أهل العلم.

٣- ثالثاً: توبة الكافر: تكون بالدخول في الإسلام، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ ۚ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

٤- رابعاً: توبة المنافق: وتكون بالشروط الخمسة مع ما تضمنه قول الله عزَّجَل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٤٦].

٥- خامساً: توبة المبتدع: وتكون بالشروط الخمسة مع ما تضمنه قول الله عزَّجَل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٠].
والتوب: هو الرجوع إلى الله، والله أعلم.
وقد تكلمت على شروط التوبة في رسالة خاصة.

والحمد لله رب العالمين.



مكية

الجزء الثلاثون سورة المسد

آياتها ٥

سُورَةُ الْمَسَدِ ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ ، نَزَلَتْ فِي شَأْنِ أَبِي لَهَبٍ لَعَنَهُ اللَّهُ ، عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانَهُ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ، وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

يقول الله عزَّجَل: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ أي: هلكت ولحقتها الخسارة، وفي قراءة الأعمش: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ وَتَبَّ ﴾ أي: تحقق له هذا الهلاك في الدنيا والآخرة، وأبو لهب هو عبد العزى بن عبدالمطلب، عم النبي ﷺ، وسمي بأبي لهب؛ لجمال وجهه وصباحته، وكان يؤذي النبي ﷺ، فعن طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه، قال: رأيت رسول الله ﷺ مرتين، مرة بسوق ذي المجاز، وأنا في بياعة لي هكذا، قال: أبيعها، فمَرَّ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حُمْرَاءُ، وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا» وَرَجُلٌ يَتَّبِعُهُ بِالْحِجَارَةِ فَدَأْمَى كَعْبِيهِ وَعُرْفُوبِيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا غُلَامٌ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَتَّبِعُهُ يَرْمِيهِ؟ قَالُوا: هَذَا عَمُّهُ عَبْدُ الْعَزْزِيِّ، وَهُوَ أَبُو لَهَبٍ (١). ولشدة عداوته للنبي ﷺ لم تنفع قرابته ولم يدخل في دين، بل كان مناصراً للكفار من غير عشيرته على النبي ﷺ، فأخبر الله أنه هالك وخاسر.

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ﴾ ما دفع عنه ماله شيئاً مما يلحقه من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ من الجاه ونحوه أو من التجارة، كلها لم تغن عنه شيئاً، فإذا كان الإنسان على غير الإسلام، ولم يتنفع بشيء من عمله، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ليست بجاه ولا بهال، إلا إذا كان الجاه والمال في طاعة الله عزَّجَل.

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ وهذا يوم القيامة، وفي القبر حيث يشمله هذا الحكم.

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ﴾ أي: تحيط به نار ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ يخرج منها اللهب، وقد تقدم شيء من

أوصاف النار.

(١) أخرجه الدارقطني (٢٩٧٦)، والحديث في «الصحیح المسند» (٢٧٩/١) لشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله.

وسبحان الله كأن الله جازه بوصفه الذي في الدنيا، لما كان وجهه وضياً وسمي بأبي هب؛ لجمال وجهه، وأبي أن يستخدم هذا الجمال في طاعة الله عز وجل عذبه الله بنار تلهب.

﴿ وَأَمْرَاتُهُ ﴾ وهي أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان، ﴿ حَمَّالَةٌ

الْحَطْبِ ﴾ قيل: بأنها كانت تحمل الحطب فضعه على باب النبي ﷺ، فكان عذابها في النار أنها تحمل الحطب وتوقد به على أبي هب، فكلهم يعذب في النار، أسأل الله السلامة.

﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أي: في عنقها، قال الثوري: هو قِلَادَةٌ مِنْ نَارٍ، طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا^(١).

﴿ حَبْلٌ ﴾ معروف ﴿ مِنْ مَسَدٍ ﴾ من ليف، وهو محروق، فتعذب بهذا الحبل وتعذب بالنار.

واحتج العلماء بهذه السورة على جواز جرح أهل البدع والريب، واحتجوا بها على أن النسب لا يفيد صاحبه شيئاً إن لم يكن موحداً مؤمناً، والنبي ﷺ يقول: «لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً»^(٢)، ويقول ﷺ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»^(٣).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ^(٤): وفي «الصحيحين» عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ أَلَّ أَبِي فَلَانَ كَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءِ، وَإِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُو الْمُؤْمِنِينَ» يُشِيرُ إِلَى أَنْ وَلايَتَهُ لَا تُنَالُ بِالنَّسَبِ وَإِنْ قَرَّبَ، وَإِنَّمَا تُنَالُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَمَنْ كَانَ أَكْمَلَ إِيمَانًا وَعَمَلًا، فَهُوَ أَعْظَمُ وَلايَتَهُ لَهُ، سِوَاءَ كَانَ لَهُ مِنْهُ نَسَبٌ قَرِيبٌ، أَوْ لَمْ يَكُنْ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ بَعْضُهُمْ:

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا بِدِينِهِ ❁❁❁ فَلَا تَتْرُكُ النُّقُوى اتِّكَالًا عَلَى النَّسَبِ

لَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامَ سَلْمَانَ فَارِسٍ ❁❁❁ وَقَدْ وَضَعَ الشُّرْكَ الشَّقِيَّ أَبَا هَبٍ. اهـ.

وقد مات أبو هب على الكفر، وهذا من دلائل نبوة النبي ﷺ إذ أخبر الناس بهذه السورة، ثم كان مآل أبي هب إلى ما فيها، والله المستعان. وكان بعض أبنائه زوجاً لابنة النبي ﷺ، فطلقها حين بُعث النبي ﷺ بالرسالة، وبعضهم أسلم وحسن إسلامه.

وكان سبب نزول هذه السورة ما جاء في «الصحيحين»، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا

نَزَلَتْ: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(١٤) [الشعراء: ٢١٤]، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ

(١) «تفسير بن كثير» (٥١٦/٨).

(٢) متفق عليه، البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ومسلم (٢٦٩٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) «جامع العلوم والحكم» (٣١٠/٢).

يُنَادِي: «يَا بَنِي فَهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ» - لِيُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو هَبٍّ، وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَأِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو هَبٍّ: تَبَّ لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَتَرَلْتَ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

﴿٢﴾ [المسد: ١-٢] (١).

والحمد لله رب العالمين.



مَكِّيَّةٌ لِّئْلِ الْبَلَاةِنِ سُورَةُ الْاِخْلَاصِ آيَاتُهَا ٤

سُورَةُ الْاِخْلَاصِ ، سُورَةُ مَكِّيَّةٌ .

٥٥ وهي السورة التي أخبر النبي ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، يُرَدِّدَهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَفَلَّحُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّمَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» (١).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَيَعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي كَيْلَةِ ثُلُثِ الْقُرْآنِ؟» قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) [الإخلاص: ١] تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» (٢). وفي لفظ قال: «إِنَّ اللَّهَ جَزَأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَجَعَلَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) [الإخلاص: ١] جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اخْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أَرَى هَذَا خَبْرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَلِكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّمَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» (٣).

٥٦ وهي صفة الرحمن، فعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختتم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) [الإخلاص: ١]، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «سألوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أن الله يحبها» (٤)، وفيه غير ذلك من الفضائل على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

٥٧ وقد شرعت قراءتها في ركعتي الطواف، ففي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه الطويل في الحج قال: ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَرَأَ: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨١١).

(٣) أخرجه مسلم (٨١٢).

(٤) متفق عليه، البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

[البقرة: ١٢٥] فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ، فَكَانَ أَبِي يَقُولُ - وَلَا أَعْلَمُهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ -: كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكَعَتَيْنِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١].^(١)

وهو وفي الوتر، فعن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُوتِرُ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ، يَقْرَأُ فِي الْأُولَى بِ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وَفِي الثَّانِيَةِ بِ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وَفِي الثَّلَاثَةِ بِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وَيَقْنُتُ قَبْلَ الرُّكُوعِ، فَإِذَا فَرَغَ قَالَ عِنْدَ فَرَاعِهِ: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يُطِيلُ فِي آخِرِهِنَّ.^(٢)

وهو وفي ركعتي الفجر مع سورة الإخلاص الأخرى، وهي: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكَعَتَيِ الْفَجْرِ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].^(٣)

وعند الترمذي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: رَمَقْتُ النَّبِيَّ ﷺ شَهْرًا، فَكَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكَعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ بِ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].^(٤) وَفِي الْبَابِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَنْسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَفْصَةَ، وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ.

وهو وجاء أنها تُقرأ في صلاة المغرب، كما عند ابن ماجه: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].^(٥) لَكِنِ الْحَدِيثُ أَعْلَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالْمَحْفُوظُ أَنَّهَا فِي رَكَعَتَيِ الْمَغْرِبِ، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: رَمَقْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ، أَوْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً، «يَقْرَأُ فِي الرَّكَعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ، وَالرَّكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ» ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].^(٦)

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه النسائي (١٤٣٦) واللفظ له، وأبو داود (١٤٣٠)، وغيرهما.

(٣) أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٤) برقم (٤١٧).

(٥) برقم (٨٣٣).

(٦) أخرجه أحمد (٥٧٤٢).

وجاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: مَا أَحْصِي مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ وَفِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ بِـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) [الكافرون: ١]، وَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) [الإخلاص: ١]؛^(١) لكن في سننه عبد الملك بن الوليد بن معدان الضبعي البصري، وقد ينسب إلى جده، قال البخاري: فيه نظر.

❦ وفي «موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان»^(٢): من طريق سَعِيدُ بْنُ سِمَاكٍ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: وَلَا أَعْلَمُ إِلَّا عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بِـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) [الكافرون: ١]، وَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) [الإخلاص: ١]، وَيَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، الْجُمُعَةَ وَالْمُنَاقِفِينَ. وَسَعِيدُ بْنُ سِمَاكٍ مَتْرُوكٌ.

❦ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَتِّبَهُ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَرَأَ فِيهَا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) [الإخلاص: ١]، وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) [الفلق: ١] وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) [الناس: ١]، ثُمَّ يَمَسُّحُ بِهَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ [الإخلاص: ١-٤]، والمتبادر كأن هذا إجابة سؤال كما رُوي في بعض المراسيل كما ذكر ذلك الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره في تفسير هذه السورة، وقيل: بأن السؤال كان من اليهود ولم أر ما يثبت سنداً في القولين، والله تعالى أعلم.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ هذا أمر من الله تعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ أن يقول لهؤلاء السائلين، أو مخبراً عن صفة الرحمن ما يأتي إن شاء الله تعالى، ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ أي: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ عِبَادَةٌ كُلُّ شَيْءٍ،

(١) أخرجه الترمذي (٤٣١).

(٢) برقم (٥٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٧١).

لَا تَتَّبِعِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ، وَلَا تَصْلُحْ لشيءٍ سِوَاهُ^(١).

والله لفظ الجلالة علم على الذات العلية، وهو أعرف المعارف وهو الاسم الأعظم على الصحيح من أقوال أهل العلم إذ عليه جميع مدار الأسماء الحسنی فهي تابعة له ووصف له تعالى وتعظيم وتقدس، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ أَسْلَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِينَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

قوله تعالى: ﴿أَحَدٌ﴾ أي بمعنى واحد وقد تكرر اقترانه بالقهار في ست مواطن من القرآن قال تعالى: ﴿هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ [الرعد: ١٦]، واسم (الأحد) فيه إثبات توحيد الربوبية لله عزَّجَلَّ ويتضمن هذا الاسم وصفه تعالى بالأحدية التي تدل على تفرده تعالى بالخلق، والملك، والتدبير، ويلزم من ذلك إفراد الله تعالى بالعباد. وأما اسم الفرد لم أره ثابتاً لله تعالى بسند صحيح ويغني عنه هذا الاسم، ولفظ الجلالة (الله) يتضمن اثبات الألوهية لله سبحانه وتعالى، فدلّت هذه الآية بهذين الاسمين على اثبات ما يدعوا إليه أهل السنة والجماعة ويطرقونه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وفي خطبهم وفي مؤلفاتهم وهو: أن توحيد الله عزَّجَلَّ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- توحيد الربوبية: وهو إفراد الله عزَّجَلَّ بالخلق والملك والتدبير، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ

شَيْءٍ ﴿٦٢﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ [الملك: ١].

٢- وتوحيد الألوهية: وهو إفراد الله عزَّجَلَّ بالعبادة وإفراده بأفعال المكلفين، وهو صرف كل ما

يحببه الله عزَّجَلَّ ويرضاه له ويتقرب به إليه، وبه أرسلت الرسل وأنزلت الكتب قال الله عزَّجَلَّ:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ [البينة: ٥]، وقال الله عزَّجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّاغُوتَ ﴿٣٦﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٤﴾

[النساء: ٦٤] وقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿٣٦﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ

إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٢٣﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَبْنِي لَكَ شُرَكَاءَ بِاللَّهِ إِيَّاكَ

الشِّرْكَ لَظْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ [لقمان: ١٣]، إلى غير ذلك من الأدلة.

٣- **توحيد الأسماء والصفات:** وهو افراد الله عزَّجَلَّ بأسمائه وصفاته، وأن الله عزَّجَلَّ له الأسماء الحسنى التي من حسننها أنها أسماء مدح لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ومن حسننها أنها تتضمن صفات مدح وكمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ومن حسننها أنها أسماء ثبتت في القرآن والسنة، ومن حسننها أن الله عزَّجَلَّ أمرنا أن ندعوه بها قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وضابط هذا الباب أن الله تعالى موصوف بها وصف به نفسه في كتابه، وبها وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكيف ولا تمثيل.

دواعي أنواع الصفات: ثم إن الصفات من حيث هي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- **صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه،** وهذه ثابتة لله عزَّجَلَّ مثل السمع والبصر والقوة والقدرة فهو المتصف بالكمال المطلق، قال تعالى: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦١﴾ [لقمان: ٢٦]، وهو ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]. سُبْحَانَ وَتَعَالَى.

٢- **صفات نقص لا كمال فيها بوجه من الوجوه،** وهذه يجب أن ينزه الله سُبْحَانَ وَتَعَالَى عنها كالصمم والبكم والظلم ونحوه.

٣- **صفات كمال من وجه ونقص من وجه،** وهذه تثبت لله عزَّجَلَّ في حال كمالها ومن أمثلتها صفات المقابلة؛ مثل الكيد والمكر فالله عزَّجَلَّ يكيدهم بالكائدين ويمكر بالماكرين ويستهنأ بالمستهزئين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، وقال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]، وهكذا.

فالله عزَّجَلَّ واحدٌ أحدٌ، كما قال عن نفسه، ولا معين له ولا ظهير، قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ [سبأ: ٢٢]، فيجب أن يفرد بالدعاء والرجاء والتوكل والخشية ويفرد بالإنابة والخوف وغير ذلك من العبادات سواء العبادات القلبية أو القولية أو البدنية أو المالية، فالعبادة حقه تعالى لا يجوز أن تصرف لغيره مهما علت منزلته وعظمت مرتبته فلا إله إلا هو الواحد القهار، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي ﴿١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي فَازِهْبُونَ ﴿٤٠﴾ [البقرة: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ [المائدة: ٢٣]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨]، إلى غير ذلك من الأدلة المتكاثرة في هذا الباب فقد قطع الله عز وجل عن المشركين كل شبهة ومتعلق في الأصنام والأوثان وغيرها من الطواغيت.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الضَّمَدُ﴾، ﴿الضَّمَدُ﴾: هو الذي تصمد إليه الخلائق وقيل: هو المصمت الذي لا جوف له فلا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغْبَرَ اللَّهُ أَنَخْدُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وهو السيد الذي كمل في سؤده وكلها دالة على الكمال وكلها ثابتة لله تعالى، فهو الذي تصمد وتلجأ إليه الخلائق، وهو الذي لا جوف له، ومستغني عن عبادته، وهو الكامل في سؤده، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦]، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ [٥٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [٥٨] [الذاريات: ٥٦-٥٨]، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّبُهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [١٥]، ﴿إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٦]، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

وغناه سبحانه وتعالى ذاتي لا ينفك عنه أزلًا وأبدًا ففي حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحْرَمًا، فَلَا تَظَلَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعَمَكُمُ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسَكُمُ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمُ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمُ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفَجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمُ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» (١). وهذا لكمال غناه سبحانه وتعالى فهو على العرش، والعرش محتاج إليه، واستوى على العرش، والعرش تحمله ملائكة عظام، والملائكة يحتاجون إلى الله عز وجل، فهو الغني الحميد،

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [٥٨: الذاريات].

وقيل الصمد: هو الذي لم يلد ولم يولد فيكون ذلك من تفسير القرآن بالقرآن. وقيل الباقي: الدائم بعد خلقه، وكل هذه الأقوال ذكرها ابن جرير في «تفسيره» وكثيرها لا يصح سندًا لكنها ثابتة المعنى في لغة العرب وبعضها تفسير للآية ببعض المعنى.

وقال ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**: وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُوَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. كَأَنَّهُ جَعَلَ مَا بَعْدَهُ تَفْسِيرًا لَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، وَهُوَ تَفْسِيرٌ جَيِّدٌ (١). اهـ.

فإنه **عَزَّجَلَّ** هو الصمد الذي تصمد إليه الخلاق لحوائجها فيقضيها ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يجي هذا، ويعطي هذا، ويشفي هذا، ويميت هذا، لا إله إلا هو الواحد القهار **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

وقال ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**: وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَنِ لَهُ، بَعْدَ إِيرَادِهِ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِ ﴿الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢]: وَكُلُّ هَذِهِ صَحِيحَةٌ، وَهِيَ صِفَاتُ رَبَّنَا **عَزَّجَلَّ**، وَهُوَ الَّذِي يُصَمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ، وَهُوَ الَّذِي قَدِ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ، وَهُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ، وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَهُوَ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ. وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ نَحْوَ ذَلِكَ أَيْضًا (٢). اهـ.

وقال ابن أبي حاتم **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: الصَّمَدُ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي سُؤْدُدِهِ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي حَلَمِهِ، وَالغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي غِنَاهُ، وَالْجَبَّارُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي جَبْرُوتِهِ، وَالْعَالِمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي حِكْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَبْغِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفُوٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (٣). اهـ.

قال شيخ الإسلام **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**: وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ لَفْظَ الْأَحَدِ لَمْ يُوصَفْ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَعْيَانِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ. وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ اللَّهِ فِي النَّفْيِ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ يَقُولُ: لَا أَحَدَ فِي الدَّارِ وَلَا تَقُلْ فِيهَا أَحَدٌ. وَهَذَا لَمْ يَحِجْ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي غَيْرِ الْمُوجِبِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦]، وَفِي الْإِضَافَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّبَعُوا﴾

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨/٥٢٨).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٨/٥٢٩).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/٣٤٧٤).

أَحَدِكُمْ ﴿ [الكهف: ١٩]، ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ [الكهف: ٣٢].

وَأَمَّا اسْمُ ﴿ الصَّمَدِ ﴾ فَقَدْ اسْتَعْمَلَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ فِي حَقِّ المَخْلُوقِينَ. كَمَا تَقَدَّمَ. فَلَمْ يَقُلْ اللهُ صَمَدٌ بَلْ قَالَ: ﴿ اللهُ الصَّمَدُ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّهُ المُسْتَحَقُّ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ هُوَ الصَّمَدَ دُونَ مَا سِوَاهُ فَإِنَّهُ المُسْتَوْجِبُ لِغَايَتِهِ عَلَى الكَمَالِ وَالمَخْلُوقُ وَإِنْ كَانَ صَمَدًا مِنْ بَعْضِ الوُجُوهِ؛ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الصَّمَدِيَّةِ مُنْتَفِيَةٌ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ التَّفَرُّقَ وَالتَّجْزِئَةَ وَهُوَ أَيْضًا مُحْتَاجٌ إِلَى غَيْرِهِ فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللهِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ فَلَيْسَ أَحَدٌ. يَصْمُدُ إِلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا يَصْمُدُ هُوَ إِلَى شَيْءٍ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَيْسَ فِي المَخْلُوقَاتِ إِلَّا مَا يَقْبَلُ أَنْ يَتَجَزَّأَ وَيَتَفَرَّقَ وَيَتَقَسَّمُ وَيَنْفَصِلُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بَلْ حَقِيقَةُ الصَّمَدِيَّةِ وَكَمَا لَهَا لَهُ وَحْدَهُ وَاجِبَةٌ لِأَزْمَةٍ لَا يُمكنُ عَدَمُ صَمَدِيَّتِهِ بِوَجْهِهِ مِنَ الوُجُوهِ؛ كَمَا لَا يُمكنُ تَشْبِيهُ أَحَدِيَّتِهِ بِوَجْهِهِ مِنَ الوُجُوهِ فَهُوَ أَحَدٌ لَا يُبَايِلُهُ شَيْءٌ مِنَ الأَشْيَاءِ بِوَجْهِهِ مِنَ الوُجُوهِ كَمَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] (١). اهـ.

فبعد أن مدح نفسه ووصف نفسه بصفات الجلال والعظمة والكبرياء، وبصفة الأحدية، والصمدية، وبصفة الألوهية، وهذه الثلاثة الأسماء العظيمة قد جمعها حديث محجج بن الأدرع، قال: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَى صَلَاتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاللهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ» ثلاث مرار (٢)، وكذا حديث بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ. الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». فَقَالَ: «قَدْ سَأَلَ اللهُ، بِاسْمِ اللهِ الأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ» (٣).

ومدار بقية الأسماء على هذه الأسماء الثلاثة؛ لا سيما اسم الجلالة (الله) عَزَّجَلَّ، الذي لم يأتِ تابعًا وإنما يأتي متبوعًا، وما كان في قول الله عَزَّجَلَّ في سورة إبراهيم: ﴿إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ المَحْمُودِ﴾ (١) اللهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴿ [إبراهيم: ١-٢]، فالعطف هنا عطف بيان لا أنه تابع ثم إنه قد قرأ برفع لفظ الجلالة.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/٢٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩٧٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩٦٥).

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ قد تقدم أنه تفسير للصمد في قول بعض أهل العلم. وفي هذا رد على النصارى ومن إليهم ممن يزعم أن الله عَزَّجَلَّ له ولد، ثم بين الله عَزَّجَلَّ في هذه السورة أنه لم يلد لكمال حياته ولكمال قيوامته، ولم يولد لأنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، ونفي الصاحبة والولد عن الله تعالى في القرآن كثير وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وَقَالَ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ [الإسراء: ١١١]، وَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً] [الفرقان: ١-٢]، وَقَالَ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وهذا القول مسبة لله تعالى، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَسَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، أَمَا تَكْذِبُهُ إِبَائِي أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَا سَتَمْتُهُ إِبَائِي أَنْ يَقُولَ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، كُفُوًا وَكَفِيئًا وَكَفَاءً وَاحِدٌ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي لا مثيل له، ولا شبيهه لا في أساءه ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهذا لعموم كماله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى مثل قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وفي هذه السورة من الفوائد العظيمة أن الأصل عند أهل السنة أنهم يصفون الله عَزَّجَلَّ بالآيات المفصل فتقول: الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، العليم، السميع، البصير، وهكذا القول في صفاته.

بينما الأصل عند أهل السنة أنهم يُجْمَلُونَ في النفي يقولون ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، إلا أنه قد يأتي بالنفي المفصل لرد ما قاله المبطلون في حق الله تعالى مثل هذه الآية ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ [الإخلاص: ٣]،

فهذا النفي المفصل لدفع ما ادعاه في حقه المبطلون من النصارى واليهود والمشركين الذين زعموا أن الملائكة أبناء وبنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

ويؤتى به لدفع توهم نقص، قال الله عزَّجَل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨) [ق: ٣٨]، فإنه قد يظن من لم يقدر الله عزَّجَل حق قدره أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام وارتاح في يوم السبت كما يقوله اليهود عليهم لعائن الله، فقال الله عزَّجَل: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨) [ق: ٣٨]، ويأتي بالنفي لبيان عموم الكمال كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) [الصفات: ١٨٠].

فكلمة «سُبْحَانَ اللَّهِ» فيها النفي المجمل وتتضمن نفي جميع النقائص عن الله عزَّجَل وتستلزم اثبات جميع المحامد لله عزَّجَل كما أن كلمة «الْحَمْدُ لِلَّهِ» تتضمن اثبات جميع الكمال لله عزَّجَل وتستلزم نفي جميع النقائص عن الله عزَّجَل ولهذا مدح نفسه عزَّجَل فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) [الصفات: ١٨٠-١٨٢].

فهذه السورة عظيمة النفع عظيمة البركة فينبغي للإنسان أن يتعلم معانيها ويتلوها ويتقرب بها إلى ربه ويُعلم معانيها لغيره لما فيها من النفع العظيم.

والحمد لله رب العالمين.



مدنية الجزء الثامن: سُورَةُ الْفَلَقِ آياتها ٥

سُورَةُ الْفَلَقِ، قِيلَ: مَكِّيَّةٌ، والذي يظهر أنها مدنية وقد ذكره ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ (١).

أنزل الله عزَّ وجلَّ على محمد ﷺ هاتين السورتين حين سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، وحديث السحر ثابت في «الصحيحين»، ولا مطعن في سنده، ولا في دلالاته؛ وقد رده بعض العقلايين، ومن أشهر من رده محمد رشيد رضا المصري صاحب مجلة المنار، ورد عليه الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللهُ بكتاب في «ثبوت حديث السحر وبيان بعد محمد رشيد رضا عن السلفية»، فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى كَانَ يُحِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: «أَشْعَرْتُ أَنْ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا فِيهِ شِفَائِي؟»، أَتَانِي رَجُلَانِ: فَتَعَدَّ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ مَا وَجَعَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِيمَا ذَا، قَالَ: فِي مُسْطٍ وَمُسَاقِفَةٍ، وَجُفٌّ طَلَعَةٍ ذَكَرَ، قَالَ فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بَيْتِ ذُرْوَانَ فَخَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ لِعَائِشَةَ حِينَ رَجَعَ: «نَحَلَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» فَقُلْتُ اسْتَخْرَجْتَهُ؟ فَقَالَ: «لَا، أَمَا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللَّهُ، وَخَشِيتُ أَنْ يُبَيِّرَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا» ثُمَّ دُفِنْتُ الْبُتْرَ (٢).

وقد جاء من حديث عن عُبَيْةِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: اتَّبَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ فَوَضَعْتُ، يَدِي عَلَى قَدَمِهِ، فَقُلْتُ: أَفَرَّئِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ سُورَةَ هُودٍ، وَسُورَةَ يُوسُفَ. فَقَالَ: «لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]» (٣).

فهنا سورتان عظيمتان صلى بهما النبي ﷺ في فجر وهو في سفر، كما جاء عن عُبَيْةِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَقُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَاحِلَتَهُ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ: «يَا عُبَيْةُ أَلَا أَعْلَمُكَ خَيْرَ سُورَتَيْنِ قُرِئَتَا؟» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] فَلَمَّا نَزَلَ صَلَّى بِهِمَا صَلَاةَ الْغَدَاةِ، قَالَ: «كَيْفَ تَرَى يَا عُبَيْةُ؟» (٤).

وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يشبههما من المصحف، ويقول: إنما هما تعاويد ورقي أنزلها الله على محمد ﷺ، فعن زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: إِنَّ أَخَاكَ يَحْكُمُهُمَا مِنَ الْمُصْحَفِ، - قِيلَ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤٩٩/٨).

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩).

(٣) أخرجه النسائي (٩٥٣)، والحديث في «الصحيح المسند» (٤٥٢/١) لشيخنا مقبل الوداعي رَحِمَهُ اللهُ.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٣٩٢).

لِسُفْيَانَ: ابْنِ مَسْعُودٍ؟ فَلَمْ يُنْكِرْ - قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «قِيلَ لِي، قُلْتُ» فَحَنُّ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ سُفْيَانُ: يَحْكُمُهَا: الْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَلَيْسَا فِي مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ «كَانَ يَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُعَوِّذُ بِهِمَا الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَلَمْ يَسْمَعْهُ يَقْرُؤُهُمَا فِي شَيْءٍ مِنْ صَلَاتِهِ»، فَظَنَّ أَنَّهُمَا عُودَتَانِ، وَأَصْرَ عَلَى ظَنِّهِ، وَتَحَقَّقَ الْبَاقُونَ كَوْنَهُمَا مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَوْدَعُوهُمَا إِيَّاهُ^(١).

وقد سُحِّرَ النَّبِيُّ ﷺ وعقد له إحدى عشر عقدة، فأنزل الله إحدى عشر آية، كلما قرأ آية انحلت عقدة، وهي من أعظم ما يتعوذ به، فعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَابِسِ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ عَابِسِ، أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذُ بِهِ الْمُعَوِّذُونَ؟» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(١) [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٢) [الناس: ١]، هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ»^(٣).

وقد كان النبي ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فلما نزلت «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(١) [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٢) [الناس: ١] كان يعوذهما بهما»^(٣). وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ، ثُمَّ أَعْيَنَ الْإِنْسِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، أَخَذَهُمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ»^(٤).

وكان النبي ﷺ يقرأ بهما عند نومه، فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) [الإخلاص: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(١) [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٢) [الناس: ١]، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»^(٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ^(٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ^(٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ^(٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ^(٥)

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد في دعائك واستعاذتك ولوذك إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿أَعُوذُ﴾.

(١) أخرجه أحمد (٢١١٨٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٢٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢١١٨٩)، عَنْ أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد تقدم.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٥١١).

(٥) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

والعوذ يكون من المرهوب، وكما قيل:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أَوْلَمُهُ ❖ ❖ ❖ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَحَاذِرُهُ
لَا يَجْزُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ❖ ❖ ❖ وَلَا يَهَيِّضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

﴿بِرَبِّ أَلْفَلَقِ﴾ صاحب الفلق، سواءً فالق الحب والنوى أو فالق الإصباح، فقد يراد بالفلق هنا أنه يفلق الإصباح من الليل، فيقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلَقِ﴾ هذا الشيء الذي لا يستطيعه أحد من الناس، وهو إخراج الصباح من الليل، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ آيَاتَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: جميع الشرور، شر النفس، والشيطان، والجار، والابن، والزوجة، والثعابين، والحيات، والشياطين، فهذا إجمال عظيم في هذا الدعاء، يستعيذ المسلم من جميع الشرور والآثام.

ثم جاء التفصيل بعد الإجمال فقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قيل: الليل، وقيل: القمر، ففي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ تَعُوذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ، هَذَا غَاسِقٌ إِذَا وَقَبَ»^(١)، وسمي الليل شرًا؛ لظلامه وحصول كثير من الهامات فيه، فتفش فيه الهوام، ويتشرب فيه الشياطين، وربما يحصل على الإنسان شر عظيم فيه؛ فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ، أَوْ قَالَ: جُنِحَ اللَّيْلُ، فَكُفُّوا صَبِيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَتَشَبَّهُ حَيْثُئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَطْفِئِ مِصْبَاحَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَحَمِّرْ إِنْءَاكَ وَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ تَعَرَّضَ عَلَيْهِ سَيْئًا»^(٢).

﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: إذا حصل وحل.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ويستعيذ من شر السواحر، وُسْمِين بالنفثات؛ لأنهن يعقدن خيوطًا، إما شعرا، وإما خيطًا، وإما أوتارًا ونحو ذلك، ثم تنفث فيه مع قراءة بعض الرقى والتائم، وهذا من أشد أنواع السحر، فقد يقوم الساحر بمثل هذه العقد وهذا النفث، ثم يدفن هذا السحر إما في البحر وإما في مقبره، أو غير ذلك.

(١) أخرجه أحمد (٢٥٧١١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٨٠)، ومسلم (٢٠١٢).

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ويستعاذ من شر حاسد إذا حسد؛ لأن الحاسد يؤذي، وربما أصاب بالعين، إلى غير ذلك، فاستعذ بالله من شر كل حاسد إذا حسدك وتمنى زوال النعمة عنك. فتدرجت هذه السورة في بيان ما يستعاذ منه:

﴿أولاً﴾ الاستعاذة من جميع الشرور.

﴿ثانياً﴾ من الليل وما فيه من الهوام والشرور.

﴿ثالثاً﴾ الاستعاذة من السحرة والمشعوذين والكهنة والعرافين.

﴿رابعاً﴾ الاستعاذة من شر الحسدة.

وقوله: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾؛ لأن أغلب الناس في قلوبهم حسد، حتى قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: مَا خَلَا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ؛ لَكِنَّ اللَّئِيمَ يُبْدِيهِ، وَالكَرِيمَ يُخْفِيهِ^(١)، فالإنسان إذا شعر أنه يحسد أخاه على ما أتاه الله ينبغي أن يستغفر، وأن يدعو لأخيه بالخير، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ٥٤]. فهذه صفة اليهود، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَا حَسَدَتْكُمْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّامِينِ»^(٢).

وكما قيل في الحاسد:

لله در الحسد ما أعدله ❀❀❀ بدأ بصاحبه فقتله

وأسوء الحسد، الحسد في العلم، أو العبادة فتحب أنه يُصرف عن هذا، وهذا دليل على ضعف الإيمان، وقلة المراقبة، وقلة الإحسان، بل تفرح إذا رأيت أخاك مقبلاً على العلم والعمل، قريباً من الله بعيداً عن الشرور والآثام.

والحمد لله رب العالمين.

❀❀❀❀❀

(١) أخرجه ابن ماجه (٨٥٦)، والحديث في «الصحیح المسند» (١٥٨٦) لشيخنا مقبل الوداعي رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٢٥).

مدنية الجزء الثاني من سورة التائين آياتها ٦

سُورَةُ التَّائِينَ، مَدَنِيَّةٌ، عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْغَيْثَةِ وَالنَّاسِ ⑥ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ أي: قل يا محمد في دعائك واستعاذتك ولوذتك ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ أي: ألبأ في دفع المضار وجلب المنافع إلى رب الناس، والناس قيل: هم البشر، وقيل: الجن والإنس، وسموا ناس من الحركة فالنوس هو الحركة.

﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ أي: واستعِذ بملك الناس، المالك لهم، والمتصرف فيهم خلقاً وإيجاداً، ومنعاً ودفعاً، ورفعاً ووضعاً، فهو الملك حقاً، وإن وجد ملك من الناس فهو مُلك قاصر، لا يستطيع أن يتصرف إلا بما قد قدره الله كوناً؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ له الملك المطلق.

﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ أي: معبود الناس الذي ينبغي ألا يتخذ غيره إلهاً، وإن اتَّخَذَ غَيْرَهُ إلهًا، فهو كفر وشرك، كما قال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ في سورة الفلق استعاذ من الشرور الخارجية الواقعة على الإنسان، وفي هذه السورة استعاذ من الشرور الداخلية ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ وهو ما يقع في قلب الإنسان وعقله، وكم من إنسان إذا دخل فيه الوسواس أفسده، وأدى بها إلى الجنون، لا سيما ما يسمى في الطب: بالوسواس القهري، والناس يتفاوتون فيه، إذ أن الوسواس القهري يأتي كل إنسان على ما هو فيه، إن كان من أهل الصلاة جاءه الوسواس في الصلاة، وأنه لم يحسن، وأنه لم يقرأ، وأنها لن تقبل، وأنها لن ترفع، فيبقى حائرًا شاكًا موسوسًا تتلاعب به الشياطين، وإذا كان من أهل الرئاسة ونحوها جاءه الوسواس في ذلك الأمر: لماذا فلان ما يقوم؟، لماذا فلان لا يفعل؟، إذن لا بد أن أفعل، وربما يصل به الحال إلى القتل.

وذكر لنا الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ قصة، قال: كان رجل يصلي وآخر خلفه، فبينما هو على ذلك الحال إذ ترك الصلاة وقتل صاحبه، فقيل له: لماذا تفعل هذا؟ قال: كنت أصلي فشعرت أنه

يريد أن يقتلني، وكان الشيخ مقبل رَحْمَةُ اللَّهِ يَقُولُ: احذر من رجلين: من الموسوس والجالسوس. فلا أحسن للوسواس من العلاج الإلهي وهو اللجوء إلى الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنْ

الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ [فصلت: ٣٦].

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبِّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلِيَّتِهِ» (١).

قال: ﴿الْخَنَّاسِ﴾ سمي الخناس؛ لأنه يأتي بشدة، ثم إذا ذكر الله خنس، فإذا غفل الإنسان عاد إليه بشدة، وأحسن علاج للوسواس ترك الوسواس، وترك الوحدة، والتماهي في الوسوسة، بل قطع الوسواس بالصلاة ونحو ذلك، وعدم المبالاة بها، كما قال بعضهم:

وَالشُّكُّ بَعْدَ الْفِعْلِ لَا يُؤْتِرُ ❀ ❀ ❀ وَهَكَذَا إِذَا الشُّكُّوكُمْ تَكَثَّرُ

﴿الَّذِي يُوسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ أَي: يستعيد بالله من شر الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس ويلعب بهم، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّائِبِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّائِبِينَ أُقْبِلَ حَتَّى إِذَا تُوبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّوْبِ، أُقْبِلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ كَذَا وَاذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَذْكُرْ مِنْ قَبْلُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى» (٢).

﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ من الجن والشياطين ومن في باهم ﴿وَالنَّكَاسِ﴾ أَي: البشر فمنهم موسوسون، يجلس معك ويأتيك بالكلام الذي يؤدي بك إلى هذا المرض، فاستعد بالله من شرورهم جميعاً، فإن الله عَزَّجَلَّ إذا أعادك فأنت محفوظ ومحاط ومنصور بإذن الله عَزَّجَلَّ، والله أعلم.

آخِرُ التَّفْسِيرِ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالرَّحْمَةُ

والحمد لله رب العالمين.



(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٢٢٢)، ومسلم (٣٨٩).

خاتمة

هذه تعليقة مختصرة على هذه السور، وإلا فقد توسع أهل التفسير فيما يتعلق بها، ونحن إنما أردنا أن نقرب الأمر إلى أنفسنا ثم إلى غيرنا؛ لأنها سور تتكرر قراءتها في كل صباح ومساءً، وربما في أغلب الصلوات، فينبغي للإنسان أن يكون عالماً بما يقرأ عارفاً لما يتلو؛ فإن ذلك أدعى لاستفادته، وأدعى لقربه من الله **عَزَّجَلَّ**، فإن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يقول: ﴿ **أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ** **الْقُرْآنَ** **أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد: ٢٤]، ويقول: ﴿ **أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ** **عِزِّ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ آخِذًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٢].

فينبغي للمسلم أن يتعلم مثل تفسير جزء عم وما في بابه من تفسير الفاتحة، وكذلك تفسير الآيات التي تكثر قراءتها، أما من استطاع أن يكون عالماً بتفسير القرآن أجمع فهذا خير عظيم، يوفق الله **عَزَّجَلَّ** له من أراد من عبادته.

سبحانك اللهم ومحمدك لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

والحمد لله رب العالمين.

انتهيت من مراجعته بعد تفريغه: ١٦ / ذو الحجة الحرام / ١٤٤٠ هـ.

بمسجد الصحابة بالفيضة.

والله الموفق إلى سواء سبيل



الحجرات

٣	مُقَاتَلَاتُهَا
٦	سُورَةُ الْفَاتِحَةِ
٦	من نعم الله عَزَّوَجَلَّ إنزال القرآن
٧	سورة الفاتحة أعظم سورة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ
٩	هل البسملة آية
٣٢	سُورَةُ الْبَلَدِ
٤٥	سُورَةُ النَّازِعَاتِ
٥٩	سُورَةُ عَبَسَ
٦٩	سُورَةُ التَّجْوِيدِ
٧٨	سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ
٨٢	سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ
٩٣	سُورَةُ الْاَشْقَابِ
٩٩	سُورَةُ الْبُرُوجِ
١٠٧	سُورَةُ الطَّارِقِ
١١٢	سُورَةُ الْاَعْلَى
١٢١	سُورَةُ الْغَاشِيَةِ
١٢٩	سُورَةُ الْفَجْرِ
١٣٨	سُورَةُ الْبَشَرِ
١٤٦	سُورَةُ الشَّمْسِ
١٥٣	سُورَةُ اللَّيْلِ
١٦١	سُورَةُ الضُّحَى
١٦٥	سُورَةُ الشَّرْحِ
١٦٩	سُورَةُ التِّينِ
١٧٣	سُورَةُ الْعَلَقِ
١٨١	سُورَةُ الْاِقْلَامِ

- ١٨٥ سورة التين
- ١٩٥ سورة الزلزلة
- ١٩٨ سورة العنكبوت
- ٢٠١ سورة القمر
- ٢٠٥ سورة النجم
- ٢١١ سورة الحديد
- ٢٢٤ سورة الحديد
- ٢٢٦ سورة الحديد
- ٢٣٢ سورة الحديد
- ٢٣٥ سورة الحديد
- ٢٤٠ سورة الحديد
- ٢٤٤ سورة الحديد
- ٢٥٠ سورة الحديد
- ٢٥٤ سورة الحديد
- ٢٥٧ سورة الحديد
- ٢٦٧ سورة الحديد
- ٢٧١ سورة الحديد
- ٢٧٣ خاتمة
- ٢٧٤ الحجرات